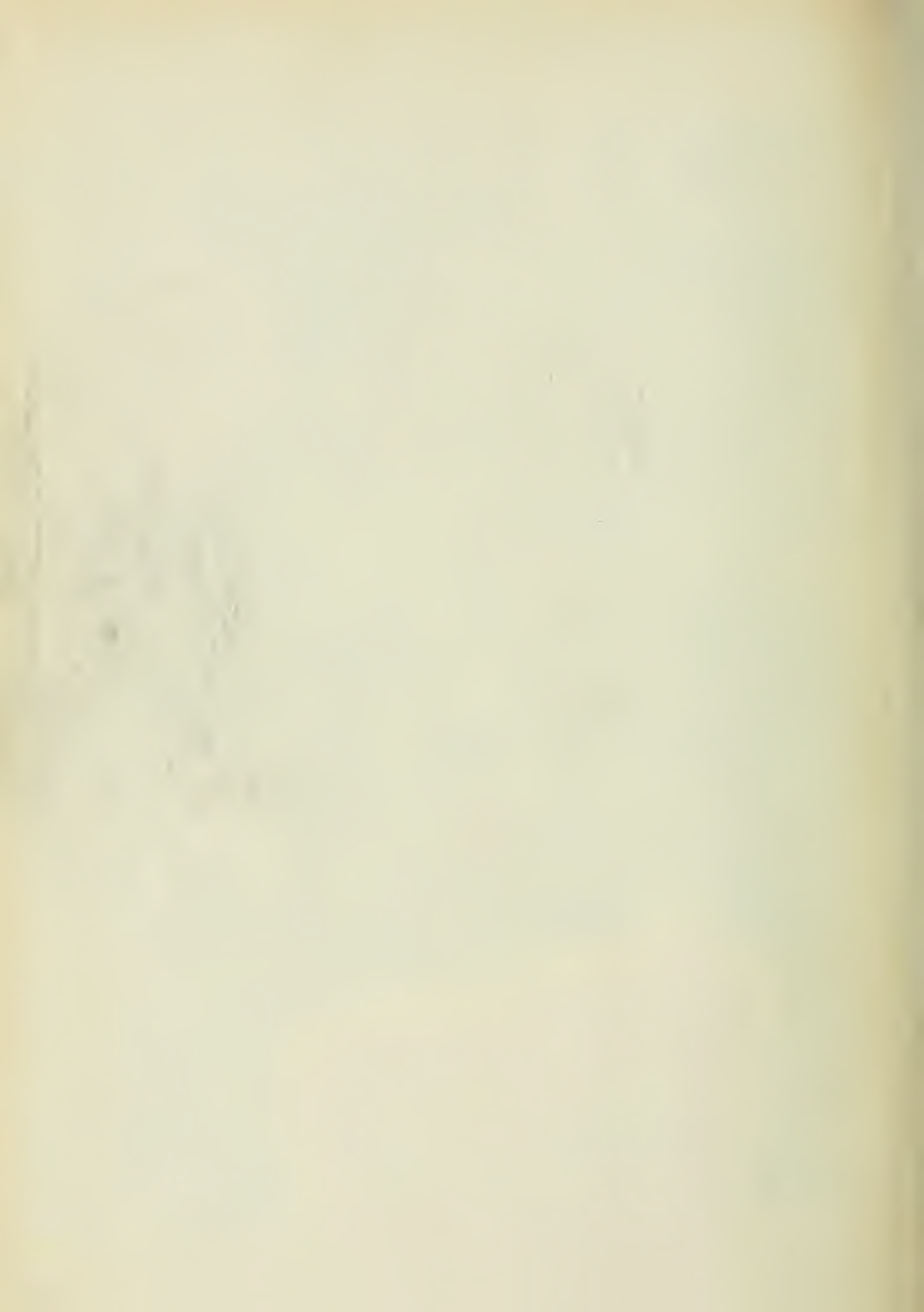




روايات تاريخ الإسلام









الحجّاج بن يوسف

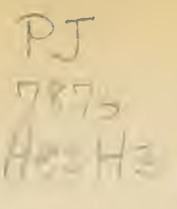
رواية تاريخية

تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها ، ومقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان . ويتخلل ذلك وصف مكة والمدينة وعادات الناس وأخلاقهم وسائر أحوالهم

تأليف

جرجي زيدان

دار الهلال





ابطال الرواية

❋ **عبد الله بن الزبير**	: ابن الزبير بن العوام
❋ **عبد الملك بن مروان**	: أحد ملوك بنى أمية
❋ **الحجاج بن يوسف الثقفى**	: عامل عبد الملك على العراق
❋ **سكينة بنت الحسين**	: بنت الحسين بن على
❋ **ليلى الاخيلية**	: الشاعرة المشهورة
❋ **عزة الميلاء**	: زعيمة الغناء بالمدينة
❋ **سمية بنت عرفجة الثقفى**	: من فتيات المدينة
❋ **حسن خطيب سمية**	: من أهل العراق
❋ **محمد بن الحنفية**	: أخو الحسين بن على
❋ **عبد الله بن صوفان**	: من أتباع ابن الزبير

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

❋ صفوة الاعتبار	❋ المستطرف
❋ مراصد الاطلاع	❋ الدر المنثور
❋ الأغانى لأبى فرج الاصفهانى	❋ مشكاة المصابيح
❋ التقويم العام	❋ البخارى
❋ البيان والتبيين	❋ مقدمة ابن خلدون
❋ تاريخ ابن هشام – ابن الاثير –	❋ أسد الغابة
الدميرى – ابن خلكان – الفخرى	❋ العقد الفريد

– ١ –

بعد مقتل الحسين

انتهينا فى رواية « غادة كربلاء » الى حيث قتل الحسين بن على وأهله فى كربلاء بجوار الكوفة ، وما كان من الوقائع بعد ذلك الى وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ . ولما مات يزيد ، كان عبد الله بن الزبير لايزال فى مكة يدعو الى نفسه ، وقد خلا له الجو بعد موت الحسين . وكان يزيد قد بعث لقتاله جندا تحت قيادة الحصين بن نمير ، فجاء الخبر بوفاة يزيد وهم فى الحصار . ولم يكن من أبناء يزيد من يصلح للخلافة ، فرأى الحصين ان الأمر لا يستتب الا بمبايعة عبد الله بن الزبير . فطلب اليه أن يحقن الدماء ويقدم معه الى الشام ليبايعه فأبى عبد الله . فارتحل الحصين الى الشام بمن معه ودانت الحجاز لابن الزبير

وأما فى الشـــام ، فانهم بايعوا بعد موت يزيد ابنـــه معاوية (الثانى) فلم يعش الا أياما ثم اختلفوا على من يبايعون بعده . وكان فى جملة أمراء بنى أمية مروان بن عبد الحكم . وكان أميرا للمدينة على عهد يزيد ، فلما مات يزيد رحل مروان الى الشام فبايعوه لأنه شـــيخ طاعن فى السن ، فتزوج أم خالد بن يزيد ليكسب الى جانبه حزب بنى يزيد ويضعف عزيمة خالد فى طلب الخلافة .. ولكن امرأته هذه خنقته سنة ٦٥ هـ ، لسبب سيأتى

ذكره ، وهو لم يحكم الا تسعة أشهر وبضعة عشر يوما .. فولوا مكانه ابنه عبد الملك بن مروان ، وفى أيام هذا الخليفة ازدهرت دولة بنى أمية ، وتأيّد سلطانها ..

وأما ما كان من أهل الكوفة ، فانهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه ، ورجعوا الى رشدهم ، وقاموا يطالبون ابن زياد وأصحابه بدمه ، وسموا أنفسهم التوابين

وفى سنة ٦٦ هـ ، ظهر فى الكوفة رجل اسمه المختار بن أبى عبيد ، قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس الى بيعة ابن الزبير. فحارب الأمويين ، وقَتَل قَتَلة الحسين.. وفيهم عبيدالله بن زياد، وشمر بن ذى الجوشن ، وخولى الاصبحى ، وعمر بن سعد ، وغيرهم . فلما ذاق النصر بدّل دعوته ، وصار يدعو الى محمد ابن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، وزعم ان جبريل يظهر له . واتخذ كرسيا قال ان فيه سرا مثل سر تابوت العهد عند اليهود

فلما استفحل أمر المختار فى الكوفة ودان له العراق ، واصبحت الخلافة يتنازعها ثلاثة : عبد الملك فى الشام ومصر ، والمختار فى العراق ، وابن الزبير فى الحجاز ، غضب عبد الله بن الزبير على المختار لنقضه بيعته .. فبعث اليه أخاه مصعب بن الزبير فحاربه وقتله ، فدانت العراق لعبد الله ، ولم يبق لبنى أمية غير الشام ومصر . فخاف عبد الملك على سلطانه ، فجند جندا وقدم الى العراق فحارب مصعبا وقتله سنة ٧١ هـ واسترد العراق . وبعث جندا الى الحجاز لقتال ابن الزبير فملك المدينة ، ثم أرسل

الحجاج بن يوسف الثقفى فى جند لفتح مكة فحاصرها ، وطلب الى عبد الله ان يسلم فأبى .. فدخلت سنة ٧٣ وابن الزبير محاصر فى مكة ، وقد قل زاده وفارقه رجاله ..

— ٢ —

عزة الميلاء فى المدينة

المدينة ؛ ويقال لها يثرب ، هى مدينة الرسول .. وفيها قبره ومسجده . وكان يحيط بها سور وخندق .. وهى تقع فى منبسط من الارض تكتنفها الآجام والغياض . وقد عمرت فى صدر الاسلام حتى كانت أيام يزيد بن معاوية فهجرها كثير من أهلها (١) لكثرة الفتن والحروب فى أيامه ، ولكنها ظلت آهلة وفيها أهل البيت ، وتتخلل أبنيتها البساتين والحدائق وأكثر مغارسها من النخيل (٢)

وكان من أهل المدينة ، فى أواسط القرن الأول للهجرة ، مغنية يقال لها عزة الميلاء وكانت مولاة للأنصار . وهى أقدم من غنّى الغناء الموقع من النساء فى الحجاز ، وقد سميت الميلاء لتمايلها فى مشيتها من بدانتها . وكان العرب حديثى عهد بالعود ، فأجادت هى التوقيع عليه حتى ضرب بها المثل . وكانت تحسن العزف على المزاهر والمعازف وسائر آلات الطرب .. وكانت جميلة الوجه

(١) صفوة الاعتبار (٢) مراصد الاطلاع ـ الجزء الثالث

ظريفة اللســان كريمة الخلق سخية النفس ، لا يقدم قادم الى المدينة الا التمس أن يراها ويسمع غناءها

وكان العرب يومئذ لا يعدون الغناء من الفنون اللائقة بأهل الشرف ، (١) ولكن عزّة كانت مع ذلك ذات دين وهيبة ووقار ؛ اذا اشتركت فى مجلس عام فكأن الطير على رؤوس أهل مجلسها .. من تكلم أو تحرك نقر رأسه (٢)

وكانت دار عزة فى طرف المدينة من جهة الشمال ، مما يلى طريق الشام ، فى بستان من النخيل تتخلله أشجار الفاكهة من البرتقال والتفاح . ويكتنف البستان والدار سور قليل الارتفاع له باب بمصراع واحــد فى وســطه خوخة . وفى أحد جوانب البستان عريش بُنى من سعف النخيل ، أشبه بقبو طويل تبيت فيه الدواب . والبيت يتألف من باحة كبيرة يكتنفها من الجانبين غرفتان من كل جانب ، وفى الصدر قاعة واسعة تجلس فيها عزة لمقابلة الزائرين ، وبطرفى باحة الدار نخلات متقاربة تظللها فى أثناء النهار

ففى يوم من أيام ربيع الآخر سنة ٧٣ للهجرة (وهو يوافق شهر أغسطس سنة ٦٩٣م) (٣) قضت عزة الميلاء نهارها فى بيتها ، وكان يوما شديد الحر ، والحر ثقيل هناك نظرا للرطوبة المتكاثفة مما يتصاعد من الأبخرة من المستنقعات والأشجار . فلما دنت الشمس الى الغروب ، دخلت مخدعها فأخرجت قارورة من الطيب

---

(١) الاغانى ــ الجزء الاول
(٢) الاغانى ــ الجزء السادس عشر
(٣) التقويم العام

فتطيَّبت ، وبدلت ثيابها فالتحفت ملاءة معصفرة لونها أصفر زاه ، وكشفت النقاب عن رأسها لشدة الحر مع خلو المكان من الرجال ، وأرادت أن تتناول عشاءها على سطح البيت

وكانت يومئــذ فى نحو الخمسين من عمرها ، وقد تزايدت بدانتها ، وذهبت أستدارة وجهها ، وارتخى خداها واستطالا الى أسفل الذقن بما يشبه ذقنا ثانيا ، وثقل بدنها حتى لم يكن فى المدينة دابة تحملها ، (١) ولا غرابة فى بدانتها فهى قلما تنتقل من بيتها ، والناس يفدون عليها لسماع غنائها أو عزفها على عودها ؛ ويحملون اليها الأموال والهدايا من الحلى والمجوهرات حتى ملأت معصميها بالأساور والدمالج ، وملأت عنقهــا بالعقود ، وضفرت شعرها بسلاسل الذهب والدنانير ، وعلقت فى أذنيها قرطين كبيرين يناسبان حجم أذنيها لأنها كانت كبيرتهما مع تناسب التكاسير ، وكذلك آذان أهل الغناء والموسيقى فى الغالب (٢)

وكان الرجل ، من أهل الوجاهة ، اذا أراد الزواج بفتاة لا يعرفها استشار عزة ووسَّطها فى خطبتها أو استطلاع حقيقــة جمالها وصحتها (٣)

وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ولم تعمل عملا لشدة الحر ، وعندها فتاة من أهل المدينة اسمها « سمية » كانت تحبها وتأنس بها . وكانت الفتاة ترتاح الى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها

---

(١) الاغانى ــ الجزء الثانى
(٢) علم الفراسة الحديث
(٣) الاغانى ــ الجزء العاشر

فى أمرها ، وقد جاءتها يومئذ وعليها ثوب أحمر يكسوها كلها . وكانت معتدلة القامة صحيحة الجسم ، اذا نظرت الى تقاطيع وجهها على حدة فانك لا ترى جمالا باهرا ، ولكن فى عينيها ما يدل على الذكاء والحب ، وحول ثغرها ابتسامة تأخذ بالعقول ، حتى كانت وهى فى أشد حالات الاضطراب قلّما تبدو الكآبة على وجهها ، وانما تظهر الكآبة عليه بمظهر الهيبة . وفى ذقنها اندفاع قليل الى الأمام مع بروز ، وهو دليل الانعطاف ، وفى أنفها ذلف قليل يزيدها هيبة .. وكانت سميّة فى نحو الثالثة والعشرين من عمرها

– ٣ –

ضواحى المدينة

فلما أرادت عزة الصعود الى السطح ، أمرت جارية لها أن تفرش عليه البساط وتعد المائدة ، وأمسكت ضيفتها بيدها وقالت لها وهى كأنها تشاغلها عن همومها : « هلمَّ بنا الى السطح يا سمية ، واتركى الهواجس عنك وتعالى لأريك يثرب وضواحيها من سطح بيتى .. فانها من أجمل ما يكون ، ولا تتعجلى الذهاب الى بيتكم لأننى لا أظن والدك قد عاد اليه الآن .. »

فمشت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها ، وأرادت نسيان ما يجول فى خاطرها من دواعى الهم ، وصعدتا على سلم من

خشب كان يهتز كلما نقلت عزة قدما عليه حتى وصلتا الى السطح ، والجارية قد أعدت المائدة . فجلست عزة وأجلست سمية الى جانبها ، وقد لاحظت انها لا تزال مضطربة البال بما فى نفسها . فأرادت أن تصرف ذهنها الى شىء آخر ، فلم تر خيرا من أن توجه التفاتها الى ما يحيط بالمدينة من بساتين النخيل وما بينها من برك الماء والمستنقعات ، فقالت لها : « انظرى يا بنية الى هذه البساتين الواسعة وراء سور المدينة ، فان نظرك لا يبلغ آخرها الا على التلال البعيدة ، وخصوصا على هذا الجبل .. وهو جبل أحد الذى جرت فيه الوقعة الشهيرة بين النبى صلى الله عليه وسلم وقريش . وذكر هذه الوقعة يؤلمنى لأن الغلبة كانت للقرشيين ، وقتل من المسلمين سبعون رجلا . وأصيب النبى بجراح وقتل عمه حمزة » (١)

فقالت سمية : « وهل شهدت تلك الوقعة ؟ »

قالت عزة : « كلا ، لأنها حدثت منذ سبعين سنة ، فكيف أكون قد شهدتها ؟ ! » ثم عادت عزة الى اتمام كلامها عن تلك المناظر ، فقالت : « وانى ليعجبنى منظر المياه حوالى غروب الشمس .. انظرى الى هذه البحيرة ، فان ماءها ساكن كأنه صفحة من الفضة اللامعة ، وظلال النخيل تتراءى على شواطئها مقلوبة كأنها مردة من الجان يغوصون فى الماء »

وكانت الشمس لما دنت الى المغيب قد أرسلت أشعتها منحرفة

(١) ابن هشام — الجزء الثانى

على تلك المغارس ، فاستطالت ظلال النخيل وما زالت تستطيل وتضعف حتى اختلطت وصارت ظلاما

وأما سمية فكانت تتابع عزة فيما تقول ، وبصرها ثابت على تلك البحيرة بالرغم منها ، والبصر اذا أطلق سراحه يطلب النور . فلما غابت الشمس ، كان سطح البحيرة ما زال يلمع بانعكاس الشفق عنه ، وظلال النخيل فيه واضحة وضوح الخطوط السوداء على رقعة بيضاء . وبعد قليل ، لم يعد يظهر للرائى غير سطح المياه وما يبدو فيها من ظلال الأشجار .. وأما اليابس وما عليه فلم تكن العين تميّزه ..

وانشغلت عزة وسمية عن الطعام والكلام بالتأمل فى ذلك المنظر البديع ، وتسمعت آذانهما الى نقيق الضفادع يتخلله صياح الديكة فى الدار

— ٤ —

طويس المغنى

تحولت عزة نحو المائدة ودعت سمية لمشاركتها فى الأكل ، وجعلت تقطع من لحم الدجاج وتناولها ، وهى تأكل وعيناها تجولان فى تلك المناظر . ثم عادت عزة الى محادثتها ، فقالت لها : « مالى أراك صامتة يا سمية ، هل تفكرين فى والدك وتخافين اذا غبت عنه أن ينقم عليك ؟.. لا تخافى ، فأنه اذا علم انك عند

عزة لايعاتبك » ..

وتوقعت عزة بعد الفراغ من قولها ان تسمع من سمية جوابا ، فاذا هى لا تزال ثابتة النظر فى تلك البحيرة .. وآنست فى وجهها بغتة ، وقد توقفت عن المضغ واللقمة لا تزال فى فمها ، وهى تتفرس فى البحيرة وقد قطبت حاجبيها وحددت بصرها ، فأعادت عزة السؤال عليها .. فأجابتها سمية ، وقد عادت الى المضغ وهى تشير بيدها الى البحيرة وتقول : «كأنى أرى النخيل تنتقل فى الماء ... ما هذا ..؟ ماذا أرى ؟ »

فالتفتت عزة ــ وفى يدها لقمة كانت أعدتها لسمية ــ ونظرت فى البحيرة فرأت ظلالا تتحرك فى الماء بين ظلال النخيل ، ولكنها لم تر الأشباح على الجرف لأن الظلام حجبها ، ولكن انعكاس الشفق على سطح الماء أظهرها ، فقالت : « انك ترين ظل شبح سائر بجانب البحيرة ... » وتفرست عزة قليلا ، ثم قالت : « ان الذى نراه ظل شبحين أظنهما فارسين مارين بين النخيل على حافة الجرف .. لا ، بل هما جملان وعليهما رجلان.. أليس كذلك ؟ »

قالت سمية : « بلى هما جملان ، ويخيل لى انهما ماشيان على سطح الماء ورأساهما الى أسفل » ..

فضحكت عزة وقالت : « انك ترين ظليهما يا بنية .. وأرى الآن شبحا ثالثا .. أظنه جملا ثالثا » . ولم يمض قليل حتى توارت الأشباح ، فقالت عزة : « لا تشغلى بالك .. ليس ما ترين الا أناسا أظنهم قادمين الى المدينة من دمشق ، وما هذه

أول مرة رأيت فيها مثل هذا المنظر ... عودى الى طعامك فقد بَرُد الهواء وخفت حدة القيظ ، ومتى فرغنا من الطعام أسمعك لحنا تلقنته من أستاذتى رائقة » (١) ..

فعادتا الى الأكل ، وهما لا تتكلمان ، ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى تكاثف الظلام واحتاجتا الى الضوء .. فصفقت عزة فجاء رجل فى نحو الستين من عمره لايزال الجمال باديا عليه ، وهو نظيف الثوب حسن الهندام ، فلما رأته سمية غطت وجهها . فضحكت عزة ، وقالت : « أتحتجبين من مخنث ؟ » ولم تكن سمية قد عرفته فى الظلام

وكان فى المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء المخنثين ، كانوا يخالطون النساء ، وأكثرهم يحب الغناء ويحسنه . وكان من أراد خطبة امرأة سأل عنها أحد المخنثين ، فلا يزال يصف ما يعجبه ثم يتوسط بينه وبين من تعجبه منهن حتى يتزوجها . وكان أكثر هؤلاء المخنثين يترددون على عزة ويتقربون اليها بالخدمة والمنادمة ليتلقنوا عنها الغناء

فلما وقف ذلك المخنث بين يديها ، قالت : « ماذا جاء بك ياطويس ؟ .. »

فلما سمعت سمية اسم طويس قالت : « أطويس هذا ؟.. »

قالت عزة : « هو بعينه.. ولايزعجك انه جاءنا على حين غفلة» فان ذلك دأبه معنا .. ياطويس ، قل للجارية تضىء لنا الشموع ،

(١) الأغانى ـ الجزء السادس عشر

فاننا سننزل بعد قليل » ..

قال طويس : « أفعل ذلك بشرط واحد »

قالت عزة : « وما هو ؟ .. »

قال طويس : « تغنين لى شعرا على الهزج »

قالت عزة : « أتطلب الىَّ أن أغنى لك الهزج وانت أهزج الناس ، (١) لوسألتنى أن أغنى من الثقيل أو الرمل لكان خيرا »

قال طويس : « لا أبالى أى صــوت ، وانما أقترح عليك شعرا تغنينه » ..

قالت عزة : « افعل ان شاء الله .. ولكنى أخاف من وجهك لأنك على ما يقال مشئوم »

قال طويس : « وأكثر من مشئوم ، فان أمى كانت تمشى بالتمائم بين نساء الأنصار ، ثم ولدتنى ليلة قبض النبى صلى الله عليه وسلم وفطمت ليلة مات أبو بكر ، واحتلمت ليلة قتل عمر ، وزففت الى أهلى ليلة قتل عثمان ، وولد لى يوم قتل على »

فضحكت عزة لخفة روحه ، وقالت له : « أرجو أن لايتكامل شؤمك علينا الليلة .. فامض أعزك الله ، وافعل ما قلته لك »

---

(١) الأغانى ـ الجزء الرابع

— ٥ —

طارق مجهول

فنزل طويس ، وبعد قليل نزلت عزة وسمية ودخلتا القاعة التى تستقبل عزة فيها الضيوف . ومشت عزة الى صدر القاعة وهى تتوكأ على أوراكها حتى جلست على مقعد والأرض مفروشة بالطنافس وحولها الوسائد وقد أضيئت الشموع . وجلست سمية بجانب عزة ، وعادت الى هواجسها . وأما طويس فانه تناول دفا مربعا كان معلقا بالحائط فى جملة الأعواد والمزاهر والدفوف المعلقة هناك ، ورماه فى حجر عزة ..

فقالت عزة : « ويلك .. ماذا تريد ؟ »

قال طويس : « بأبى أنت وأمى .. أريد أن أسمع غناءك »

قالت عزة : « تمهل يا طويس ريثما أستريح »

وفيما هى تكلمه ، سمعت هدير جمال بقرب باب البستان ، فقالت : « انظر يا طويس من جاءنا الليلة .. انى أخشى أن يكون شؤمك قد وصل الينا »

قالت سمية : « وأى شؤم تخافين ونحن فى أمان ؟ »

قالت عزة وقد خفضت صوتها : « لا أظننا فى أمان وأميرنا اليوم يأكل المخ ويأكل فوقه التمر على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ... اذهب يا طويس وأخبرنا من القادم » ..

---

(١) ابن الأثير — الجزء الرابع

فهرول طويس الى نعليــه وأسرع فى لبسهما ، ومشى وهو يتظاهر بالمجون فى مشيته حتى قطع البستان وانتهى الى باب الدار ، وفتح خوخة الباب وأطل برأسه فرأى جملين بجانبهما رجلان أحدهما طويل وقد تلثم بالكوفيــة والتف بالعبــاءة ، والآخر قصير غير ملثم يشبه أن يكون خادما . فقــال لهما : « من أنتما ؟ .. وماذا تريدان ؟ .. »

فأجابه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل ، قائلا : « أليس هذا بيت عزة الميلاء ؟ »

قال طويس : « بلى ، وماذا تريد منها ؟ »

قال الطويل : « أريد الدخول اليها .. »

قال طويس : « ومن أنت ؟.. ألا انتسبت ؟ »

قال الطويل : « لا ... لا أنتسب »

قال طويس : « أتريد الدخول وأنت ملثم كما أرى ؟ »

قال الطويل : « نعم .. »

قال طويس : « دعنى أستأذن لك » وعاد طويس الى عزة وأخبرها بما رآه . فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام ، وقالت لعزة : « دعينى أنصرف الى أبى ، فقــد طال بقائى عنــدك اليوم .. ولا سيما وانى أرى رجالا قادمين اليك .. ولا يليق بى البقاء معهم على هذه الحال .. »

قالت عزة : « لك الخيار فانصرفى يا بنيــة ، ولا تطيــلى الغيــاب علىّ .. اذهبى من الطريق القريب الذى تعرفينــه ،

واخرجى من الباب الخلفى » فودعتها وانصرفت ..

فلما انصرفت ، جعل طويس يشيعها ببصره حتى توارت عنه ، ثم التفت الى عزة وأشار بضم أنامله وزم شفتيه الى أنها جميلة .. فأومأت اليه أن يصمت ، ثم قالت عزة : « اخرج الى الطارق ، واطلب اليه أن يريك وجهه ، أو يذكر لك اسمه ..»

فذهب طويس ، وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة : « ان صاحبنا من أهل البادية ويهوى الغناء ، وقد جاء لسماع عزة الميلاء .. وقد سألته عن اسمه فأبى أن يخبرنى ، ولما ألححت عليه قال انه لايقول اسمه ، ولكنه يقول لك انه قائل هذين البيتين :

« وذى حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل »

— ٦ —

ليلى الأخيلية

فلما سمعت عزة قول طويس بغتت وتبسمت ، ولولا ثقل بدنها لوثبت الى الباب لاستقبال ذلك الضيف . فقال لها طويس : « وما بغتك يا عزة ؟ .. »

قالت عزة : « ألا تعرف قائل هذا الشعر ؟ .. »

قال طويس : « كلا ... ومن هو ؟ »

قالت عزة : « لو انى سمعت لفظ قائله لعرفته ولو كان فى غير هذا الشعر .. ألم تنتبه انه يلفظ حرف المضارعة مكسورا مثل أهل بهرا (١) ؟ »

قال طويس : « أظننى لحظت ذلك فيه .. واذا كان يكسره ؟ »

قالت عزة : « ويلك هذه ليلى الأخيلية الشاعرة ، وهذا الشعر شعرها .. وهى تكسر حرف المضارعة فى لفظها أيضا »

فقال طويس : « اذا كانت هذه هى ليلى ، فقد تم حظنا لأنى أسمع بشعرها وحديثها مع توبة الذى كان يهواها..فهل أدعوها ؟»

قالت عزة : « وكيف لا ؟.. وهى صديقتى ويندر أن تنزل المدن الا لحاجة ماسة لأنها من أهل البادية » ..

فأسرع طويس وهو يهرول فى مشيته حتى وصل الى الباب ففتحه ، ورحب بليلى وجعل ينظر الى قامتها ويلاحظ مشيتها وهى ملتفة بالعباءة وطولها يندر بين النساء . ولكنه لم يتمكن من رؤية وجهها لأنها كانت لا تزال ملثمة ، فدخلت البستان وأشارت الى خادمها ان يدخل الجملين الى العريش .. ومشت وهى تخطر فى مشيتها وطويس يمشى وراءها ويتأمل قامتها وحسن مشيتها واللثام محيط برأسها ووجهها جميعا

فلما أقبلت على القاعة ، نهضت عزة وتقدمت لاستقبالها عند الباب وهى تقول : « مرحبا بليلى .. أهلا بك ياحبيبة .. لقد

(١) الدميرى ــ الجزء الثانى

بالغت فى الاختفاء حتى أسأنا معاملتك وأخرناك » قالت ذلك وتناولت وسادة عن البساط وثنتها وأجلستها عليها

قالت ليلى ، وصـوتها جهورى لايكاد يشـبه أصـوات النساء : « لابأس عليك ، وان لم يكن ذلك ذنبى لأنى كنت أحسبك تعرفيننى من صوتى ولهجة كلامى »

وكان طويس واقفا بالباب يتشوق لرؤية وجه ليلى ، ولكنها ظلت ملثمة لا تلتفت الى طويس كأنها تتوقع خروجه ليخلو لها المكان . فأدركت عزة ما فى نفسها ، فقالت : « لا تحتجبى يا ليلى من هذا الرجل ، فانه من المخنثين .. وأزيدك تعريفا به ، انه طويس المغنى »

فضحكت ليلى ونظرت الى طويس ، وأزاحت اللثام وهى تقول : « أهذا هو طويس المشهور بالشؤم ؟.. لقد تم سرورنا بلقياه .. »

فلما أزاحت النقاب ، ظهر وجه يتدفق هيبة ، وعينان دعجاوان، وثغر باسم ، (١) وآثار الصحة تبدو على الوجه من سكنى البادية. فانبهر طويس من رؤيتها ، ولما رأى استئناسها به فرح، وقال وهو يمشى نحو البساط الذى كانت تجلس عليه : « ان سرورى تم بلقياك أيتها الشاعرة البارعة .. وقد كنت أعجب لما أسمعه من شغف توبة بك ، وما ينشده من الأشعار بذكرك وأنت زوجة سواه.. فلما رأيت هذا الوجه ، علمت السر الذى دعاه الى ذلك»

---

(١) الأغانى ــ الجزء العاشر

فلما سمعت ليلى اسم توبة كسا وجهها الاحمرار ، وكأنها خجلت ، وطأطأت رأسها حياء ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « وهل سمعت شيئا من قوله ؟ »

قال طويس : «سمعت كثيرا ، ولكنني أذكر هذه الأبيات فقط :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة اوزقى
اليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا أناله
ألا كل ما قرت به العين صالح »

ولم يتم كلامه حتى امتقع وجهها وعلاه الاصفرار .. وأدركت عزة ذلك فيها فأحبت مداعبتها ، ولكنها قبل الشروع فى المداعبة دعتها الى الطعام والاغتسال، فقالت : انها لا تحتاج الى شيء وانها انما جاءت لزيارتها ساعة لتسمع حديثها وتطرب بغنائها ثم تنصرف

فقالت عزة : « لعلك قادمة من الشام ؟ »

قالت ليلى : «نعم ، وقد وصلت الى المدينة الساعة.. وكان معى رفيق تركته فى مكان ، وجئت اليك على أن أعود اليه عاجلا »

ففطنت عزة للأشباح التى رأتها سمية على شاطىء تلك البحيرة ، فقالت : « أظننى رأيت أشباحكم عند الغروب بين النخيل ؟..»

قالت ليلى : « كنا ثلاثة ، وصلنا عند الغروب الى ضاحية المدينة على جمالنا »

- ٧ -

ليلى وتوبة

فتأكدت عزة انها هى بعينها فعادت الى العبث بها ، فقالت : « أتحبين توبة ؟ »

فقالت ليلى : « لم أفهم معنى سؤالك .. ؟ »

قالت عزة : « سؤالى بسيط .. أعرف انك تحبين توبة ، وأسمع انه شاب جميل المحيا شجاع النفس وانه يحبك .. فكيف تزوج سواك ، وتزوجت انت سواه ؟ »

فقالت ليلى وقد تغيرت سحنتها وزاد وجهها احمرارا : « دعينا يا عزة من هذا الحديث ، واسمعينا صوتا يروح عن النفس وينسينا تعب الطريق » ..

فلم تشأ عزة ان تلح عليها وعمدت الى الحيلة ، فقالت : « صدقت ، ان تلك الذكرى تؤلمك .. هات الدف يا طويس »

فناولها طويس دفا فنقرت عزة عليه وغنت :

« وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت
فقد رابنى منها الغداة سفورها
على دماء البدن ان كان بعلها
يرى لى ذنبا غير انى أزورها »

ولم تتم هذين البيتين حتى تململت ليلى وامتقع لونها ،

وقالت : « ما هذا الغناء يا عزة ، انى لا أزال أراك تسألينني عن سبب تركي توبة .. ؟ »

فضحكت عزة وتجاهلت وهي تقول : « وما علاقة هـذا الشعر بك ؟ .. أظن ان توبة هو الذي قاله فيك ؟ »

قالت ليلى : « أراك تتجاهلين ، وأحسبك ما زلت تريدين سماع حديثي مع توبة.. فها أنا أقصه عليك وان كان ذكره يؤلمني: اعلمي يا أخية ان عاداتنا نحن معاشر البدو غير عادات الحضر أهل المدن أمثالكم ، فان الرجل منكم اذا أحب فتاة تزوجها .. وأحسن ما يكون الزواج على حب . وأما نحن فاذا عرف أهل الفتاة ان شابا يحبها وتحبه منعوه منها ، وهذا ما وقع لي مع توبة فانه كان يحبني ويقول فيَّ الشعر ، فخطبني الى أبي فرفض أن يزوجني به ، وزوجني برجل من بني الأدلع هو زوجي الى الآن. ولم يكتفوا بذلك ، ولكنهم هدروا دم توبة وتربصوا به في الموضع الذي كان يلقاني فيه حتى اذا جاءني هموا بقتله . وكنت اذا جاءني قبل ذلك أتبرقع وأحتجب منه على عادتنا . ففكرت في طريقة أحذره بها من غدرهم بحيث لا يشعرون ، فلم أر خيرا من أن أغير عادتي معه.. فلما جاءني في ذلك اليوم خرجت اليه سافرة ، وجلست في طريقه. فلما رآني على تلك الحال فطن لما أردت وعلم المكيدة ، فركض فرسه فنجا ، ونظم في ذلك قصيدته التي مطلعها :

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريرها

ومنها البيتان اللذان غنيتهما ، وهي طويلة »

وكانت عزة قد سمعت هذه القصة من قبل ، ولكنها أرادت أن تسمعها لطويس . فلما فرغت ليلى من حديثها ، قالت عزة : « انى لم أكن أجهل حديثك هذا ولا غيره ، ولولا ذلك ما عرفتك من البيتين اللذين بعثت بهما الىّ دليلا عليك .. فبالله الا ذكرت لى سبب قولك ذينك البيتين ، فانهما يدلان على انفة وعفة تندران فى المدن »

قالت ليلى : « صدقت .. فاعلمى يا عزة ان العفة والحب الطاهر انما يكونان فى أهل البادية ، وبنو عذرة أهل وادى القرى على مقربة من هذه المدينة مشهورون بهما . ولكن ذلك غير مقصور عليهم ، وان كان غالبا فيهم . قلت لك ان توبة كان يحبنى وأحبه ، ولم أسمع منه ما يدعو الى ريبة .. ولكنى اجتمعت به مرة بعد أن تزوجت وتزوج ، فقال لى كلمة ظننت انه قد خضع فيها لبعض الأمر فقلت له :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل

ولم أعد أسمع منه ريبة قط .. »

فضحك طويس وقهقه حتى كاد يستلقى ، ثم قال : « ما أشبه هذه العفة بعفة مخنثى المدينة ، والله ان البداوة حلوة ولكنى لا أحبها .. »

فقالت له ليلى : « اذا شاقك ذلك فعليك بوادى القرى ، انه قريب منكم وفيه بنو عذرة الذين تضرب بعفتهم الأمثال ، وفيهم جميل بثينة وكثير عزة وغيرهما »

فضحكت عزة واكتفت بالرجوع الى الغناء جوابا على ذلك .. فعادت الى الدف ، فطربت ليلى وطرب طويس . ثم استبدلت الدف بالعود فعزفت عليه ألحانا شجية ، وكان العود حديث العهد عند العرب يومئذ لأنهم أخذوه عن الفرس بعد الاسلام

وكانت ليلى فى أثناء الغناء تطرق وتستغرق فى التأمل كأنها تفكر فى أمر ذى بال ، فلما فرغت عزة من غنائها قالت ليلى : « لقد أطربتنا يا عزة بغنائك ، وعندى أمر أحب أن أبوح به اليك .. فهل تسمحين لى بخلوة ؟ »

— ٨ —

رملة بنت الزبير

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعا ، وأغلق الباب وراءه . فلما خلتا ، اقتربت ليلى حتى دنت من عزة وجلست بجانبها ، وقالت لها بصوت يقرب ان يكون همسا : « هل تعرفين رملة بنت الزبير ؟ » ..

قالت عزة : « كيف لا أعرفها وهى أخت عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرمين ، وهو محاصر فى الكعبة الآن .. »

قالت ليلى : « هل هو محاصر ؟ .. ومن حاصره ؟ »

قالت عزة : « ألا فاعلمى ، انه أقام فى الحرمين يدعو الناس الى نفسه منذ توفى معاوية وتولى الخلافة ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ . ولم يقو أمره الا بعد مقتل الحسين وموت يزيد ، وهو الآن ينكر الخلافة على عبد الملك بن مروان خليفة بنى أمية بدمشق »

قالت ليلى : « انى أعلم ذلك وأعلم أيضا ان أهل الحجاز بايعوه وان الأمويين ينوون قتاله ورده الى بيعتهم »

قالت عزة : « ألم تسمعى بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفى من الحجاز بأمر عبد الملك لقتال عبد الله فى مكة ؟ »

قالت ليلى : « أظننى سمعت شيئا من ذلك قبل خروجى من الشام » ..

قالت عزة : « وقد جاء الحجاج وانت تسمعين بشدة بطشه واستبداده ، وحاصر عبد الله بن الزبير فى مكة وضيق عليه .. وقد خرجت المدينة من سلطانه ، وعاملنا الآن من قبل عبد الملك ابن مروان » ..

فأطرقت ليلى وصمتت ، وكأن خاطرا طرأ عليها فأرجعها عما كانت تهم بقوله ، فأدركت عزة ذلك ، فقالت لها : « مالى أراك صامتة .. ؟ قولى ما فى نفسك .. »

قالت ليلى : « جئت المدينة فى مهمة تتعلق برملة بنت الزبير ، ولكن حال أخيها يحول دون الغرض من السؤال عنها .. هل هى معه فى مكة .. ؟ »

قالت عزة : « نعم هى معه هناك ، وأظنهم فى أشد الضيق من الحصار ، وقد قلّ زادهم ، ولا ندرى ما يؤول اليه أمرهم»

فتأففت ليلى وتذمرت ، ثم جعلت تحك وراء أذنها وتنظر الى البساط بين يديها كأنها تتفرس فى نقوشه وهى لا تتكلم ..

فقالت عزة : « قولى يا أخية ما فى نفسك ، فقد أقلقت خاطرى بسكوتك .. ما الذى تريدينه من رملة وأخيها ؟ .. »

قالت ليلى : « لا أخفى عنك ان أميرا من أكبر أمراء بنى أمية انتدبنى للبحث عن رملة واستطلاع أحوالها لأنه يريد خطبتها ، فلم أجد من يصف لى جمالها سواك لأنك عاشرتها وعرفتها .. فماذا تقولين ؟ .. »

قالت عزة : « وقعت على خبيرة .. ان رملة من أحسن النساء خلقا وعقلا ودراية . ولكننى أعجب لاقدام أمير من بنى أمية على خطبتها ، والحرب قائمة بين الأمويين وبين أخيها كما تعلمين ..»

فأمسكت ليلى عن الكلام قليلا ، ثم قالت : « أخشى أن أصرح بالأسماء فأكون قد بحت بسر اؤتمنت عليه »

قالت عزة : « لا تخافى من ذلك ، فانى مستودع أسرار أهل المدينة .. وانى أعاهدك على كتمان ما تقولينه .. »

قالت ليلى : « ان الأمير الذى يبغى خطبتها أحسن أمراء بنى أمية علما وشعرا وفصاحة وعارضة ، وله ولع خاص بعلم الكيمياء ، وهو ابن خليفة وحفيد خليفة .. » (١)

---

(١) الأغانى ـ الجزء السادس عشر

فقطعت عزة كلامها قائلة : « قد عرفته .. انه خالد بن يزيد .. أليس هو .. ؟ »

قالت ليلى : « هو بعينه ، فما قولك ؟ .. »

فأطرقت عزة هنيهة ، ثم قالت : « قد أدركت سرَّ الأمر ؛ وعلمت السبب الذى سوغ لخالد خطبة رملة وهى من أعداء بنى أمية وان كان هو أمويا .. »

قالت ليلى : « أما وقد فهمتِ سرَّ الأمر ، فاكتميه .. وهذه هدية من خالد بعث بها اليك » قالت ذلك ومدت يدها الى كمها ، وأخرجت عقدا من اللؤلؤ دفعته اليها . فتناولته عزة وأثنت على فضلها ، وقالت : « هل عزمت على خطبة رملة لخالد ؟ .. ومن يخطبها له ؟ .. »

قالت ليلى : « ليس لى أن أصرح لك بأكثر من ذلك .. ولكننى أطلب اليك كتمان ما ذكرته حتى يأتى موعده فيظهر »

فقالت عزة : « للسر عندى بئر عميقة .. طيبى نفسا وقرى عينا » ..

ثم تحفزت ليلى للقيام ، فأمسكتها عزة ودعتها للبقاء عندها.. فاعتذرت بأن شخصا ينتظرها فى مكان ، ولا بد لها من موافاته لأمر لا يحسن تأجيله .. فأطاعتها ، فخرجت فلقيت طويس فى البستان فودعته وانطلقت

وكانت ليلى الاخيلية شاعرة بارعة كما تقدم ، وكانت تفد على الملوك والأمراء تمدحهم وتنال منهم الرعاية والجائزة . وكانت

قد وفدت على عبد الملك بن مروان فى ذلك العام فامتدحته ، ثم سارت الى خالد فعهد اليها فى البحث عن رملة ومعرفة أوصافها من عزة . وبعث معها شابا من خاصته اسمه حسن ، كان فى جملة من جاء مع عبد الملك بن مروان عند عودته من العراق الى الشام بعد مقتل مصعب بن الزبير وخروج العراق من سلطة عبدالله بن الزبير

وكان حسن فى جملة رجال مصعب القائلين بقوله الداعين الى دعوة أخيه فى العراق ، وحارب معه فى قتاله المختار بن عبيد الثقفى فأبلى بلاء حسنـــا حتى قتـــل المختـــار وخلص العراق لمصعب . فلما جاء عبد الملك لحرب مصعب ، دافع حسن عنه جهده حتى قتل أبوه ، ووقع هو فى أسر عبد الملك ورافقه الى الشام . فلقى هناك خالدا ، فأحبه خالد وجعله من بطانته ، وكان يثق به ويبوح له بما فى نفسه على عبد الملك بن مروان لأنه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها ، لأنه ابن الخليفة يزيد بن معاوية ، وبين والدته ووالدة عبد الملك حكاية سيأتى ذكرها ..

وكان خالد قد سمع برملة بنت الزبير وأحب خطبتها .. فلما جاءته ليلى سألها عنها فقالت انها لم ترها ، فكلفها بأن تستفهم عنها عزة الميلاء فى المدينة ، وكتب الى أخيها عبد الله بن الزبير يخطبها منه .. وسلم الكتاب الى حسن وأرسله مع ليلى وأوصاه اذا أمرته ليلى بالذهاب الى مكة أن يذهب ويدفع الكتاب الى عبد الله بن الزبير ، ويبذل جهده فى اقناعه . وكان حسن يحب خالدا حبا شديدا ، فعزم على أن يبذل ما فى وسعه لتحقيق رغبته.

وكان لحسن فى المدينة وطر يحن قلبه الى قضائه ، فكان هذا دافعا آخر للمسير.. فأسرع مع ليلى حتى وصلا الى المدينة فى مساء ذلك اليوم كما قدمنا ، فعرج هو الى منزل يمكث فيه ريثما تعود ..

أما ليلى ، فلما عادت من منزل عزة أمرت الخادم أن يذهب بالجمال الى منزل سكينة بنت الحسين على ان توافيه الى هناك ، وسارت لمقابلة حسن .. فلقيته فى انتظارها على أحر من الجمر، فأخبرته بما دار بينها وبين عزة ، وأوعزت اليه أن يسافر الى مكة فى المهمة التى جاء من أجلها ، ودعت له بالتوفيق

— ٩ —

حسن

فلما خلا حسن الى نفسه ، عاد لما يتقد فى قلبه من الوجد . وكان يحب فتاة عرفها منذ أعوام ، وأنقذها من الموت هى ووالدها فى العراق فى أثناء محاربتهم المختار بن عبيد ، وقد عاهدها على الحب وهو يعلم انها تقيم فى المدينة ، ولكنه لا يعرف منزلها .. ففكر فى أمرها طويلا ، فلم ير خيرا من أن يستطلع عزة فانها أخبر نساء المدينة بنسائها . فسار توا الى عزة وكانت لا تزال جالسة وقد خرج طويس من عندها ؛ فاستغربت حضوره اليها فى أواخر الليل ..

وكان حسن طويل القامة حسن الخلقة ، وفى وجهه دلائل المروءة وصدق المودة ، وعيناه تتقدان ذكاء وحدة . فلما أقبل على عزة استقبلته باشة ، ولم تستهجن حضوره لما تعودته من كثرة وفود الناس عليها من سائر البلاد ..

فاعتذر حسن عن جسارته ، ثم قال : « انى قادم اليك فى أمر أقلقنى وحرمنى النوم ، وليس لى من يفرج كربى سواك »

قالت عزة : « قل ما بدا لك .. »

قال حسن : « انى أحب فتاة من أهل المدينة ، ولكننى لا أعرف منزلها ولا أدرى هل هى مقيمة هنا أم سافرت الى بلد آخر ؟ »

قالت عزة : « وما اسمها ؟ .. »

قال حسن : « اسمها سمية بنت عرفجة الثقفى »

فبهتت عزة عند سماعها ذلك الاسم ، وجعلت تتفرس فى وجهه كأنها تستطلع حقيقته ، وقالت : « من أين عرفتها ، وكيف أحببتها وانت بعيد عن المدينة ؟ .. »

قال حسن : « قولى لى أولا .. هل هى فى المدينة ؟.. وهل تعرفينها جيدا ؟ .. »

قالت عزة : « أعرفها كما أعرف نفسى وهى مقيمة هنا ، وكانت عندى فى هذا المساء .. فقل لى من أين تعرفها ؟ .. »

قال حسن : « انى من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معه الى العراق لمحاربة المختار بن عبيد الثقفى . وبعد قتل الحسين كان المختار هذا قد قام يدعو الناس الى الأخذ بثأره ،

وتظاهر بمبايعة عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرم الآن . فقتل المختار قتلة الحسين جميعهم بمساعدة التوابين ، وهم أهل الكوفة الذين خانوا الحسين وأمسكوا عن نصرته .. فلما قُتل ندموا وقاموا يطالبون بدمه .. »

قالت عزة : « نعم أذكر ذلك ، ولكن المختار هذا كان يدعو الناس الى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، وليس لعبد الله بن الزبير »

قال حسن : « نعم أعنى ذلك .. ولكنه لم يفلح لأن عبد الله الأمر ، فلما فاز فى حروبه طمع فى الأمر لنفسه وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية . ولا أشك ان محمدا لم يكلفه بشىء من ذلك لأنه زعم لمحمد أشياء لايرضى بها »

قالت عزة : « أظنك تعنى الكرسى الذى زعم انه كرسى على ، وصار يحمله معه فى حروبه ويزعم ان جبريل يظهر له ويكلمه» (١)

قال حسن : « نعم أعنى ذلك ، ولكنه لم يفلح لأن عبد الله ابن الزبير لما سمع بما فعله المختار ، بعث اليه مصعبا ومعه جند فحاربوه وقتلوه وسمروا يده فى مسجد الكوفة ، وكنت أنا فى جملة رجال مصعب .. ففى يوم المعركة بعد أن تم لنا النصر ، أمعنا فى رجال المختار قتلا ونهبا ، ثم لقيت عرفجة والد سمية طريحا على الأرض بين يدى بعض رجالنا وقد هموا بقتله ، ثم رأيت سمية ابنته (قال ذلك وتنهد) قد خرجت من الخباء

---

(١) ابن الأثير ـ الجزء الرابع

وشعرها محلول على كتفيها فوقع بصرها على بصرى ، فلما رأيتها اهتز قلبى لها هزات عجيبة ، وسمعتها تستنجدنى لانقاذ والدها من القتل . فصحت فى الرجال فأبعدتهم عنه ، وخلصته وأوصلته الى مأمنه ، فقبّل يدى وشكرنى وقال انه لايقدر على مكافأتى . فقلت لا ألتمس مكافأة منك الا أن تزوجنى ابنتك هذه ، فقال : « هى جارية بين يديك » . فتواعدنا على أن آتى المدينة وأتزوجها .. وأتممت أمر نجاته فأخرجتهما من الكوفة ، وبعثت معهما من يرافقهما الى هنا وبقيت أنا هناك وشغلت بأمور كثيرة لا محل لذكرها .. فلم أستطع المجىء الا اليوم » ..

— ١٠ —

كشف السر

وكان حسن يتكلم وعزة تتشوق لسماع بقية الحديث .. فلما وصل الى هذا الحد ، قطعت كلامه قائلة : « ألعلك حسن ..؟ »

قال حسن : « نعم .. وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت عزّة : «عرفته منها .. أبشّرك وأهنئك بهذه الفتاة ، فانها زينة فتيات المدينة وليس أحد يعرف مكنونات قلبها غيرى . ولطالما ذكرت اسمك لى سرا وأطلعتنى على خصالك وأثنت على أفضالك . وكن واثقا أنها لا تزال على ودك ، ولو جئتنا فى هذا المساء لوجدتها هنا »

قال حسن : « وهل من سبيل لرؤيتها ؛ ولك علىّ كل ما يرضيك ؟ .. »

فأطرقت عزة هنيهة ، ثم قالت : « لم يكن علىّ أهون من مرضاتك لولا ان والدها ضنين بها ، لا يأذن بخروجها من البيت لأى سبب من الأسباب ، واذا هى جاءتنى فانما تجىء خلسة ، وربما أذن والدها بمجيئها التّى أحيانا . أما اذا عرف انها جاءت لمثل ما تريده أنت فانه يغضب .. وربما أساء اليها وآذاها ، وقد يؤذينى والرجل ذو نفوذ لدى أمير هذه المدينة ، فاذا لم يؤذينى رأسا وشى بى واتهمنى تهما يكدر بها عيشى »

فلبث حسن مدة يفكر فى أمره ، وقد أيقن بالعقبات التى تحول دون مجىء سمية ، ولكنه لشدة شوقه استسهل كل عسير .. على انه لم يعد يرى سبيلا للالحاح على عزة باستقدامها ، فصبّر نفسه الى صباح الغد حتى يذهب لزيارة والدها ، وهو يعهد فيه الميل له والرضى به ، فلما عول على ذلك نهض فودع عزة واستدل منها على بيت عرفجة ، فدلّته ودعت له بالسلامة واعتذرت عن رفضها التماسه ، فعذرها وخرج الى بيته

وبات حسن تلك الليلة على مثل الجمر ، وأفاق قبل الفجر ، ثم أخذ يتأهب للذهاب الى بيت عرفجة وقد اشتد هيامه وخفق قلبه . وجعل يفكر فى لقائها وشقّ عليه انه لا يستطيع مخاطبتها بين يدى والدها ، ولا يقدر على بث شكواه لها . وأشهى ما يلتذ به



« قال حسن : لاتيت عرفجة أبا سمية طريحا على الارض بين يدى بعض رجالنا وقد هموا بقتله . . فصحت فى الرجال فأبعدتهم عنه ، وخلصته وأوصلته الى مأمنه »

المحبون التشاكى بعد الفراق .. فعلل نفسه بما قد يأتى به القدر من سوانح الفرص ، وخرج والشمس قد أطلت من وراء المنازل والناس يذهبون ويجيئون فى الطرق ، وهو لا يلتفت الى أحد لما اضطرب فى خاطره من أمر ذلك اللقاء بعد الغياب الطويل حتى ان صورة سمية كادت تذهب من ذهنه لطول البعاد وتستقر فى مكانها صورة أخرى غير صورتها وان كانت تشبهها . وأما عرفجة ، فلم يكن يذكر الا صورته ساعة اضطرابه يوم أنقذه من القتل فى الكوفة

— ١١ —

عرفجة

وظل حسن ماشيا وهو غارق فى بحار الهواجس حتى أشرف على بيت عرفجة ، وهو بالقرب من بيت سكينة بنت الحسين ، ولكنه أضيق منه وأقل قيمة . ووصل الى باب الدار فرآه مفتوحا ، فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم ، فأطل على باحة تحيط بها ثلاث غرف .. وفى أحد جوانب الباحة نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء أحمر زاه وليس على رأسها نقاب ، وقد جلست أمام النخلة وأسندت ظهرها اليها ووجهها الى جانب الدار بحيث لا يقع بصرها على الداخل من الباب . ولم ير حسن منها الا صفحة وجهها وجانبا منعينها وفمها . وحين وقع بصره عليها ،

علم انها سمية مع انه رأى أنها تغيرت عما رسم فى ذهنه من صورتها ، ولكن قلبه دله على صاحبته فندم على دخوله بغتة ، وضايقه أن ينظر اليها أو يدخل بغير استئذان . ولكن الشوق أعمى بصيرته ، فوقف مبهوتا وقلبه يخفق .. وأصبح بين عاملين متضادين ، الشوق يدفعه الى أن يشبع نفسه من رؤيتها ، والحياء يدعوه الى الرجوع وقرع الباب

ثم غلب عليه الحياء وخاف أن يقع نظرها عليه فتخجل ، وربما أصابها سوء من أثر الفجأة فيندم .. فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقة من الحديد كانت معلقة فى خوخته ، ولبث ينتظر من يدعوه للدخول أو من يأتى لاستقباله . فسمع — وهو فى الانتظار — حركة مشى فى الباحة ، فأدرك أن سمية تمشى الى احدى الغرف لتتوارى عن الطارق . وظل هو واقفا مدة فلم يأته أحد ، فأعاد القرع مثنى وثلاث . وبعد هنيهة سمع وقع أقدام رجل . ثم جاءه رجل فى نحو الخمسين من عمره ، قصير القامة ، نحيف الجسم يكاد جلده يلتصق بعظمه لخفة عضله ، أشمط شعر اللحية خفيفه ، وعلى رأسه عمامة صغيرة .. وعلى كتفيه مطرف التف به ، وكأن خديه حفرتان ، ووجنتيه اكمتان ، وأنفه كتلة بارزة فى منتصف وجهه ، وله عينان غائرتان . ولو أجاد حسن الفراسة لبدا له من اختلاج أجفانه وعدم تثبيت نظره فيه انه من أهل الرياء والخبث ..

فلما وقع نظر حسن على الرجل ، عرف انه عرفجة والد

خطيبته ، فهش له وهو يتوقع أن يعرفه ويرحب به . وأما عرفجة
فلبث برهة ينظر الى وجه حسن وهو يتجاهله . فلما رأى حسن
منه ذلك حمله منه محمل النسيان ، فضحك وتقدم وألقى التحية..
فرد عجرفة التحية ولم يتغير وجهه بما يدل على بغتة أو استغراب .
ولكنه سعل سعلة رجل ينبه أهل بيته الى قادم غريب ، فقال
حسن : « أظنك لم تعرفنى يا عماه .. »

فلما سمع عرفجة كلامه ابتسم ، بغير أن تبدو فى سحنته ملامح
الابتسام ، وألقى بنفسه عليه وجعل يقبّله ويرحب به ويقول :
« أهلا بك يا بنى يا حسن ، من أين أتيت ؟ » وأمسكه بيده
ودخل به الى الدار ، وسار توا الى غرفة الزائرين .. فاستأنس
حسن بذلك الترحاب بعد أن كان يتميز غيظا مخافة أن يعود من
سفرته بخفى حنين . وابتدره عرفجة بالسؤال عن حاله وعن سبب
غيابه ، وسأله عما اذا كان فى حاجة الى طعام . فاعتذر حسن عن
الطعام ؛ ولكنه أخبره عن قدومه الى المدينة للقياه .. فجعل عرفجة
يتملقه بالكلام اللطيف ليستطلع ما فى قلبه ، فاطمأن حسن وفتح
له قلبه وأطلعه على شدة شوقه لسمية . وكان يخاطبه ويراقب
ما يبدو عليه من استحسان أو استهجان ، فلم يجد فيه الا انعطافا
وترحابا . ومما قاله عرفجة ان سمية بخير ، وانها ما زالت تذكر
فضله عليهما .. فازداد حسن استئناسا ، وتوقع أن يدعو سمية
لتراه فلم يدعها ؛ فظنه أجّل ذلك الى ما بعد الاستراحة .
واستغرقا فى الحديث فى شئون مختلفة حتى تطرقا الى سبب

قدومه الى المدينة ، فأخبره حسن انه انما جاء بمهمة من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير . ثم قال : « ألم يئن لى أن أحقق أمنيتى التى وعدت نفسى بها منذ أعوام ؟ »

قال عرفجة : « وما هى يا بنى ؟ »

قال حسن : « هى سمية خطيبتى .. »

قال عرفجة : « هى جاريتك وطوع ارادتك ، ولكنك تقول انك ذاهب الى مكة فمتى عدت من مهمتك كانت هى لك . وأما الآن فانها ليست هنا ، وقد ذهبت ومتى عادت أخبرتها بقدومك .. ولا أشك أنها تسر بلقياك ، فاذهب الآن فى مهمتك ومتى عدت فسيعقد العقد وتكون هى لك »

— ١٢ —

القباء الصوف

فعجب حسن لانكار عرفجة وجود سمية فى المنزل ، ولكنه التمس له عذرا وشكر الله انه رآها ولو خلسة . على انه كان وهو يخاطب عرفجة يتوقع أن يسمع خطوات سمية أو يلمح طرف ثوبها وهى مارة أو يسمع كلامها ، فلم يكن يرى الا بعض الجوارى يخطرن بالدار لقضاء بعض حاجات المنزل

وسكت كلاهما لحظة ، وكل يفكر فى شأنه ، وشتان بين الفكرين . ثم عاد عرفجة الى الكلام ، فقال : « ومتى عزمت على

المسير الى مكة يا بنى ؟ »

قال حسن : « انى منطلق اليها فى القريب العاجل ، وربما خرجت الليلة » ..

قال عرفجة : « وهـذا هو الذى أراد ، فان سرعة ذهابك يقرب زمن زواجك ، فنفرح بك ونتشرف بمصاهرتك »

فسرّ حسن بما سمعه .. ولم يفطن لما كان يبدو فى عينى عرفجة وفى حركاته من دلائل الخبث والغدر .. ولا يعد ذلك سذاجة من حسن ، وانما هى سلامة القلب وصدق النية وكبر النفس لاترى الانسان غير الطيب . وزد على ذلك فان حسنا لم يأت بين يدى عرفجة الا ما يستوجب الجزاء الحسن ، ولم يطلب منه الا ما هو حق له . فلم يخطر فى باله أن عرفجة يتردد فى اجابة طلبـه ، فاقتنع بسرعة المسير فقال : « أرى أن أخرج من المدينة الليلة »

قال عرفجة : « وهل تعرف الطريق ؟.. ومن أى باب تخرج ؟ »

قال حسن : « نعم يامولاى ، انى خارج من الباب المطل على قـُباء » ..

قال عرفجة : « اجعل خروجك لدى الغروب ومن البـاب المؤدى الى مكة ، فانه أسهل مسلكا .. ولكننى أخاف عليك من برد الليل ، فهل اتخذت الحيطة لذلك ؟ »

قال حسن : « عندى عباءة ألتف بها اذا برد الجو » .

قال عرفجة وهو يبتسم وكأنه اهتدى الى سبيل لتنفيذ مقصده : « لا أرى أن تخرج من المدينة وأنت ملتف بعباءة ، ومن كان

مثلك من ذوى الوجاهة لا يليق أن يمر فى الأسواق ملتفا بعباءة .. فاسمح لى أن أقدم لك قباء يليق بمقامك » قال ذلك وصفق ، فجاءه غلام فقال : « أحضر القباء الأخضر المعلق فى الحجرة » ..

فعاد الغلام وعلى يديه قباءٍ من صوف ، فتناوله عرفجة ودفعه اليه ، وقال له : « اليك هذا القباء فالبسه وأنت خارج على ناقتك فى هذا المساء ، فانه يقيك شر البرد »

فتناول حسن القباء وأثنى على فضله وهو لايرى حاجة اليه ؛ ولكنه لم ير من اللياقة أن يرده .. فأخذه وقد ازداد ثقة فيه وفى حسن قصده . ولحظ فى حركاته ميلا الى الانصراف ، فنهض فقبَّل يده وودعه وخرج وقلبه لايزال فى تلك الدار ، وقد شق عليه أن يخرج منها وهو لم يخاطب حبيبته . ولكنه علل نفسه بساعة اللقاء بعد رجوعه من مكة ، وسار توا الى السوق ليبتاع بعض النبال استعدادا للدفاع فى أثناء الطريق ، ولكنه لم يكن يعرف أين يبيعون النبال .. فرأى غلاما رث الثياب على رأسه قفة يلتقط نوى التمر (١) ويضعه فيها . وهى أحقر مهن أهل المدينة ، فان أفقر الناس عندهم يشتغل بالتقاط النوى للوقود أو نحوه . فناداه حسن : « يا غلام » فقال : « لبيك يامولاى » . فقال : حسن : « ألا تعرف رجلا يبرى النبال فى هذا الجوار ؟ »

قال الغلام : « أعرف كثيرين .. هل تريد النبال المريشة أو

---

(١) الأغانى

التى بلا ريش ؟ »

قال حسن : « انى أفضّل المريش منها »

قال الغلام : « تعال معى فأدلك على أحسن من يبريها فى هذه المدينة » ..

- ١٣ -

سليمان

فسار حسن فى أثره حتى انتهى الى الطرف الآخر من المدينة ، فأقبل به الى حانوت أمامه دكة ، وفى صدر الحانوت رجل من أهل يثرب بين يديه القسى والنبال وفيها المبرى .. بعضها من الخشب ، والبعض الآخر من القنا ونحوه . فدفع الى الغلام درهما وصرفه ، وتقدم الى الحانوت والقباء على ذراعه .. فلما رآه الرجل عرف من لباسه انه منأهل الشام ، فرحب به وأجلسه على الدكة . فجلس حسن ووضع القباء بجانبه ، وأخذ يقلب السهام فيها الريش المربع والمثلث وذو الجناح الأيمن أو الأيسر ، (١) وجعل ينتقى ما يريده منها ، ثم قال للرجل : « هل تبيع الجعاب ؟ » (٢)

قال : « كلا يامولاى .. وانما هى من صنع الجعّاب ، وجارى هذا جعّاب يصنع الكنانة والجعبة من الجلد أو من الخشب على

(١) ترتيب الدول

(٢) جعاب جمع جعبة

أشكال ، فاذا شئت بعثت اليه فيأتيك بأصنافها »

فقال حسن : « أنا أذهب اليه بعد الفراغ من انتقاء النبال » ثم انتقى ما احتاج اليه منها ودفع الثمن ، وسأل الرجل عن حانوت الجعَّاب ونهض وقد نسى القباء عند النبال ، وسار والنبَّال يسير أمامه حتى أوصله الى حانوت أوسع من حانوته فيه جلود وأخشاب وجعاب معلقة .. فرجع النبَّال وتقدم حسن حتى انتهى الى باب الحانوت . فرأى الجعَّاب يخاطب شابا يظهر من لباسه انه من أهل الوجاهة ، وهو يساومه على جعبة أراد ابتياعها .. فوقف حسن ينتظر فراغ الرجل من المساومة .. ولكنه حين وقع بصره على ذلك الشاب استأنس برؤيته وتذكر انه يعرفه . فجعل يتأمله ويتفهم كلامه وهو يستحث ذاكرته لعله يذكره ، والشاب مشتغل بالمساومة . ثم التفت الشاب الى حسن فوقع بصره عليه ، فبغت وتفرس فى سحنته ولم يطل النظر اليه حتى ابتسم وصاح فيه : « حسن ! » فقال حسن على الفور : « نعم ، وأنت .. سليمان ؟ » قال : « نعم .. » وتعانقا وسلما سلاما حارا وجلسا على مقعد من حجر بجانب الحانوت ، وقد نسيا الجعاب وصاحبها ، فقال سليمان : « من أين أنت قادم يا أخى ، ومتى قدمت ؟ »

قال حسن : « انى قادم من دمشق ، وقد وصلت الى المدينة مساء الأمس » ..

قال سليمان : « وهل تنوى الاقامة هنا ؟ »

قال حسن : « كلا .. انى عازم على السفر الليلة »
قال سليمان : « لا .. لا .. لا تسافر لأنى مشتاق الى رؤيتك ، وقد مضت علىّ بضع سنوات وأنا أفكر فيك .. وأتذكر أياما قضيناها فى الكوفة معا ، وكانت أياما سعيدة ولو انهـا كانت ممزوجة بالحرب والقتال »
قال حسن : « لا ريب انها كانت سعيدة عليكم لأنكم فزتم بالأمر الذى قمتم له ، وقتلتم قتلة الامام الحسين شر قتلة .. أظنك لا تنسى منظر عبيدالله بن زياد وهو مضرج بدمه فى ساحة الحرب » ..
قال سليمان : « لا أنسى منظره ولا أسـتطيع نسيانه ، فانى أتذكره كلما شممت رائحة المسك لأنه حين فرغنا من الوقعـة وقالوا قُتل ابن زياد ، سرت لمشاهدته .. فما أقبلت على الجثة حتى شممت رائحة المسك قوية (١) لأنه كان كثـير التضمخ بالمسك .. ولكننى لم أفرح بمقتل ابن زياد بمقدار فرحى بمقتل ذلك الأبرص الذى قطع رأس الحسين بيده ... »
قال حسن : « أظنك تعنى شـمر بن ذى الجوشن ، قبحه الله .. »
قال سليمان : « هو أعنى .. فقد رأيت هذا الخبيث فى معركة أخرى مقتولا وعليه بردة ، وقد عرفته من بياض برصه »
فقال حسن : « انها لذكرى حسنة .. ولكننا لا نسـتطيع

(١) ابن الأثير – الجزء الرابع

الخوض فى هذا الموضوع ونحن على قارعة الطريق »
قال سليمان : « دعنا نذهب معا الى مكان نقضى فيه بقية هذا اليوم ، فانى أحسبه من أسعد أيامى لأنه يذكرنى بأيام النصر ، وان كنا الآن فى ... » وقطع كلامه لئلا يسمعه أحد
ثم نهضا فابتاع حسن جعبة وضع النبال فيها ، وسار وقد شغل بصديقه عن تذكر القباء ، وهو لم يتعود حمله

— ١٤ —

المرافقة

وكان سليمان هذا صديقا لحسن ، عرفه منذ أيام الصبا . وأقام سليمان مع أبيه فى الكوفة فى جملة دعاة الحسين . فلما قدم الحسين الى الكوفة فى أهله ، كان هو وأبوه من جملة الذين تخلفوا عن نصرته . فلما قتل الحسين فى سهل كربلاء وقتل أهله معه ، أصبح سليمان وأبوه من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن نصرة الحسين ، وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه . ولما جاء المختار بن أبى عبيد الثقفى الى الكوفة يدعو الناس الى بيعة عبدالله بن الزبير ، انضم التوابون فى جملتهم فقتلوا قتلة الحسين . ولما طمع المختار فى الخلافة لنفسه ، وأرسل عبدالله بن الزبير أخاه مصعبا لمحاربته ــ وكان حسن مع مصعب ــ فلما انتصر مصعب على المختار وقتله تفرقت رجاله ، فانحاز بعضهم الى مصعب وفى

جملتهم سليمان وأبوه ، وقد ائتلف قلبا حسن وسليمان كثيرا .
وكان سليمان يعجب بأخلاق حسن . فلما جاء عبد الملك بن مروان
وحارب مصعبا بالكوفة وقتله وتفرق رجاله ، سار حسن مع
عبد الملك كما تقدم ، وجاء سليمان وأبوه الى المدينة فأقاما فيها

فلما تلاقى حسن وسليمان فى المدينة على هذه الصورة ، لم
يصدق سليمان انه لقى صديقه حسنا ، فانعطف اليه وأحب البقاء
معه . فلما مشيا دعاه سليمان الى منزله ، وقال له : « ان أبى
يسر بلقياك » فتذكر حسن أبا سليمان ، فقال : « فاتنى أن أسأل
عن أبيك ، وكيف هو ؟ .. وما الذى يعمله الآن ؟ »

قال سليمان : « انه فى خدمة طارق بن عمر عامل هذه المدينة
من قبل عبد الملك بن مروان »

قال حسن : « وهل يخدمه عن رضى ؟ »

قال سليمان : « أراه راضيا بخدمته ، وكثيرا ما أظهرت عدم
رضائى بخدمة هؤلاء القوم الذين قتلوا حسينا .. وكنا فى الأمس
نجرد السيوف عليهم ونطالبهم بدم المقتولين ، فكيف نخدمهم
الآن .. ؟ ولكننى رأيته راضيا فسكتّ عنه .. ولعل له عذرا ! »

وكانا يتكلمان ، وهما يسيران ، حتى وصلا الى بيت سليمان .
ولم يكن أبوه فى البيت ، فمكثا هناك وتناولا الغداء معا وفرح
كل منهما بلقاء صديقه ، فلما كان العصر نهض حسن واعتذر
لاضطراره الى الذهاب لوداع ليلى الاخيلية فى بيت سكينة بنت
الحسين ، وفى نفسه انه يود لو استطاع مشاهدة سمية لأن بيتها

بجانب بيت سكينة ..

فأمسكه سليمان وتوسل اليه أن يؤجل سفره الى الغـد ، فاعتذر فقال له سليمان : « اذا لم يكن بد من سفرك فانى أرافقك فى أول الطريق ، لأنك اذا خرجت من المدينة عند الغروب لا تسير الليل كله . فاذا رضيت برفقتى فانى أصاحبك الى العقيق ، فنمكث هناك ساعة أسعد بحديثك ثم نفترق » ..

قال‌حسن : « كيف لا أرضى بذلك ، وفيه راحتى وسرورى ؟»

قال سليمان : « اذن أين نلتقى ؟ »

قال حسن : « نلتقى بباب المدينة المؤدى الى مكة ، ونخرج من هناك معا » ..

قال سليمان : « وهل تعرف الطريق الى الباب ؟ »

قال حسن : « نعم أعرفه فانه على مقربة من حانوت النبّال الذى اشتريت منه هذه النبال اليوم »

ولما ذكر النبّال تذكر القباء ، فبغت وقال : «وقد نسيت عنده القباء ، وأخاف اذا أردت الذهاب اليه أن تفوت الفرصة لمشاهدة ليلى » ..

فابتدره سليمان قائلا : « دع هذا التى ؛ فأنا أمر بالنبّال وآخذ القباء منه وأحفظه لك .. الى الملتقى .. »

فشكره حسن وودعه وخرجا ، فسار كل فى طريقه

— ١٥ —

سمية ووالدها

فلنعد الى الحديث عن سمية ، وقد دخل حبيبها بيتها بعد غيابه بضع سنوات ، وخرج منه ولم يرها ولا خاطبها .. كانت سمية جالسة بالباحة كما قدمنا ، ولا ندرى حينما قرع حسن الباب هل دق قلبها ، وهل حدثتها نفسها ان الطارق حبيبها .. أو هى تذمرت من ذلك القادم لأنه كدر عليها مقامها فى الخلاء ، فاضطرت عند سماع القرع أن تنزوى فى أقرب الغرف ، ونفسها لا تزال تتوق لمعرفة من عسى أن يكون الطارق .. لأنها لم تجد فى قرع الباب ما يشبه دقات زائريهم فى ذلك الجوار . وكثيرا ما تدل الدقة على صاحبها ، ويعلم أهل البيت بقدوم صديقهم من قرعة الباب .. ثم ان ميل سمية الى استطلاع حقيقة القادم لم يكن عن تطفل أو فضول ، وانما هو من نتائج التحجب . والانسان انما يتطلع الى ما يُمْنَع من الاطلاع عليه . وكان عرفجة من أكثر الآباء تضييقا على بناتهم وأكثرهم اصرارا على الحجاب .. على ان ذلك لم يكن يمنعها من التطلع الى القادمين من شقوق النوافذ أو ثقوب الأبواب

واتفق فى ذلك الصباح انه لم يكن فى البيت أحد من الرجال غير عرفجة ، وكان مشغولا فى حجرة خاصة له ، لايدخلها أحد

غيره .. وفيها محفة من خشب مقفلة لايفتحها سواه . فاذا دخل تلك الحجرة أقفل بابها ، ولايدرى أهل البيت ماذا يفعل هناك . فيقضى فيهـا ساعة أو بعض السـاعة ، ثم يخرج ويقفل الباب وراءه .. وكثيرا ما أحبَّت سمية أن تسـتطلع أمر تلك المحفة ومشاهدة ما فى داخلها ، فلم توفق الى ذلك .. لأن المحفة من خشب متين لا منافذ للبصر فيه . فلما قرع حسن الباب ، كان عرفجة هناك فأبطأ فى فتح الباب كما رأيت

فلما فتح الباب ودخل وهو يخاطب حسنا ويرحب به ، كانت سمية تنظر من ثقب فى باب غرفتها يطل على حجرة والدها ، فوقع بصرها عليه وهو يخلع حذاءه بباب الحجرة ، وهى أول مرة رأته فيها بعد ذلك الغياب الطويل . ولم تكد تتحقق منه حتى شعرت بهزة قوية ، وخفق قلبها خفقانا شديدا ، ولكنها ظنت نفسـها مخطئة ، فتفرست فيه جيدا فاذا هو حسن بعينه ، ورأت أباها يخاطبه ويرحب به ، وقد فهمت ذلك من اشارته وملامحه لأنها لم تكن تسمع الكلام لبعد المسافة وبخاصة بعد أن دخلا وأقفلا الباب .. ولكنها لم تعدم جارية تتسمع من جانب تلك الغرفة وتعود اليها بما سمعته . والجوارى أكثر الناس رغبة فى نقل الأحاديث ، ولاسيما اذا كانت من هذا القبيل .. فكانت تلك الجارية تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان أو الباحة ، فتقف هناك بحيث تسمع ما يدور ، وربما سمعت بعضه فتكمل الحديث من عندها وتعود به الى سمية ، فأطلعت سميـة بذلك على ما دار بينهما

حرفيا . فساءها أن يأبى أبوها أن يريه اياها ولو من وراء حجاب..
ولكنها فرحت اذ رأته واطمأن بالها الى انه لايزال على حبها .
ولما أخبرتها الجارية انه جاء يطلبها من أبيها زاد اضطرابها
واصطكت ركبتاها ، ولم تعد تستطيع الوقوف ، فثنت وسادة
كانت بجانبها وجلست عليها وعيناها مثبتتان على شق الباب ..
على أنها ظلت ترجو أن يعود حسن الى طلب رؤيتها فيأذن لها
والدها ، ولكنها ما لبثت ان علمت انه غير الحديث وعول على
الخروج من المدينة فى تلك الليلة ، وقد حبب اليه عرفجة الاسراع
فى ذلك وأعطاه القباء . وعجبت لالحاحه عليه بأخذ القباء وهى
تعلم انه بخيل .. على ان ذلك أكد لها رضاه عن تلك الخطبة ،
فانبسطت نفسها وتعللت بقرب اللقاء بعد الرجوع من مكة

فلما خرج حسن وتبعه عرفجة لوداعه ، طارت عيناها شعاعا
الى حسن.. ولكنه ما لبث أن غاب عن بصرها . فلما رأت والدها
راجعا خرجت من الغرفة لتلقاه ، وقد توردت وجنتاها من عظم
التأثر وبانت دلائل الحب فى وجهها . فلما رآها عرفجة على تلك
الحال ، انقبضت نفسه وتظاهر انه فى شغل عن الحديث معها

أما هى ، فلم تكن تصبر عن استطلاع أفكاره .. ولكنها
أمسكت عن الكلام تهيبا لأنها كانت تخافه كثيرا وتخشى غضبه ،
وقد قاست منه الصعاب ، على انها كانت تحسن الظن به فتحولت
الى حجرتها وهى منقبضة النفس ، ودخل عرفجة حجرة أخرى
وقد لحظ ما فى نفس ابنته ، ولم يفته اطلاعها على مادار بينه وبين

حسن .. فبعث اليها فجاءت ، وليس فى المكان سواهما . فوقفت وقلبها يخفق وهى لا تستطيع التطلع الى أبيها ولا تدرى ما يريد منها . فأشار اليها ، فجلست على وسادة بالقرب منه وهى تتشاغل بأطراف جدائلها المرسلة . وكانت تضفر شعرها عادة فى طرة اشتهرت فى المدينة يومئذ بالطرة السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين ، لأنها أول من ضفر شعرها على تلك الصورة (١)

لبثت سمية برهة ، وهى تتشاغل بذلك ، ووالدها ينظر اليها ويتأمل حركاتها ، فلم يزدد الا وثوقا بتعلقها بذلك الشاب وهو لايحب أن يتقرب منه بوجه من الوجوه ، ولكنه لم يذكر ذلك لسمية صريحا . على انه كثيرا ما حاول ان يزوجها بسواه فلم تقبل . فلما طال غياب حسن عن المدينة ظنه مات أو قتل أو انه أعرض عنها وتعلق بغيرها . فلما رآه فى ذلك الصباح وتحقق انه ما زال حيا بغت واستعاذ بالله ، ولكنه عمد الى الخبث والرياء ، فتغلب على عواطفه وبش له واستدناه منه وأظهر له ما أظهره من اللطف والأنس على أمل أن يفتك به غيلة .. فلما رأى سمية فى ذلك الاضطراب قال لها : « أراك يا سمية مضطربة .. ما الذى دعاك الى هذا الاضطراب ؟ »

قالت وهى لا تزال مطرقة وقد صعد الدم الى وجهها فزاد احمراره : « وأى اضطراب تعنى ؟ »

قال : « اعنى ما يبدو على وجهك من الاحمرار على أثر

---

(١) القاموس

الاصفرار ، وكأنى أسمع دقات قلبك .. فما هذا ؟ » قال ذلك بنغمة منخفضة رفقا بها واحتيالا فى استطلاع سرها ، وقد كان يحب رضاها ولكنه لايريد أن تعمل عملا تستقل به عنه . وكان أهل المدينة يتحدثون بجمال سمية ولطفها ، وكان والدها يريد أن يتجر بذلك الجمال فيزوجها من عامل أو أمير فيربح بزواجها منصبا أو مالا . وكانت له مطالب أخرى ترجع كلها الى الطمع وحب الاثرة مع خبث الطوية . وحب الاثرة مع سلامة الطوية قلما يضر بالناس ، اذ ليس فى البشر من لايحب ذاته ويفضلها على سائر الناس .. فاذا صحبها خبث النية وسوء الخلق فانها تكون وبالا على الناس ، لأن صاحبها لا يبالى بما قد يضحيه من الأنفس أو الأعراض فى سبيل تحقيق أغراضه .

وكان عرفجة ذا مطامع كبيرة جدا ، وكان ذلك شأن كثيرين فى ذلك العهد ، على أثر تزعزع أركان الخلافة وانقسام النـــاس وكثرة الدعاة وتعدد الدعوات . فكان هذا يدعو الى بيعة عبد الملك وذاك الى بيعة محمد بن الحنفية ، وذلك الى بيعة عبد الله ابن الزبير فضلا عن دعاة آخرين فى البلاد الأخرى . فأصبح الأمر فوضى ، وربما خطر لعرفجة ان يدعو الى أحد هؤلاء أوغيرهم ، ولو أتيح له أن يدعو الناس الى نفسه لفعل ، ولكنه لم يكن يطمع فى ذلك وهو من ثقيف ، وكانوا محتقرين بجانب القرشيين . وكان الحجاج والمختار بن أبى عبيدة ثقفيين أيضا ، فلما أراد المختار أن يستأثر بالملك تظاهر بالدعوة الى محمد بن الحنفية كما قدمنا

- ١٦ -

استبداد !

أما سمية ، فلما سمعت سؤال والدها ولم تر فيه نغمة الجفاء ، أجابت وهى تكاد تذوب خجلا : « أتسألنى يا أبتاه وأنت أعلم الناس بسبب ذلك ؟ »

فقال وهو يغتصب الضحك اغتصابا : « أظنك تحبين هـذا الشاب ؟ .. »

قالت : « لا أقول انى أحبه ، ولكننى أعلم فضله علينا لأنه أنقذنا من الموت. وقد اشترط شرطا وعدناه به ، أفلا تفى بالوعد؟»

وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر ، وهى تنظر فى وجه والدها ، لأنها أغفلت أمر الحب وطالبته بحق شرعى عليه ، وكانت تتوقع ان يكون جوابه الاذعان الصريح . ولكنها رأته يبتسم ابتسام الاستخفاف ، ثم هز رأسه وجعل يده عند أسفل لحيته يلاعب أطراف شعرها بأنامله ، وهو يقول : « ماشاء الله .. وأى فضل تعنين يا سمية ؟ »

قالت : « ألم ينقذنا هذا الرجل من القتل ونحن فى الكوفة ؟ ألم أخرج اليه محلولة الشعر وأطلب منه نجاتك فأسرع الى انقاذك ؟.. ولا أراك تنكر ذلك عليه الى الآن » قالت ذلك وهى تنظر فى وجهه بطرف عينيهـا وتتوقع اذعانه ، فاذا سحنته قد

تغيرت ، وبان الشر فى عينيه ، وكان بيده مفتاح الحجرة فرمى به الى الأرض من شدة الغيظ ، وقال : « لا أقدر على سماع هـذا الكلام .. ان الذى يدعى علينا مثل هذا الفضل يجب أن يموت »

فلما سمعت سمية ذكر الموت اقشعر بدنها وامتقع لونها ، ونظرت الى والدها والدموع ملء عينيها كأنها تستعطفه بالحنان الأبوى .. وهى لا تصدق انه يعنى ما يقول . ولكنها ما لبثت أن رأته نهض وجعل يتمشى فى أرض الحجرة ولحيته ترقص أمام عنقه ، وعيناه محملقتـان وأنامله ترتجف . فتهيبت وأطرقت ودموعها تتساقط على ثيابها وهى هادئة لا تحرك ساكنا ، ولسان حالها يقول : « ويلك يا ظالم .. »

أما هو فبعد أن تمشى هنيهة ، عاد فوقف أمامها وقال لها : « لو كنت تحبين والدك ما رضيت ان يكون لمثل هـذا الغلام فضل علينا . كيف نعيش ولهذا الغلام منة علينا ؟ .. وتقولين ذلك جهارا ، لاشك انك تحبينه أكثر مما تحبينني ؟ »

فقالت والبكاء يخنق صوتها : « كيف تقول ذلك يا أبتـاه وأنت تعلم قلبى وتعلم انى لا أحب أحدا سواك ؟ .. وأما هـذا الشاب فان له علينا فضلا لاينكر ، هل نسيت الخطر الذى كنا فيه ، وكيف أنقذنا واهتم بنا حتى وصلنا الى هذا المكان ؟.. وأنت الذى وعدته بزواجى .. فاذا كنت أنا أحبه فانما تكون أنت الذى دعوتنى الى ذلك و ... »

فقطع عرفجة كلامها وقال : « الى هذا الحد بلغت وقاحتك

حتى تقولى لى انك تحبينه وتعيدى ذكر فضله ؟.. وذكر هـذا الفضل وحده يدعونى الى قتله .. »

فاقشعر بدن سميـة واضطربت جوارحها فجثت عند قدمى عرفجة ، والدمع يتساقط على خديها ويمتزج بالعرق المتصبب من جبينها ، وقالت : « وا رحمتاه ياسيدى .. بالله لا تذكر القتل .. دعه ، لا تقتله ولا غاية لى فيه .. فأنا لا أخرج عن طاعتك فى أمر من الأمور .. لا تذكر القتل لأنه يقطع نياط قلبى .. افعل بى ماتشاء فانى أطوع لك من بنانك .. اشفق على دموعى وارحمنى »

فلما سمع تذللها ظن انها عدلت عن محبته ، فأمسكها وأنهضها ومسح دموعها بيديه وقال لها : « خففى عنك يابنية وكونى حكيمة عاقلة ، وانبذى أمر هذا الغلام من ذهنك ، وارجعى الى أبيك واعلمى أنى لا أفعل الا ما يضمن لك السعادة والهناء » ..

قال ذلك وأجلسـها على الوسـادة وجلس هو الى جانبها ، فاتكأت على صدره فتحقق انها أذعنت لأمره واستسلمت له ، فلم يعد الى ذكر حسن ولكنه اغتنم هذه الفرصة وقال لها : « يظهر انك كنت فى جهالة عمياء .. والحمد لله انك فهمت ما أضمره لك ، كيف تعيشين مع رجل تعلمين انه ذو فضل على أبيك ؟ .. أليس ذلك منتهى الذل والضعف ؟ .. كيف أستطيع الاحتفاظ بمنزلتى بين الناس ، وفى الدنيا رجل يقول انه أنقذنى من الموت .. وله فضل على .. ؟ »

فظلت سمية صامتة مخافة أن يعود والدها الى ذكر القتل أو

نحوه ، ولكنها عجبت له وهو يجحد الفضل لأهله .. وقد فاتها أن من الناس من يتعمدون الايقاع بالذين أحسنوا اليهم لأن مجرد تصورهم ان لهم فضلا عليهم يهيج حسدهم حتى يقودهم الى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة .. وأمثال هؤلاء قليلون — والحمد لله — وكان عرفجة واحدا منهم ، ولم يحمله على قتل حسن الا سابق فضله عليه .. وتلك خطة فى منتهى الدناءة والخسة

ولم تر سمية خيرا من السكوت على ما سمعته ورأته ، ولكن ذلك لم يغير شيئا من عواطفها ، بل زادها تعلقا بحسن وتعلق ذهنها بحياته خوفا عليه من والدها ، فعولت على السعى فى تحذيره . كانت تفكر فى ذلك وهى متكئة على صدر والدها ، وقد بللت قميصه بدموعها ، فأنهضها وقبلها وقال لها : « قومى يا سمية وارجعى الى رشدك ، فانى سأزوجك بأعظم رجل يتحدث به المسلمون الآن ، لتعلمى انى انما أزعجتك بأقوالى لأحسن اليك بأفعالى »

— ١٧ —

المناجاة

فنهضت سمية ومشت وهى صامتة تمسح عينيها بكمها ، حتى أتت الى حجرتها ، فدخلت وأقفلت الباب وأوصدته واستلقت على فراشها ، وقد تمثل لها ما يحيط بها من ارتباك ، وكذلك الخطر

الذى يهدد خطيبها ، فأظلمت الدنيا فى عينيها .. فاستغرقت فى البكاء وأطلقت لدموعها العنان ، ثم تمالكت نفسها وفكرت فى أمرها وموقفها من رأى والدها ، وما تعرضت له من الأمر العظيم بسبب حبها لحسن ، فجعلت تناجى نفسها قائلة : « كيف تعلقت بهذا الرجل الغريب ، وفى تعلقى به خطر على حياتى وحياته ؟ .. أليس هذا هو أبى الذى ربانى وكفلنى ولا يريد لى الا الخير والسعادة ؟.. كيف أعصاه وأطيع هواى ؟.. أليس من العقل أن أخضع لرأى أبى ؟ نعم .. لا .. لا .. حسن حبيبى .. ولكن ماذا يربطنى به ؟ .. الحب .. ما معنى الحب ؟ .. ان هذا الحب سبب عذابى وعذاب والدى وعذاب حبيبى .. لا .. الحب عذابه عذب ، آه ما أحلى الحب وما أشرف عواطف المحبين .. كيف يعيش الناس بدون الحب ، وما الفائدة من الحياة بغير محبة ؟.. انى لا أرى فى العيش لذة الا عندما أفكر فى حسن .. حسن .. آه ، ما ألطف هذا الاسم .. ولكن كثيرا ماكنت أسمعه قبل أن أعرف الحب فلا أتلذذ بلفظه كما أتلذذ به الآن . فانما أنا أتلذذ بالحب ، آه ما أحلاه وما أحلى لفظه بفمى وذكره بفكرى ، وما أحلى صورته فى عينى » ثم مسحت دموعها ولبثت هادئة برهة وهى تفكر فى والدها ، وقالت : « ولكن والدى ربانى بعد وفاة أمى وحده ، ولم يتزوج من أجلى وهو يحبنى ويريد سعادتى فكيف أغضبه ؟ »

ثم قالت : « ولكن والدى خرج فى معاملته عن حقوق الأبوة .. أنكر لهذا الشاب فضلا كبيرا له علينا ، بل أراد قتله من أجل ذلك

الفضل . أراد قتله .. قتل حسن حبيبى ؟.. ان والدى ظالم والظالم لا يحبه الله ، فكيف أحبه أنا ؟ وحسن شهم وقد تفانى فى سبيل نجاتنا ، ويكفى انه يحبنى وأحبه حبا عذريا نقيا لا عيب فيه . يا الهى ، ما هذا الحب ؟ اذا كنت ترى انى أخطىء فيما أقول ، فانزع حب هذا الشاب من قلبى. لا.. لاتنزعه.. أو انزعه ياالهى.. أو كما تشاء .. آه ، لا أرى هذا كله الا مما يزيدنى به تعلقا وهياما . الله هو الذى أراد أن يحب أحدنا الآخر ، والحب الذى يكون خاليا من الدنس وغايته شريفة انما هو من عند الله »

قضت سمية ساعة فى مثل هـــذه الهواجس ، ثم تذكرت ما سمعته من تهديد والدها ، فخافت أن يتمكن من حسن وهو غافل، فرأت من واجبها أن توصيه بأن يكون على حذر من والدها حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

وحدثتها نفسها أن تفر معه الى مكة ، ولكن تعقلها وأدبها زجراها عن ذلك .. ولكنها أصبحت بعد أن تأكدت من حبه لا تصبر عن رؤيته لتشكو له ما فى قلبها ويتعاهـــدا على الاتحاد والصبر . فتذكرت عزمه على الخروج من المدينة فى تلك الليلة ، وعلمت انه خارج حوالى الغروب من الباب المؤدى الى مكة ، فعزمت على أن تنتهز فرصة انشغال والدها ، فتخرج نحو الغروب وتقف له فى الطريق وتخاطبه

أما عرفجة فقد كان بينه وبين طارق بن عمرو عامل المدينـــة يومئذ صداقة ودسائس ، وكان طارق يكرم عرفجة لأنه ثقفى من

قبيلة الحجاج ، وكان الحجاج قد أوصاه به خيرا لأنه ثقفى فقط ، ولكن الحجاج كان قد عرف سمية وطلب يدها فوعده عرفجة بذلك ، ولكنه استمهله ريثما يسترضيها ، ولم يشأ الحجاج أن يحملها أبوها على ذلك كرها مخافة أن تشكوه الى الخليفة عبد الملك بن مروان ، فيأمره بالتخلى عنها كما حدث له مع عبد الله بن جعفر حينما خطب الحجاج ابنته أم كلثوم على مال كثير ، ثم أمره عبد الملك بن مروان بطلاقها . وجلية الخبر أن الحجاج خطب الى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفى ألف فى السر وخمسمائة ألف فى العلانية ، فأجابه الى ذلك وحملها اليه ، فأقامت عنده ثمانية أشهر ثم خرج عبد الله بن جعفر الى عبد الملك بن مروان وافدا ونزل بدمشق ، فأتاه الوليد بن عبد الملك (ابن الخليفة) على بغلة ومعه الناس ، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب ، فقال له الوليد : « لكنك أنت لا مرحبا بك ولا أهلا ! » قال عبد الله : « مهلا يا ابن أخى فلست أهلا لهذه المقالة منك » قال : « بلى والله ، وبشرٍّ منها » قال : « وفيم ذلك ؟ » قال : « لأنك عمدت الى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بنى عبد مناف فعرضتها على عبد ثقيف يتفخذها » قال : « وفى هذا عتبت علىَّ يا ابن أخى ؟ » قال : « نعم » فقال عبد الله : « والله ما أحق الناس أن لايلومنى فى هذا الا أنت وأبوك لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمى ويعرفون حقى ، وأنت وأباك منعتمانى وفدكما حتى ركبنى الدين ، أما والله لو ان عبدا حبشيا مجدعا أعطانى بها ما أعطانى

عبد ثقيف لزوجتها منه انما فديت بها رقبتى ! » فما راجعه الوليد كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك ، فقال له عبد الملك : « ما بالك يا أبا العباس ؟ » قال : « انك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بنى عبد مناف » وقص عليه الخبر . فأدركت عبد الملك غيرة فكتب الى الحجاج يقسم عليه ان لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل (١) . فخاف اذا فعل مثل ذلك بسمية أن تشكوه الى عبد الملك بواسطة سكينة لعلمه انها تحب سمية ولها منزلة وكرامة عند عبد الملك

— ١٨ —

رسول الى سمية

وأما حسن ، فانه ودع رفيقه وسار ماشيا وخادمه يقود ناقته وراءه ، وتوجه نحو بيت سكينة .. وقبل أن يصل أشرف على بيت عرفجة ، وما أن وقع بصره على نخيله حتى اختلج قلبه فى صدره ووقف ، كأن شيئا استوقفه بالرغم عنه ، وتصور انه شاخص الى مكة ، وهى محاصرة ، فلا يدرى متى يعود منها ولا مايمكن ان يكون فى غيبته . وكيف يسافر وهو لم ير سمية . ثم تمثلت له سمية كما رآها فى صباح ذلك اليوم قاعدة الى جذع النخلة حاسرة رأسها ، ولم ير غير جانب وجهها . فلما تصور ذلك زاد

(١) المستطرف — الجزء الثانى

هيامه واضطربت جوارحه ، وظل برهة كأنه قد فقد رشده لكثرة ما اكتنفه من الهواجس . ولم ينتبه لنفسه حتى خاطبه خادمه . وهو رجل من ثقيف اسمه عبد الله وأصله من الطائف ، وكان فى جملة خدم المختار بن أبى عبيدة فى أثناء حربه فى العراق ، فلما قتل المختار سار فى جملة الأسرى الى الشام ، ثم دخل فى خدمة حسن عندما سمع بعزمه الى المدينة رغبة منه فى السفر الى أهله فى الطائف ، وكان عبد الله يعرف عرفجة لأنه من قبيلته ، ولم يكن يحترمه ولا يثق بأقواله . ولكنه لم يكن يعلم بما بين حسن وسمية .. فلما رأى سيده واقفا مبهوتا استغرب ذلك منه ، فخاطبه قائلا : « ما بال مولاى ؟ هل يفكر فى أمر نسيه فأقضيه ؟ .. »

فانتبه حسن لنفسه واستحى من خادمه ، ولكنه تذكر للحال ما بين هـذا الخادم وعرفجة من رابطـة القبيلة ، فلاح له أن يستدرجه فى الحديث عنه .. لعل ذلك يأتى بفائدة ، فقال له : « هل تعرف عرفجة يا .. ؟ »

فأجاب عبـد الله ، دون أن يصبر حتى يتم السؤال قائلا : « كيف لا أعرفه وهو والد سمية ؟ .. »

فلما طرق ذلك الاسم أذن حسن ، خفق قلبه .. ولو انتبـه عبد الله لوجه سيده لرأى الاضطراب ظاهرا على محياه ، ولكنه لم يكن يجسر على أن يتفرس فى وجهه لفرط احترامه له . أما حسن ، فقال : « وهل تعرف سمية ؟.. وكيف عرفتها ؟ »

فضحك عبد الله ، وقال : «كيف لا أعرفها وهى من قبيلتى ؟ »

قال حسن : « وهب انها من قبيلتك ، فهل تعرف كل بنات قبيلتك ؟ » ..

قال عبد الله : « كلا ، ولكن سمية مشهورة بجمالها وتعقلها ولطفها .. وقد اتفق لى انى رأيتها غير مرة يوم كنا فى العراق »

فسرَّ حسن بهذه المصادفة ، وأراد أن يستخدم عبد الله فى البحث عن سمية أو الاتصال بها ، فقال : « اذن اسمع ياعبد الله.. أريد منك أن تسير الى سمية فى مهمة ، هل تذهب ؟ »

قال عبد الله : « كيف تأمرنى ولا أطيع ؟ »

قال حسن : « ولكن يجب أن تفهم الغرض من تلك المهمة بدون أن أقول شيئا عنها »

فتبسم عبد الله وأطرق خجلا ، وقال : « لا أحتاج الى زيادة ايضاح ، فان سمية مولاتى وأنت مولاى .. »

فأعجب بلطف تعبيره ، وقال له : « بورك فيك ياعبد الله .. اعلم انى قدمت فى هذا الصباح الى عرفجة وقضيت معه ساعة ، ولم أتمكن من مشاهدة سمية لأنها كانت مشغولة ، ونحن الآن فى طريقنا الى مكة ، ولا ندرى متى نعود .. فهل أخرج من المدينة قبل أن أراها ؟ .. »

قال عبد الله : « كلا ، بل يجب أن تراها وتخاطبها .. هل أسألها موعدا للقاء ؟ »

قال حسن : « لا تستعجل ياعبد الله .. فانى أخاف أن يغضب والدها اذا اطلع على ذلك لأنى سمعت بصرامته فى تحجبها ، فلا

يليق بى أن أراها خلسة وهو لا يعلم ، ولا سيما بعد أن خطبتها منه .. »

فأرسل عبد الله بصره الى بيت عرفجة ، وقال : « اذن فهى خطيبتك .. ولكن لابأس من رؤيتها اذا لم يعلم والدها .. أتأذن لى بالدخول الى هذا البيت والاستفهام عن عرفجة ، فأحتال فى الاتصال بها لتحديد موعد ؟.. أين تحب أن تتقابلا ؟ »

فاستعظم حسن الاقدام على هـذا الأمر ، ولكن رغبته فى رؤية سميـة هونت عليه ذلك ، فقال : « انى ذاهب الى منزل سكينة ، وأنا أعلم ان سمية كثيرة التردد عليه ؟ وسكينة تحبها وتحترمها ، فاذا قلت لها ان تلقانى هناك الآن لكان خيرا »

قال عبدالله : « سمعا وطاعة » وتحول والجمل معه ، وهو يقول : « سأحمل اليك الجواب فى منزل سكينة ان شاء الله »

— ١٩ —

أشعب الطماع

أما حسن فمشى حتى وصل الى منزل سكينة بنت الحسين ، فرأى بجانب الباب زريبة فيها دوابها ودواب من يقدم اليها من الوفود ، لأن منزلها كان مقصد الشعراء والأدباء وأهل الوجاهة من قريش وغيرهم (١) . وكان حسن قد سمع جعجعة الجمال ؛

(١) الأغانى — الجزء الثامن عشر

وجلبة الخدم قبل وصوله الى الدار ، فلما وصل رأى كثيرا من الدواب وأكثرها للضيوف .. ورأى بينها جمل ليلى الأخيلية .

فلما انتهى الى باب الدار ، أو هو باب البستان ، دخل ولم يستأذن لأن الناس يدخلون منه الى دار الضيافة ويخرجون بلا استئذان ، ومشى فى باحة كبيرة أشبه ببستان كبير ، رأى فى بعض جوانبه غرفا عديدة فى صف واحد عرف انها دار الضيافة ، ورأى فى صدر البستان بيتا متقن البناء على بابه الخدم ، عرف انه مسكن سكينة .. فتحول الى دار الضيافة لعله يرى ليلى هناك ، فيبقى معها ريثما تأتى سمية .. فتهيىء له السبيل لمقابلتها . فلما دخل دار الضيافة ، وجد الخدم منصرفين الى اعداد الأطعمة من الذبائح ونحوها ، وقد سره انشغالهم عنه لكى يتمكن من البحث عن ليلى .. فطاف الغرف ، غرفة غرفة ، فلم يجد أحدا يعرفه ، فظل يمشى وهو يسمع ضجة من جهة مسكن سكينة بعضها من الخدم فى الخارج وبعضها من الداخل ..

وكان يتخلل الضجة قهقهة وقوقأة مثل قوقأة الدجاج ، فمشى الى مكان الضحك .. فاذا هو فى غرفة بجانب باب المسكن ، وببابها بضعة رجال لم يعرفهم ، فدنا منهم وألقى التحية فردوا السلام وأبصارهم شاخصة الى داخل الغرفة ، فأطل حسن من فوق أكتافهم ، فرأى هناك رجلا قصيرا دميما قليل اللحم أزرق اللون أحول البصر أقرع الرأس أثط اللحية ، وقد جلس القرفصاء

على أكمة من التبن الممزوج بالزبل (١) . كان يحضن بيضا وهو يقوقىء كما تقوقىء الدجاجة .. فعجب حسن لذلك ، ونظر الى أحد الوقوف نظرة استفهام ، فاستغرب الرجل نظرته ، وقال له : « ألا تعرف هذا الرجل ؟ .. »

قال حسن : « لا .. ومن هو ؟ »

قال الرجل : « انه أشعب الطماع الذى اتخذته سكينة بنت الحسين نديما يمازحها »

قال حسن : « أسمع اسمه وأعرف بعض أخباره المضحكة ، ولكن منظره أبعث على الضحك من أخباره .. ما الذى أقعده هكذا وهو يقوقىء كأنه يحضن بيضا ؟ »

قال الرجل : « بل هو يحضن بيضا حقيقة عقابا له على ذنب ارتكبه بين يدى مولاته سكينة ، فأمرته أن يقعد على هذا البيض حتى يفقس (٢) وقد مضت عليه أيام وهو على هذه الحال .. »

فشغل حسن بذلك المنظر عن قلقه فى انتظار خادمه ، وأراد أن يشغل نفسه هنيهة أخرى ، فقال : « يا أشعب ما الذى أجلسك هذا المجلس ؟ .. »

قال أشعب : « أجلستنى اياه مولاتى سكينة ، فَهَىْ فيكم من يُخيجِنِى من هذا الحبس ؟ » أى « أجلستنى اياه مولاتى سكينة ، فهل فيكم من يخرجنى من هذا الحبس ؟ » لأن أشعب

(١) الأغانى ـ الجزء الرابع عشر (٢) الأغانى ـ الجزء الرابع عشر

كان فى لسانه لثغة (١) تتميما لجماله !

قال حسن : « ومن يستطيع التوسط لك فى هذا الأمر ؟ »

قال أشعب : « كأنى رأيت ليلى الاخيلية داخلة دار مولاتى اليوم ، فاذا كانت هى هنا فلا أرى أقدر منها على التوسل فى اخراجى من هذا المكان لأن سكينة تحب الشعراء وخصوصا بنات جنسها »

قال حســـن : « هان الأمر ، فلك علىّ أن أتوسل بليلى فى العفو عنك .. »

— ٢٠ —

مجلس سكينة

ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتا يناديه ، فالتفت فرأى خادمه عبد الله واقفا على بعد بضع خطوات منه ، فقال حسن : « ما وراءك ؟ .. »

فدنا عبد الله منه ، وقال : « دخلت البيت وسألت عن عرفجة ، فقيل لى انه خرج فى الصباح ولم يعد بعد ، ولا يعرف أحد مقره»

فابتدره حسن قائلا : « وسمية ؟ .. »

فقال عبد الله : « وسألت عن سمية ، فقالوا لى انها ذهبت الى سكينة من برهة قصيرة ، فسررت بذلك وأتيت لأخبرك ،

(١) الأغانى — الجزء السابع عشر

فهل رأيتها هنا ؟ .. »

قال حسن : « لا ، لم أرها ولعلها فى البيت مع النساء .. كيف أصل اليها ؟.. بورك فيك يا عبد الله ، امكث أنت بالباب مع الخدم والجمل معك حتى أخرج أو أحتاج اليك فى شىء .. »

قال عبد الله : « سمعا وطاعة » .. وخرج

وعاد حسن وقد شغل عن أشعب ونجاته بالبحث عن سمية ، ولما تصور انه سيتمكن من مقابلتها خفق قلبه . فلم ير وسيلة الى ذلك الا ليلى ، فجاء الى باب القاعة التى تستقبل سكينة فيها ضيوفها ، فرأى عليه رجلا واقفا وقوف الحاجب ، فقال له حسن : « هل فى مجلس بنت الحسين أحد ؟ »

قال الرجل : « ان مجلسها غاص بالناس ، وفيهم جماعة من الشعراء والشاعرات »

قال حسن : « وهل فيهم ليلى الاخيلية ؟ »

قال الرجل : « نعم .. »

قال حسن : « قل لليلى ان حسنا بالباب يدعوك اليه .. »

فدخل الرجل ثم عاد وليلى معه ، فلما رأت حسنا رحبت به .. فمشى معها الى خلوة ، وقال لها : « انى مسافر الليلة ، وقد جئت لوداعك .. »

قالت ليلى : « رافقتك السلامة .. ووفقك الله فى مهمتك »

قال حسن : « ولكنى أعرض عليك أمرا أرجو مساعدتك فيه الآن ، وهو لايتعبك »

قالت ليلى : « وما هو ؟ »

قال حسن : « هل تعرفين سمية بنت عرفجة ؟ »

قالت ليلى : « نعم .. أعرفها وقد رأيتها منذ برهة وجيزة جالسة بجانب سكينة تخاطبها ، وسكينة تلاطفها لأنها تحبها كثيرا .. وأنت ما شأنك بها ؟ .. »

قال حسن : « شأني بها شأن الخطيب وخطيبته ، فهل هي لا تزال هناك ؟ »

قالت ليلى : « لقد سرني انك خطبتها فانها زينة بنات المدينة .. وأما الآن فاني أظنها هنا لأني لم أرها قد خرجت . وعلى كل حال تعال معي فندخل القاعة ، فتمكث أنت مع الجلوس من الرجال ، وأدخل أنا الى مجلس النساء وراء الستار حيث تقيم سكينة وصاحباتها ، فأبحث عن سمية .. »

فقطع كلامها قائلا : « وأرجو أن تجمعيني بها ساعة لايرانا فيها أحد سواك لأني خطبتها منذ ثلاثة أعوام وجئت الى المدينة بالأمس ، وها أنا أخرج منها الآن ولم أشاهدها أو أخاطبها »

قالت ليلى : « لك عليّ ذلك » ..

قال حسن : « وأرجو أن يكون ذلك عاجلا لأن الغروب قد دنا وأنا مسافر عند الغروب »

قالت ليلى : « ألا تؤجل سفرك الى الغد ؟ »

قال حسن : « كنت أود ذلك ، ولكنني وعدت صديقا أن نسير معا ، وسيوافيني عند الغروب الى باب المدينة .. فاصنعي معروفا

وعجلى ، ثم انى أوصيك بأشعب الطمـاع ، فانه يحضن بيضا هنا عقابا له على ذنب ارتكبه ، وقد وعدته أن أتوسل بك لدى مولاته سكينة .. فلا تنسيه »

فضحكت وقالت : « قبحه الله ما أكثر مجونه ، ولكنه وافق سكينة لأنها تحب الممازحة ، وقد حكت لى عن سبب حبسه هذه المرة وانها تعودت معاقبته مثل ذلك العقاب من قبل ، فانه حضن بيضا مرة حتى فقس وخرجت فراريجه فملأت الدار ، وسكينة تسميهن بنات أشعب (١) . انى ذاهبة وسأكلمها بشأنه .. ولكن تعال معى واجلس مع الجالسين ، فاذا لقيت سمية أومأت اليك فتخرج » ..

— ٢١ —

مجلس الشعراء

فدخلت ليلى ودخل حسن فى أثرها بعد أن خلع نعليه بالباب ووضعهما فى ناحية يعرفها .. ثم أطل على القاعة ، فاذا هى واسعة وقد فرشت أرضها بالطنافس الثمينة وحولها الوسائد المزركشة ، وفى صدرها ستارة عليها صور أشجار وطيور ملونة جلست خلفها سكينة ونساؤها بحيث ترى ضيوفها ولا يرونها

ورأى فى القاعة جماعة ، قد تصدر منهم خمسة عليهم لباس

(١) الاغانى ـ الجزء الرابع عشر

البدو ، جلسوا فى صدر القاعة .. فقال حسن : « ومن هؤلاء المتصدرون ؟ .. »

قالت ليلى : « هم الشعراء .. ألا تعرف منهم أحدا ؟ .. »

قال حسن : « أظننى أعرف أحدهم الجالس على الوسادة المثنية ، فقد عرفته من ضخامة بدنه وعبوسة وجهه وغلظه .. (١) أليس هو الفرزدق ؟ »

قالت ليلى : « بلى هو بعينه .. ألا تعجب من اجتماعه هو وجرير فى مجلس واحد مع ما اشتهر بينهما من المهاجاة ؟ »

قال حسن : « وأين جرير ؟ »

قالت ليلى : « هو ذاك الذى قد كف شعره وادهن ، ومتى تكلم سمعت لكلامه غنة يخرج بها الكلام من أنفه كأن فيه نونا » (٢)

قال حسن : « ومن هو ذلك الرجل القصير الدميم العظيم الهامة مع احمراره ؟ » (٣)

قالت ليلى : « هو كثير عزة العاشق المشهور »

قال حسن : « أعاذ الله عزة من منظره فانه قبيح .. ومن هو ذاك الشاب الجميل الطويل بين المنكبين الحسن البزة (٤) ، وكأنه جالس القرفصاء ؟ »

قالت ليلى : « ذلك هو جميل بثينة أحد عشاق بنى عذرة ..

---

(١) الاغانى – الجزء التاسع عشر

(٢) الاغانى – الجزء السابع

(٣) الاغانى – الجزء الحادى عشر

(٤) الاغانى

ألا تراه حزينا ؟ فانه تعلق بحب بثينة ، ولما اشتهر حبه لها منعه أهلها منها » ..

قال حسن : « ومن هو ذلك الأسود ؟.. انى لأستغرب منظره ويندر الشعر فى السود ، فمن هو ؟ »

فضحكت وقالت : « هو نصيب (١) الشاعر الفحل . واما سواده فمن أمه لأنها أَمَة ، وأما أبوه فمن قضاعة .. فها قد عرفت الشعراء وستسمع حديثهم وحديث سكينة معهم . اجلس على تلك الوسادة والتفت الى هذه الناحية من حين لآخر لعلّى أشير اليك بالخروج ؟ »

فدخل وهو يخشى فوات الوقت، ولكنه لم يرَ حيلة فجلس فى جملة الجالسين . ولم يكد يستقر به المكان حتى سمع لغطا من وراء الستار ، فاستبشر بكلام دار بين ليلى وسكينة أو بينها وبين سمية . ثم رأى جارية وضيئة خرجت وقالت : «أيكم الفرزدق؟»

وكان حسن يتوقع أن تناديه ، فلما سمعها تنادى الفرزدق التفت اليه فرآه يقول : « ها أنا ذا »

قالت الجارية : « أنت القائل :

هما دلتانى من ثمانين قامة
كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا
أحىٌ فيرجى .. أم قتيل نحاذره

(١) الاغانى – الجزء الاول

فقلت ارفعوا الامراس لا يشعروا بنا
وأفلت فى اعجاز ليل أبادره »

قال الفرزدق : « نعم »

قالت الجارية : « فما دعاك الى افشاء السر ؟.. خذ هذه الألف دينار ، والحق بأهلك » فأخذها وانصرف .. ثم دخلت الجارية على مولاتها وخرجت ، فقالت : « أيكم جرير ؟ »

قال : « ها أنا ذا »

قالت الجارية : « أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
حين الزيارة فارجعى بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه
برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذى حدثتنا
لوصلت ذاك وكان غير ذمام
انى أواصل من أردت وصاله
بحبال لا صلف ولا لوام »

قال جرير : « نعم »

قالت الجارية : « أو لا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ انت عفيف وفيك ضعف ، خذ هذه الألف والحق بأهلك » فأخذها وانصرف ، ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، وقالت : « أيكم كثير ؟ » قال كثير : « أنا »

قالت الجارية : « أنت القائل :

وأعجبنى يا عز منك خـــــلائق
كرام اذا عد الخـــــلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجـاهـل الصبـا
ودفعك أسـباب المنى حين يطمـع
وانك لا تـدرين صبـــا مطلتـه
أيشـــــتد ان لاقاك أو يتضرع
وإنك ان واصــلت علمت بالــذى
لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع »

قال كثير : « نعم »

قالت الجارية : « قد ملحت وشكلت ، خـذ هـذه الألف واذهب لأهلك » ثم دخلت وخرجت ، وقالت : «أيكم نصيب ؟» قال نصيب : « أنا »

قالت الجارية : « أنت القائل :

ولولا أن يقـــال صبـــا نصيب
لقلت بنفسى النشـأ الصـــــغار
بنفسى كل مهضـــوم حشـــاها
اذا ظلمت فليس لهـا انتصـار »

قال نصيب : « نعم »

قالت الجارية : « ربيتنا صغارا ومدحتنا كبارا ، خذ هـذه الألف دينـار والحق بأهلك » فأخـذها وانصرف ، ثم دخلت

وخرجت ، فقالت لجميل : « مولاتى تقرئك السلام وتقول لك :
ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بوادى القرى انى اذا لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل عندهن شهيد

فجعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك (١) » فأخذها وانصرف

وكان حسن ينظر ويسمع ، ولا يعجب من مثل ذلك المجلس كما قد يستغربه أهل هذا الزمان ، لأن اهتمام النساء بالشعر والأدب وجلوسهن لمثل تلك المطارحة كان شائعا فى تلك الأيام . ونبغ من النساء شاعرات ماهرات ، منهن ليلى الاخيلية وغيرها .. وانما استغرب حسن اهتمام سكينة ، على رفعة مقامها ، بمباحثة الشعراء فيما قالوه ونظموه . على انه كان يسمع ويرى وهو قلق البال لتأخر ليلى عنه ، ولم يكن يدرى كيف يستدعيها أو يستعجلها .. فرأى أن يسمعها صوته ، فانتحل أمرا يجيز له الكلام .. ذلك انه رأى على الستار الحاجز بين مجلسى الرجال والنساء صورا لطيور وأشجار ، وكانت أمثال هذه الأنسجة الملونة كثيرة الانتشار فى المدينة للأستار والوسائد والأغطية . ولكن بعضهم كان يحرم استخدامها عملا ببعض الحديث . وكان حسن

---

(١) الدر المنثور

أول ما وقع نظره على الستار ساعة دخوله الغرفة قد أكبر أمره ، فرأى له حينئذ مسوغا للكلام . فلما فرغت الجارية من مخاطبة الشعراء ، ورأى الشعراء قد خرجوا ، وهمت هى بالرجوع ، وقف حتى أقبل عليها ، وقال : « تمهلى يا بنية »

فوقفت والتفتت اليه ، فقال لها : « لقد باحثت هؤلاء الشعراء وأفحمتهم فانصرفوا ، فهل أسألك سؤالا ؟ »

قالت الجارية : « قل ما تشاء »

قال حسن : « أرى على ستاركم صورا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون »

فأشارت الجارية اليه أن يتمهل ، ودخلت الى سيدتها وحسن ينتظرها . فلما عادت قالت له : « وما يضرنا ، وما نحن من المصورين ؟! »

قال حسن : « ولكنكم اتخذتم تلك الصور أستارا . ولو كانت تلك صور أشجار فقط لهان أمرها ، (١) ولكنها صور ذات أرواح ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصورة » ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتا جهوريا من وراء الستار ، يقول : « ولكنه صلى الله عليه وسلم قال أيضا : الا رقما فى ثوب .. » (٢) فعلم حسن انه صوت ليلى فسكت ، وعادت الجارية الى مكانها . ولبث هو على مثل الجمر لا يدرى ماذا يعمل ، ولا ماذا يقول . والتفت الى الخلاء من نافذة عالية

---

(١) مشكاة المصابيح

(٢) البخارى ـ الجزء الرابع

فرأى الشمس قد مالت الى الغروب ، فازداد قلقه مخافة أن يطول انتظار صاحبه سليمان بباب المدينة

– ٢٢ –

الفشل

وفيما هو يفكر فى ذلك سمع لغطا وراء الستار أعقبه ضحك كثير وصــوت يقول : « قد أطلقنا سراحه ، اذهبى يا بنيــة واخرجيه ، قبحه الله ما أخبثه ! » فعلم حسن انه صوت سكينة ، ولكنه ظنها تريد اخراجه هو فاضطرب .. ثم ما لبث أن رأى ليلى خارجة وهى تشير اليه أن يتبعها ، فسار فى أثرها حتى خرجا من القاعة فدنت منه وقالت : « لا تخف انها لم تأمر باخراجك ، ولكنها أمرت باخراج أشعب الطماع لأنى أوصيتها به عمــلا باشارتك » ..

فقطع حسن كلامها قائلا : « بورك فيك .. أين سمية ؟ .. »

قالت ليلى : « ليست هنا .. كانت فى هذا المجلس وخرجت قبل أن أراك »

فاستعاذ حسن بالله وانقبضت نفسه ، ثم قال : « هل أنت على يقين مما تقولين ؟ »

قالت ليلى : « بحثت كثيرا وتأكدت من خروجها ، فلعلها خرجت الى بيت أبيها لأنها لا تستطيع الغياب طويلا عنه »

وبينما هما يتكلمان رأيا أشعب مهرولا ، وهو على ماوصفناه ، من قصر القامة وقلة اللحم وقرع الرأس وحول البصر حتى أقبل على حسن ، وهمَّ به كأنه يريد أن يقبل يده وطفق يقول : « جزاك الله عنى خيرا ، فقد أنقذتنى من عذاب طويل لأننى لم أكن أرجو أن يفقس البيض قبل بضعة أيام ، فأطلب اليه تعالى أن يقدرنى على مكافأتك .. هل أستطيع خدمتك فى شىء ؟ »

قال حسن : « انى لم أفعل ما يستحق هذا الثناء ، فادع لى أن ألقى ضـائعى » ثم التفت الى ليلى كأنه يريد الرجوع الى الموضوع ، فتنحى اشعب قليلا ، فقال حسن : « أستودعك الله يا ليلى وأرجو أن أراك بخير » ثم التفت الى اشعب وودعه ، فقالت ليلى : « أتوسل الى الله أن ينصرك فى أمرك .. »

* * *

وأحب حسن الاختصار فى الكلام لأنه كان يتعجل الخروج لعله يلقى سمية فى الطريق أو فى البيت أو فى مكان آخر . فخرج فوجد خادمه عبد الله فى انتظاره ومعه الجمل ، فركب والشمس قد مالت الى الغروب وبان الشفق ، فاستحث جمله حتى دنا من حائط عرفجة .. فأحس بشىء استوقفه بغتة ، وما هو الا عامل الحب أوقفه بجانب بيت الحبيب . ثم نادى عبدالله ، فوقف عبدالله بين يديه وهو يقول : « هل أسأل عن سمية لعلها عادت ؟ »

فاستحسن حسن نباهة خادمه ومشاركته لشعوره ، فابتسم

ولم يجب .. فأسرع عبد الله الى البيت ثم عاد وهو يقول : « انها لم تعد ياسيدى » ..

فارتبك حسن فى أمره ، وخشى أن تكون سمية باقية فى بيت سكينة ولم ترها ليلى أو انها رأتها وأخفت أمرها لغرض فى نفسها . واصطلحت عليه الهواجس وتراكمت الظنون .. والمحب سيء الظن ، كلما اشتد حبه كثرت هواجسه .. وما هو عن سوء ظن ولكنها الغيرة . فاذا رأى حبيبه يخاطب أحدا ، مهما يكن من شأنه أو مقامه أو قرابته ، تبادر الى ذهنه انه يغازله أو يساره فى أمر . واذا أبطأ عليه بالزيارة سبق الى ذهنه انه على موعد مع آخر ، أو انه لا يحبه أو يحب سواه . وقد يخيّل له ان أهل الحبيب كلهم ضده وانهم يمنعونه منه ، فاذا تخاطبوا همسا أو قصروا معه فى شأن خيل اليه انهم يريدون به سوءا ، أو هم ينصبون له أحبولة .. فالمحب كثير الهواجس شديد الغيرة

* * *

فلا تلم حسنا اذا أساء الظن بليلى ، وحسبها قد تآمرت على اخفاء سمية عنه . قضى حسن برهة فى هذه الهواجس وهو على جمله ، ثم انتبه فاذا بالظلام يتكاثف ، وتذكر صديقه سليمان فأجفل وشق عليه تأخره عن الموعد مع ما أبداه الرجل من الرغبة فى مرافقته بعد أن بالغ فى اكرامه والتقرب منه .. فاستحث جمله وطلب باب المدينة وقد يئس من مشاهدة سمية ، وعلل نفسه بلقائها عند رجوعه من مكة

- ٢٣ -

اللقاء بغتة

مشى حسن بضع دقائق فأشرف على باب المدينة ، ومن ورائه المستنقعات والتلال وغابات النخيل ، وقد بعد عن منازل النـــاس وهو صامت . وفيما هو ينظر الى ما وراء الباب ، اذا بشبح قد وقف له فى الطريق ، وهو ينادى : « حسن » فالتفت حسن وقلبه يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على أذنه ، ولا غرو ، فانه صوت الحبيب . فلما سمعه أمسك زمام جمله ونظر الى الشـــبح فاذا هو امرأة ؛ فحدثه قلبه انها سمية .. فوثب عن الجمل حتى وقف بين يديها ، وتنحى عبد الله وقد أخـــذ بزمام الجمل وتشـــاغل باصلاح الرحال ..

أما حسن ، فانه نادى : « سمية ؟ .. »

قالت سمية : « نعم .. ومن هذا الذى معك ؟ »

قال حسن : « هو خادم أمين فلا تخافى منه .. ما الذى جاء بك الى هذا المكان فى هذا الليل .. سمية ؟ .. هل أنت سمية حقيقة ؟ ما ألطف هذا اللقاء !.. ما أسعد هـــذه الساعة ؟.. سمية .. حبيبتى .. قولى ما بالك ؟ »

فتنهدت وأسندت كتفها الى حائط هناك ، وتشاغلت باصلاح نقابها .. ولو أسفرت وأسعفها النور لرأى حسن وجهها يتدفق

حياة وحياء ، ولأدرك آثار الوجل عليه ، ولكنها قابلته مقنعة والوقت ليل . على انه لم يكن يطمع منها فى أكثر من ذلك ، وقد كفاه انها سعت للقائه وهو دليل الحب الشديد . وأول ما تساق اليه نفس المحب أن يتحقق من مبادلة الحب مع حبيبه ، فاذا تحقق من ذلك هان عليه كل شقاء . وما سبب كل ما يشكوه أهل الغرام من العذاب والشقاء فى الحب الا الخوف من تقلب المحب أو فتور الحبيب .. فارتاح حسن لما رآه من سعى سميه الى لقياه ، ولكنه أوجس خيفة من سبب ذلك لعلمه بصرامه والدها وشدة سلطانه عليها ، فقال لها : « انى لا أرى فى هذه الدنيا أحدا أسعد منى الآن ، وقد بذلت الجهد فى سبيل تحقيق هذا اللقاء ، فلم أفز حتى أتتنى السعادة عفوا ، فالحمد لله .. ولكننى أخشى أن يكون لهذه المخاطرة سبب يسوءك » . فتحيرت سمية كيف تجيب وماذا تقول ، فلبثت صامتة ، فازداد حسن قلقا فقال لها : « ما بالك ؟ قولى .. تكلمى ، لعلك علمت بذهابى الى مكة فخفت علىَّ الخطر هناك »

فلما سمعت منه لفظ الخطر ، أجابته والبكاء يخنق صوتها : « نعم أخاف عليك ، وليس من مكة فقط بل .. » وشرقت بالدمع فانقطع صوتها

فتقطع قلب حسن ، ومد يده فأمسك أناملها ، وهى أول مرة قبض فيها على تلك الأنامل فاقشعر بدنه وأحس برعشة مثلما يحسُّ رجل سرى فى جسمه تيار كهربى وقال لها : « بل ماذا ؟..

قولى يا سمية .. يا مالكة قلبى .. هل تخافين علىّ من أحد فى هذه المدينة أيضا ؟.. لا تخافى علىّ بأسا طالما كنت انت لى .. قولى انك تحبيننى ، وانك لا تحبين سواى ، ولا أبالى بعد ذلك اذا كان أهل الأرض كلهم أعدائى »

قالت سمية : « واذا كنت أنا عدوتك ؟ »

فحمل منها ذلك محمل المزاح ، وقال لها : « اذا كنت أنت عدوتى فلا غاية لى فى الحياة بعد .. بالله قولى ما فى نفسك . ممن تخافين علىّ ؟ فأريك دمه مسفوكا ، ولو كان حوله جيش جرار .. قولى .. »

فتنهدت ومسحت دموعها بطرف نقابها ، وهى تقول : « لا أريد أن أرى دمه مسفوكا »

فتعجب وقال : « وماذا اذن ؟.. أفصحى يا سمية .. يامنيتى قولى . ممن تخافين علىّ ، فقد نفد صبرى وطال تأخرى عن الخروج من المدينة ولى صديق ينتظرنى فى الخارج .. قولى »

قالت سمية : « أقول بعد أن ألتمس منك العذر ، لأنى أعد قولى عقوقا لا يليق ببنات الناس .. ولكننى أسيرة حبك ، لا أرى لى سعادة الا بك »

فقطع حسن كلامها وقد أدرك ما تريده ، فقال : « قد فهمت ما تريدين .. انك تخافين علىّ من أبيك »

قالت سمية : « نعم » واستغرقت فى البكاء حتى كاد يغمى عليها ، وكان هو لايزال ممسكا بيسراها ، فأمسك بيدها

الأخرى ، وقال لها : « ولا هذا يهمنى طالما كنت أنت تحبيننى .. هل تحبيننى يا سمية ؟ »

فصعدت الزفرات ولم تجب ، فعلم انها أجابت بالايجاب

فقال حسن : « فاذا كنت تحبيننى ، وأنا أحبك .. فمن ذا يحول بينى وبينك ؟ »

وسكت برهة وقد عظم عليه الأمر ، ثم قال : « وما الذى دعا والدك الى بغضى والحاق الأذى بى ، وأنا لم أرتكب لديه منكرا ولا أسأت اليه فى شىء ؟ .. »

قالت سمية : « ذنبك انك أحسنت اليه .. أو لعل ذلك من سوء حظى . ما لنا ولهذا ، ان الوقت لا يأذن بطول الشرح .. فأخبرك ان والدى لايريدك ، وأخاف أن يسعى فى أذيتك .. وقد علمت ذلك على أثر خروجك من منزلنا ، ولم أستطع صبرا عن اطلاعك على الحقيقة لتكون على بصيرة » ..

قال حسن : « اما أن أصاب بالأذى ، فهذا ما لا أخشاه باذن الله ولكننىَ أخاف أن يلحق بك أنت الأذى .. »

قالت سمية : « أما أنا فقد أظهرت له الطاعة والرضا ريثما أراك ، ثم أفعل ما تأمرنى به .. »

فأطرق حسن ، ثم قال : « أما أنا فانى مغلول اليدين بما أخذته على نفسى من أمر السفر الى مكة عاجلا فى مهمة لرجل أحبه وله علىَّ فضل كبير ، وقد أدعوك للذهاب معى ، ولكننى منطلق الى مكان محاط بالعدو والحرب مستعرة فيه ، فلا أريد أن تتعرضى

لهذا الخطر » ..

فقطعت كلامه قائلة : « وكيف تعرض نفسك للخطر ، ومكة اليوم فى ضيق من أثر الحصار ، وأهلها فى ضنك شديد . بالله ألا عدلت عن الذهاب ، ثم تفعل ما تريد ؟ » ..

قال حسن : « أما الذهاب فلا بد منه ، فامكثى أنت هنا واظهرى الطاعة حتى أعود ونرى مايكون .. ولا أخاف بأسا ولا خطرا طالما كانت سمية لا تحب سواى » ثم سمع جعجعة الجمال فانتبه للوقت ، وقال لها : « كنت أود ألا نفترق منذ الآن ، ولكن للضرورة أحكاما .. فانى مرسل عبد الله معك الى منزلك لأن الليل قد أظلم ، ولا آمن عليك المسير وحدك . فهل تسيرين الى بيت أبيك ؟ .. »

قالت سمية : « لا ، ولكنى أعود الى بيت سكينة لأن أبى يعلم انى سرت اليها ، فاذا استبطأنى سأل عنى هناك فأعتذر عن تأخرى .. وذلك خير من أن يرانى عائدة الى البيت وحدى فى هذا الليل .. ولكن كيف أفارقك ؟ .. »

قال حسن : « تشددى يا سمية ، ان سفرى هذا لابد منه .. ولكنه سيكون آخر الأسفار باذن الله ، ثم أعود ونعيش معا .. »

فلما قال ذلك بكت سمية حتى سمع صوت بكائها ، فانفطر قلبه وكاد يشاطرها البكاء لولا انه أعظم البكاء وهو فى موقف الخطر ، فتجلد وقال لها : « لا تبكى يا سمية بل توكلى على الله ، واعلمى انى سأعود اليك على عجل باذن الله .. » قال ذلك ونادى

عبد الله ، وقال له : « أبلغ سمية الى بيت سكينة ، والحقنى فى الطريق المؤدى الى العقيق فانى سأسبقك الى هناك .. فقد أبطأت على سليمان ، وأخاف أن يكون قد سبقنى أو عاد الى منزله »

– ٢٤ –

جعجعة الجمل

فمشت سمية وهى تقول : « سر فى حراسة المولى ، نصرك الله على أعدائك وحماك من كل ضرر » . وكان حسن يسمع كلامها حتى توارت عنه ، فركب جمله وساقه الى باب المدينة ولم يكن مغلقا ، فالتفت يمنة ويسرة فلم ير سليمان

فخرج وهو يمشى الهوينى ويصيخ بسمعه لعله يسمع صوتا ، وجعل يحدق بعينيه لعله يرى أحدا .. فسار والجمل دليله بين تلك المستنقعات . ولكنه لم يسر طويلا حتى سمع جعجعة جمل عن بعد ، فجعجع جمله فاستوقفه وأصاخ بسمعه ، وحول الزمام الى جهة الصوت ، وساق الجمل سوقا بطيئا ، فمشى به بين النخيل والظلام يسدل ستاره ، وقد ساد الصمت .. وكأن الجمل قد تهيب ذلك الهدوء فسكت أيضا ، فلم يعد يسمع غير وقع أقدامه على العشب أو الطين ..

وبعد قليل سمع حسن صوت بكاء وأنين ، فوقف وأصغى فسمع صوتا عميقا وعرف جهته .. وخاف ــ اذا سار بالجمل ــ



« فاختبأ حسن فى منعطف بحيث يرى ويسمع ولا يراه أحد ، فسمع صوتا يقول:
تبا لى ، ما أتعس حظى .. ولدى حبيبى .. كلمنى يا سليمان .. سليمان .. »

أن يجعجع الجمل فيشوش الصوت ، فترجل عنه وعقله وشده الى نخلة ومشى على قدميه وهو يتلمس الأرض مخافة أن يخوض فى الأوحال حتى تحول عن الطريق الأصلى الى ساحة لا نخيل فيها ولا عشب ، فرأى جملا معقولا وشبحا متوسدا الى جانبه ، وفوق رأس الشبح شبح آخر يبكى وينتحب . فاختبأ حسن فى منعطف بحيث يرى ويسمع ولايراه أحد، فسمع صوتا يقول : «يالتعاستى وشقائى .. لقد فتكت بك يا ولدى وفلذة كبدى.. أظننى أستحق هذا القصاص ، وأما أنت فما ذنبك ..؟ تبا لى ما أتعس حظى . ولدى حبيبى .. كلمنى يا سليمان .. سليمان .. سليمان .. »

فلما سمع حسن ذكر سليمان علم انه صديقه ، فاقشعر بدنه لئلا يكون قد أصابه سوء بسببه ، فنهض ومشى ويده على قبضة سيفه حتى أقبل على الشبحين ولم ينتبه له أحد

ثم سمع الشبح الراقد يقول بصوت ضعيف : « لا تحزن يا أبى ، فقد ذهبت فداء لصديق لى هو أحق منى بالحياة »

فقال الآخر : « أظنك ذهبت بذنبى أنا الشقى لأننى لم أفِ لله بعهده .. عاهـدت الله على النصر للحسين والمقاتلة فى سبيله ، وجعلت نفسى فى عداد التوابين ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة . وكثيرا ما رأيتك لا ترضى بذلك وأنا لا أصغى لك حتى ضربنى الله هذه الضربة على قلبى .. »

فتحقق حسن ان الراقد سليمان وانه فى ضيق ، فلم يتمالك عن الصياح : « سليمان .. »

فأجفل الرجل الجالس وحسب ان الجن تخاطبه ، فوقف للحال وقال : « أنسى أنت أم جنى ..؟ » وكان الرجل كهلا فى نحو الستين من عمره والشيب قد جلل رأسه ، وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية صغير العمامة .. ولم يتم الرجل سؤاله حتى كان حسن بين يديه ، وقد أكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقه القباء وقد تلطخ بالدم فتفرس فى عينيه ، فاذا هو يفتحهما بصعوبة ويتألم ، فأمسك حسن بيده وقال له : « سليمان أخى .. سليمان .. »

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على أذنى ذلك الجريح ، ففتح عينيه وصاح : « حسن .. حبيبى حسن .. أشكر الله انى تحملت عنك الموت .. »

ولم يقل سليمان ذلك حتى تقدم الرجل الآخر ، ونادى : « حسن .. انت حسن .. يا لله ما هذه المصيبة التى وقعت فيها من أجلك ؛ ولكن الذنب ليس ذنبك وانما هو ذنبى أنا الشقى التعس »

— ٢٥ —

العلاج

فعلم حسن للحال ان الكهل هو والد سليمان ، وأدرك انه كان يترصده .. فأصاب سليمان خطأ ، فاهتم حسن أولا بأمر سليمان ، فحاول أن يجلسه وقال لأبيه : « الىّ بالماء » فجاءه بشىء منه من

مستنقع قريب . فرش به سليمان وغسل مكان الجرج فى أعلى الصدر ، وكان قد أصيب بنبلة جذبها أبوه منه . وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معاشرة خالد بن يزيد الأموى فى دمشق ، لأن خالدا كان شديد التعلق بالعلوم الطبية حتى فاق بها سائر قريش . وكان عالما بصناعة الكيمياء والطب متقنا لهما ، وألّف فى ذلك الكتب والرسائل ، وقد أخذ العلم عن راهب اسمه يانس » (١) ولم يكن مجلس خالد فى دمشق يخلو من أهل العلم ، فكان حسن يجالسهم ويسمع أقوالهم فاستفاد من ذلك بعض الفائدة . فلما غسل جرح سـليمان ضغط على الجرح ، وأمر أبا سليمان باشعال النار فى كومة من الوقود ، فلما تحول الوقود رمادا ، أخذ بعضه وذرّه فوق الجرح وربطه

ثم سأل عن ماء للشرب ، فقال الرجل : « ليس معى قربة »

فقال حسن : « اسند ظهره لآتيك ببعض الماء من قربتى » قال ذلك ونهض ، ثم تحول نحو النخلة التى عقل جمله عندها فلم يجد الجمل هناك ، فطار صوابه ، لأن كتاب خالد بن يزيد فى جيب الرحل فوق الجمل .. خبأه هناك حرصا عليه من راصد أو واش ، فضلا عن ان الجمل عزيز لديه ، وعليه عدته وثيابه والماء وكل شىء . فلما افتقده على تلك الصورة بغت ، ولكنه لم يفلت فرصة . فنظر فى آثار الجمل فوجد العقال محلولا حلا لا يدل على عنف ، فتبادر الى ذهنه انه لم يعقله عقلا متينا ، فانحـل

---

(١) ابن خلكان ــ الجزء الاول

العقال وانطلق سراح الجمل ففر .. فجعل يفكر فى الطريق الذى يمكن للجمل أن يسير فيه ، فلاح له انه يطلب المرعى

فمشى حسن يطلب الجمل ، وقلبه مضطرب وهو خائف ، لأنه غريب فى تلك البلاد . وبعد أن سار برهة ، وقف ونظر الى ما حوله من الغياض والبساتين والظلام حالك .. فتراءى له ظل بين النخيل ، فتفرس جيدا وأصغى بسمعه فسمع شخير جمل فطلب المكان ، فرأى ذلك الشبح يتباعد عنه ، فسار فى أثره وهو يتعثر فى الأعشاب والأحجار ونظره شاخص الى جهة الشبح ، لا يبالى هل هويسير على شوك أو يخوض فى بحر ، لفرط قلقه . ولو أتيح له أن يرى وجهه فى مرآة فى تلك الساعة لرأى عينيه محملقتين متسعتين ، وحاجبيه مرتفعين حتى تغضنت جبهته ، كأنه يريد أن يبتلع ذلك الشبح بعينيه . وما زال يمشى والشبح يمشى أمامه حتى خرجا من بين النخيل الى الفلاة ، فتفرس حسن فى الشبح من وراء الأفق فاذا هو جمله بعينه ، فسار فى أثره .. وكأن الجمل أجفل من شىء فجعل سيره طرادا ، وقد مد عنقه وبسط قوائمه ورفع ذيله ، وحسن يتبعه على غير هدى من الطريق ، ويناديه بكل عبارات الزجر ، والجمل لا يزداد الا هربا ، حتى توارى عن بصره وراء التلال . فظل حسن مندفعا بقوة الاستمرار ، وبرغبته فى القبض على الجمل حرصا على ما يحمله من أشياء ثمينة

– ٢٦ –

وادى القرى

وفيما هو يركض ويلهث ، اذا هو بشيخ يمشى وعليه لباس الرعاة عارى الرأس .. وقد غرس عصاه فى قفا طوقه وعليه عباءة قصيرة ، وخشونة البداوة بادية على وجهه مع شدة الظلام . فناداه حسن : « ياأخا العرب ، هل رأيت بعيرا راكضا من هنا ؟»

وما أتم حسن سؤاله حتى أسرع الرجل اليه وأمسكه بذراعه وضغط عليها ، وأشار بيده على فمه أن : « اسكت وانتظر » فالتفت حسن الى ما حوله ، فرأى شجرة كبيرة على أكمة والشيخ ينظر الى الشجرة ، ورأى هناك ظلا يتحرك ، فقال له حسن : « ما شأنك ؟ .. اخبرنى .. »

قال الشيخ : « لقد اتفق لى حادث غريب فى هذا اليوم مع رجل التقيت به ولم أعرفه ، فاذا أصغيت لى قصصت الخبر عليك على عجل ، ثم نذهب ونستطلع بقيته معا عند تلك الشجرة »

قال حسن : « ولكن اخبرنى قبل كل شىء ، هل رأيت جملا راكضا من هنا ؟ .. »

قال الشيخ : « نعم رأيته وأظنه طلب هذا الوادى ، ولاتخف عليه فانى ضامن لك رجوعه ، لأنى أعرف رجال هذا الحى وهم يعرفوننى .. والابل لا تزال سارحة هناك ، ولا خوف عليها باذن الله » ..

قال حسن : « وأى واد هو ؟ .. »
قال الشيخ : « هو وادى القرى »
قال حسن : « أليس هو مقام بنى عذرة المعروفين بشـــدة عشقهم وعفتهم ؟ » (١)
قال الشيخ : « بلى هو ، هو بعينه .. والحادث الذى جرى لى اليوم يكشف لنا عن حقيقة ما نســمعه عن هؤلاء ، أعرنى سمعك لأقص عليك الخبر .. »
فمال حسن الى سماع الحديث ، وأهل الغرام يميلون الى حوادث الغرام ، فقال الرجل :
ـ قضيت فى هذه الأودية معظم فصل الربيع وأنا أرعى ابلى فجاءنى فى أصيل هذا اليوم رجل طويل القامة منطو على رحله كأنه جان، فسَّلم علىَّ ثم قال : « ممن أنت يا عبدالله ؟ » فقلت : « احد بنى حنظلة » قال : « فانتسب » فانتسبت حتى بلغت الى فخذى الذى أنا منه . ثم سألنى عن بنى عذرة أين نزلوا ، فقلت له : « هل ترى ذلك السفح ، لقد نزلوا من ورائه » قال : « يا أخا بنى حنظلة ، هل لك فى خير تصنعه لى .. فوالله لو أعطيتنى جميع ما تسوق من هذه الابل ، ما كنت بأشكر منى لك عليه » فقلت : « نعم .. ومن أنت أولا ؟ » قال : « لا تسألنى من أنا ، ولا أخبرك غير انى رجل بينى وبين هؤلاء القوم ما يكون بين بنى العم .. فان رأيت أن تأتيهم فانك تجد القوم فى مجلسهم

---

(١) الاغانى

فتنشدهم ــ بكرة أدماء تجر خفيها عقلاء من السمة ــ فان ذكروا لك شيئا فذاك ، والا استأذتهم فى البيوت وقل ان المرأة والصبى قد يريان ما لا ترى الرجال . فاذا أذنوا لك فادخل بين البيوت وانشد أهلها حتى لا تدع أحدا تصيبه عينك ولا بيتا من بيوتهم الا أنشدت ذلك فيه » .. قال الشيخ : « فأتيت القوم فاذا هم على جزور يقتسمونها ، فسلمت وانتسبت لهم ونشدتهم ضالتى . فلم يذكروا لى شيئا ، فاستأذنتهم فى البيوت وقلت ان الصبى والمرأة يريان ما لا ترى الرجال .. فأذنوا ، فأتيت أقصاها بيتا ثم استقريتها بيتا بيتا أنشدهم فلايذكرون شيئا . حتى اذا انتصف النهار وآذانى حر الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لأنصرف حانت منى التفاتة فاذا بثلاثة بيوت ، فقلت فى نفسى : « ما عند هؤلاء الا ما عند غيرهم » ثم قلت لنفسى : « سوأة .. وثق بى رجل وزعم أن حاجته تعدل كل مالى ثم آتيه فأقول عجزت عن ثلاثة بيوت ؟ »

فانصرفت عامدا الى أعظمها بيتا فاذا هو قد أرخى مؤخره ومقدمه فسلمت فردوا علىّ السلام . وذكرت ضالتى ، فقالت جارية منهم : « يا عبدالله ، قد أصبت ضالتك وما أظنك الا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب » قلت : « أجل » قالت : « ادخل » فدخلت فأتتنى بصفحة فيها تمر من هجر وقدح فيه لبن والصفحة مصرية مفضضة والقدح لم أر اناء قط أحسن منه . فقالت : « دونك » فأكلت التمر وشربت من اللبن حتى ارتويت

فقلت : « يا أمة الله ، والله ما أتيت أكرم منك ولا أحق بالفضل ، فهل ذكرت من ضالتى شيئا » فقالت : « هل ترى هذه الشجرة فوق الشرف ؟ » قلت : « نعم » .. قالت : « فان الشمس غربت أمس وهى تطيف حولها ثم حال الليل بينى وبينها» فظننتى فهمت مرادها فقمت وجزيتها الخير، وقلت : «والله لقد تغديت ورويت» فخرجت وأتيت هذه الشجرة فطوفت بها فوالله ما رأيت أثرا ، فأتيت صاحبى فاذا هو متشح فى الابل بكسائه ورافع عقيرته يغنى ، قلت : « السلام عليك » قال : « وعليك السلام ، ما وراءك ؟ » قلت : « ما ورائى من شىء » قال : « لا عليك . فاخبرنى بما فعلت » فقصصت عليه القصة حتى انتهيت الى ذكر المرأة وأخبرته بالذى صنعت ، فقال : « قد أصبت طلبتك » فعجبت من قوله وأنا لم أجد شيئا

ثم سألنى عن صفة الاناءين والصفحة والقدح فوصفتها له ، فتنفس الصعداء وقال : « قد أصبت طلبتك ، ويحك » ثم ذكرت له الشجرة وانها تطوف بها فقال : « حسبك » ففهمت انها ضربت له موعدا للقاء عند هذه الشجرة بعد الغروب . فمكث حتى أوت ابلى الى مباركها ودعوته الى العشاء فلم يدن منه وجلس منى بمزجر الكلب . فلما ظن انى قد نمت رمقته فقام الى عيبة له فأخرج منها بردين ، فاتزر بأحدهما وارتدى الآخر ، ثم انطلق متجها نحو الشجرة (١) وهو الذى تراه جالسا هناك

---

(١) الاغانى ـ الجزء الثانى

بقرب جذع الشجرة ، وسنرى ما يكون من اجتماع الحبيبين .. »

- ٢٧ -

الهوى العذرى

ثم أمسك بيد حسن وشده نحو الأرض ، وجلس الرجل بين شجيرات وأشار اليه بدون أن يتكلم ، فرأى شبحا صاعدا من الوادى وعليه لباس النساء ومعه شبح آخر . فقال الراعى : «هذه هى الفتاة قادمة ومعها خادمتها ، ثم واختف لنرى ما يكون »

فانبطحا وزحفا حتى اقتربا من الشجرة ، واختفيا فى مكان بحيث يريان الاثنين ويسمعان ما يدور بينهما

وأول ما وصلت الفتاة الى موضع اللقاء ، كان الشاب فى انتظارها على مثل الجمر .. فلو كانت الليلة مقمرة أو كان الوقت نهارا لظهرت على وجه الشاب ملامح لايخلو وجه العاشق منها ؛ ولو كان على غير موعد من الحبيب .. فكيف وهو على مثل ذلك الموعد ؟ .. فأقبلت الفتاة وحدها ، فوقف لها الشاب وتقدم للقائها وهو يحسب نفسه فى خلاء وظلمة ، وقد كان قلب حسن فى أثناء ذلك يضرب ضربات متتابعة مخافة أن يرى من الحبيبين ما يخجله أو يهيج غيرته ، فندم على اصغائه للشيخ الراعى لما فى ذلك من استطلاع منكر لأسرار الناس ـ على انه أحس بميل شديد لمعرفة ما يدور بينهما ـ واستطلاع مثل هذه الأسرار مما تتوق

اليه النفس . والميل الى ذلك عام بين الناس على اختلاف طبقاتهم، وان تفاوتوا فى احترام تلك الأسرار والاغضاء عن استطلاعها خضوعا للآداب العامة

ولقاء الحبيبين على هذه الصورة ، تميل النفوس الى رؤيته — وبخاصة نفوس أهل الغرام — فلا عجب اذا اختلج قلب حسن واصطكت ركبتاه واقشعر بدنه ، ولم يكن سبب ذلك التأثر الا توقعه أمرا يخاف أن يراه ولايريد أن يفوته . ولكنه ما أن رأى الرجل واقفا لرد التحية حتى عرف من طول قامته وغنة صوته انه « جميل » الذى رآه فى أصيل ذلك اليوم فى مجلس سكينة . فتحقق حسن حينئذ ان الفتاة معشوقته « بثينة » لأنه كثيرا ما كان يسمع بما بينهما من أحاديث الغرام ، وكيف منعه أهلها منها وهو لا يزال يحبها حبا مفرطا وهى تحبه . وكان حسن يسمع بحب بنى عذرة وعفتهم ، ولكنه لم يكن يصدق ان مثل ذلك اللقاء فى ذلك الخلاء — على غفلة من الرقباء — يقتصر بين ذينك الحبيبين على القاء التحية

وكانت الفتاة مقنعة فجلست على حجر ، وجلس جميل على حجر لا يمس ثوبه ثوبها ولا يده يدها .. جلسا متقابلين ينظر أحدهما الى الآخر ولا يفوه بكلمة خارجة عن حدود المعاتبة والتشاكى ، لا يقولان فحشا ولا هجرا . فعجب حسن مما رآه من العفة الصادقة ، ثم سمع الفتاة تنادى خادمتها .. وكانت الخادمة فى مكان بعيد عنهما ، فجاءت وهى تحمل قصعة من

الطعام فجلسا يأكلان ويتحدثان ، فلما فرغا من الطعـام قالت بثينة : « بلغنى انك نظمت فىّ أشعارا ، فهل تحبنى ياجميل ؟»

قال جميل : « لا أدرى فى لغة البشر لفظا يعبر عما فى قلبى نحوك .. فانه أعظم من الحب ، وأشد من الغرام ، وأرقى من العبادة .. لا أدرى ما هو يا بثينة ، فاذا اكتفيت بتسميته حبا ، فانى لا أراه يعبّر عما فى قلبى »

قالت بثينة : « وكيف اذن ؟ »

قال جميل : « لا أدرى يا حبيبتى .. لا أدرى كيف هو ، ولا ما هو » ثم صعد الزفرات وقال : « وانما أعلم انك نصب عينى .. أينما سرت ، وحيثما جلست ، وكيفما نظرت .. ان بثينة أمام عينى أراها جسما واضحا ، وما عداها من الناس أراهم أشباحا أو ظلالا . ولايذكر اسمها أمامى الا اضطربت جوارحى، واقشعر بدنى ، وخفق قلبى ، ولا أرى لى راحة الا بالبكاء ، كأن الشوق نار والدمع ماء يطفئه .. حتى قلت :

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى»

— ٢٨ —

جميل وبثينة

فقالت بثينة : « اذا كنت أنت كذلك ، فكيف أنا .. ولكن جنس النساء محكوم عليه بالتعب والشقاء ، فلا تستطيع المرأة

أن تبث شكواها الى أحد لئلا يخدش عرضها . وأما أنتم معشر الرجال ، فلكم الحرية فى ذلك . وأنت تزعم انك تحبنى حبا تقول انك لا تدرى مقداره .. فمن بلغ حبه الى هذا الحد كيف يهجرحبيبه ولا يسأل عنه ؟.. ثم انى لاأعلم ما تسمعه ولا ماتقوله فى أثناء الغياب الطويل . ولا أدرى أين موقع بثينة مما يقع بصرك عليه من الناس » قالت ذلك بنغم االدلال فازداد جميل هياما ، وقال لها :

« انى لأحفظ غيبكم ويسرنى
اذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يوم لا أرى لك مرسلا
أو ألتقى فيه علىّ كأشهر
يا ليتنى ألقى المنيّة بغتة
ان كان يوم لقائكم لم يقدر
لا تحسبى انى هجرتك طائعا
حدث لعمرك رائع أن تهجرى
يهواك ما عشت الفؤاد ، وان أمت
يتبع صداى صداك بين الأقبر »

فما تماسكت بثينة عند سماعها قوله ، وقد غصّت بريقها ، ثم قالت : « وهل أنت ناظم هذين البيتين :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بوادى القرى انى اذا لسعيد

وهل ألقين فردا بثينة مرة
تجود لنا من ودها ونجود »

قال جميل : « نعم »

قالت بثينة : « وما الذى ترجو أن نجود به ونحن بنو عذرة ؟ »

قال جميل : « لا أطمع منك بغير الحديث والنظر ولو كان من وراء نقاب ، على حد قول القائل :

لا والذى تسجد الجباه له
مالى بما تحت ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها
ما كان الا الحديث والنظر » (١)

فأطرقت بثينة خجلا ، ثم قالت : « ذلك عهدنا بجميل .. ولولا ذلك ما رأيتنى أسعى اليك وحدى »

فلا تسل عن دهشة حسن والراعى مما رأياه ، حتى احتقر حسن نفسه لأنه لم يكن يظن اذا التقى بسمية انه يستطيع ما استطاعه جميل ..

قضى جميل وبثينة ساعة فى مثل ذلك ، ثم نهضت هى فودعته أحسن وداع ، فودعها مثل وداعها .. وانصرف كل منهما الى ناحية ، وكل منهما يمشى خطوة ثم يلتفت الى صاحبه (٢)

فلما توأريا نهض حسن من بين الأعشاب وهو ذاهل ، وقال للرجل : « لقد شاهدت منظرا طالما تاقت نفسى لمشاهدته .. انه

---

(١) المستطرف ـ الجزء الثانى (٢) الاغانى ـ الجزء الثالث

منظر يخجل منه كل ضعيف النفس دنىء الطبع .. ان العفة يا أخا العرب ليس فى الفضائل خير منها »

فقال الشيخ وهو ينقر بعصاه على عباءته لينفض عنها التراب : « كيف لا وقد سمعت ابن عباس رضى‌الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عشق فعف فمات ، فهو شهيد » وقال أيضا : « عفوا تعف نساءكم » (١) .. »

فقال حسن : « صدق رسول الله ، ولذلك فان بنى عذرة كلهم شهداء .. فقد بلغنى مثل ذلك عن كثير من عشاقهم ، ولكننى لم أصدق حتى رأيت ذلك رأى العين »

* * *

ثم انتبه حسن لما هو فيه من ضياع الجمل وحال صديقه سليمان من الجرح والألم ، فقال للراعى : « أين الجمل يا أخا العرب فقد وعدتنى باحضاره ؟ »

قال الراعى : « انتظرنى هنا ريثما آتيك به » قال ذلك ومضى حتى انحدر فى الوادى ، وتوارى ــ بعد قليل ــ عن النظر ، وظل صوت الأحجار المتدحرجة من أثر وقع قدميه برهة . ثم ساد الصمت ، فجلس حسن تحت الشجرة ، ولبث ينتظر عودة الشيخ وقد استوحش المكان

---

(١) المستطرف ــ الجزء الثانى

- ٢٩ -

العقيــق

ولما خلا حسن بنفســه تحت تلك الشجرة اصطلحت عليــه هواجسه وأخذ فكره يستعيد ما شاهده فى ذلك المساء ثم ينتقل به الى سمية وحاله معها . فتذكر خادمه عبدالله وتأخره ، ثم انتقل الى سليمان وأبيه ، وعاد الى الجمل وعليه كتاب خالد فرأى أنه أهمل فى البحث عنه ببقائه هناك لمشاهدة لقاء الحبيبين . ولكنه علم انه انما فعل ذلك بالرغم منه ، ولو لم يطع الشــيخ الراعى وظل فى مسيره لما وجد الى جمله سبيلا لأنه يجهل تلك البقاع ولا يعرف طرقها

وبينما هو يفكر فى ذلك ، والظلام حوله حالك ينشر أستاره على الأكام والأودية المحيطة به ، فلا يستطيع أن يرى الا ظلالا ضعيفة ، اذ سمع خربشة بين الأعشاب فوقف بغتة ، ثم انتبه الى أنها خربشة ذئب سارح فلم يلتفت اليه .. وظل واقفا وقد تزايد قلقه لتأخر الراعى ، وود اللحاق به .. ولكنه خشى أن يختلفا فى الطريق ..

ولما طال انتظاره ، ملّ الوقوف هناك .. فمشى على غير هدى وهو لايخشى أن يضل الطريق لأن الشجرة تهديه الى المكان ولو عن بعد . وجعل مسيره الى جهة الوادى الذى سار اليه الراعى

فى أثر الجمل ، وهو يتوقع أن يلتقى بالشيخ أثناء عودته أو يسمع جعجعة الجمل عن بعد أو يعود الى مكانه .. ولذلك فانه كان كلما مشى بضع خطوات التفت الى الشجرة مخافة أن تتوارى عن بصره وراء بعض التلال ، فمشى مسافة طويلة لم يسمع فى أثنائها صوتا ولا رأى شبحا ، ثم نسى أمر الشجرة فانحدر فى الوادى وهو يتلمس الأرض ولا يرى الطريق .. فتارة كانت تنزلق قدمه وطورا ترتطم أصابعه ، من فوق النعال ، بجذور الأعشاب الباقية بعد المرعى ، وهو بين أن يحملق نحو الوادى بعينيه أو يصيخ بأذنيه أو يتفرس فى الطريق بين يديه . فلما طال به المسير ولم يهتد الى شىء ، ندم لمغادرته مكانه

على انه لم يمض وقت طويل ، حتى سمع نباح كلاب فى الوادى فالتفت الى جهة الصوت فرأى نورا ضئيلا ، فسار نحوه واذا بالصوت يتعاظم كلما اقترب حسن من النور ، فعلم انه على مقربة من بعض قرى ذلك الوادى « وادى القرى » ، وفيه قرى كثيرة [1] منتشرة فى بطنه وعلى جانبه . ولكنه استغرب النباح فى الليل لعلمه ان ذلك لا يكون الا اذا طرق الحى غريب أو لص ، فوقف ليستريح ويفكر فى أمره ، فالتفت الى ما يحيط به فاذا هو فى واد بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش .. ولكنه استأنس بتلك النار على بعدها فتابع سيره نحوها فرأى شبحا يعدو صاعدا من الوادى كأنه غزال نافر ، فلما اقترب منه

---

(١) مراصد الاطلاع

علم انه الراعى واستغرب مجيئه وحده فصاح فيه : « ما وراءك يا أخا العرب ؟.. أين الجمل ؟ » ..

فقال الراعى : « ما الذى جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال حسن : « جاء بى قلقى على الجمل ، وأنا كما قلت لك فى عجلة لأسباب هامة »

قال الراعى : « وما الفائدة من انحدارك الى هـذا الوادى والليـل دامس وأنت لا تعرف الطريق ، وقد تعرضت للخطر بمجيئك الى هذا الحى ليلا ، فان الكلاب اتنبهت لك فنبحت ، وأما أنا فان الكلاب ألفتنى لكثرة ترددى على هذه القرى »

فقطع حسن كلامه قائلا : « ما لنا ولهذا ، قل لى أين الجمل ؟ »

قال الراعى : « لم أعثر عليه فى المكان الذى كنت أظنه فيه ، والظاهر انه قصد مكانا آخر .. وقد كنت ذاهبا للبحث عنه فى العقيق بجوار المدينة بدون ان أطلعك على الأمر »

فاستعاذ حسن بالله ، وقال : « يالله .. ما هذه المصيبة ؟ .. »

فابتدره الراعى قائلا : « لا تخف ياسيدى ، ان الجمل لايضيع ولو غاب عنك طويلا .. فان أهل البادية يرسلون ابلهم المرعى وقد لا يرونها أياما ثم تعود بنفسها أو يعود بها غلام أو فتاة . وقد كان ذلك شأننا فى زمن الجاهلية ، فما بالنا ونحن الآن فى ظل الاسلام ، وأما أنتم يا أهل المدن ، فان الرجل منكم اذا غفل عن عمامته خاف اختطافها ! »

وملّ حسن جدال الراعى ، فقال له : « ما لنا ولهذا الجدال ..

أين الجمل ، وكيف السبيل اليه ؟ »

فقال الراعى : « يغلب على ظنى انه سار الى العقيق ، وهو ماء يخرج أهل المدينة اليه فيقيمون عنده ساعات أو بضعة أيام فى خيام يحملونها معهم وربما ذبحوا الذبائح وأولموا الولائم »

فقطع حسن كلامه قائلا : « فهمت .. ثم ماذا ؟ »

قال الراعى : « فالعقيق مجتمع أهل الرخاء من اليثربيين ، وهو يذكّرنى بأيام الشباب.. فقد كان العقيق موعدنا للقاء نساء المدينة . لا تغضب يا سيدى ، اننا سنسير الآن جنوبا نحو المدينة .. والعقيق فى طريقنا اليها »

— ٣٠ —

اقتفاء الأثر

فاستغرب حسن بعده عن المدينة من جهة الشمال ، وعلم انه صار على مسافة بعيدة من المكان الذى ترك سليمان وأباه فيه . فقال الشيخ : « هلم بنا اذن » فمشيا ، والراعى مع شيخوخته أسرع عدوا من حسن لأنه تعود المشى فى الوعر . أما حسن فلما صعد من ذلك الوادى والتفت الى السماء وتبين الكواكب ، علم انه فى أواخر الليل .. فبغت لضياع الوقت وهو لم يعمل عملا بعد ، وتشاءم مما أصابه فى ذلك المساء ، وهو انما أمسك عن رؤية حبيبته رغبة فى المسير الى مكة على عجل .. فكيف بعد

قضاء الليل كله فى المشى والقلق يعود الى الوراء ؟!

قضى زمنا وهو سائر فى أثر الراعى على أرض أكثرها من الرمال ، وبعضها رطب بما يرشح فيه من الماء ، وفكره تائه فى أمثال هذه الهواجس حتى رأى نجم الصبح قد طلع فعلم ان الفجر قد دنا ، ثم رأى الراعى يقف وهو يشير اليه قائلا : « ألا ترى الماء أمامنا عن بعد ؟ »

قال حسن : « انى أرى سطحا لامعا ، وكأنى أرى فيه سماء أخرى من انعكاس أشعة الكواكب »

ولما رأى حسن الماء ، شعر بانشراح الصدر ، واستبشر ببلوغ أمنيته ، وجعل يتفرس فى ضفاف ذلك الماء لعله يرى أناسا أو جمالا فلم ير شيئا . ثم سمع الراعى يقول : « اننا الآن على ضفاف العقيق .. ولسنا نرى شيئا سوى آثار أناس كانوا هنا ورحلوا فى أوائل الليل .. فاجلس على هذا الحجر واغسل رجليك فى هذا الماء ، واسترح ريثما آتيك بالخبر »

قال حسن : « دعنى أنطلق معك »

قال الراعى : « لا .. امكث عندك واغسل رجليك ، وأنا أعود اليك على عجل ، فانى لا أتثبت من الأمر حتى أطوف حول هذا الماء .. فلا حاجة الى مسيرك معى ، ولاشك انك تعبت برغم انك فى عنفوان الشباب ، لأن أهل المدن لايقوون على السير مثلنا »

قال ذلك والتحف العباءة ، وسار وحسن يتبعه بنظره حتى توارى . فعاد حسن الى هواجسه ، ولكنه ما لبث أن سمع

الشيخ يناديه ، فنهض وأسرع حتى دنا منه .. فاذا هو واقف تحت شجرة منبسطة الأغصان وقد قبض بيده على شيء ، وهو يقول : « متى خرجت من المدينة ؟ .. »

قال حسن : « عند الغروب » ..

قال الراعى : « هل أطعمت الجمل قبل خروجك ؟ »

فتحير حسن بماذا يجيب ، لأنه كان قد عهد بأمر الجمل الى خادمه ، فقال : « أظن ان الخادم أطعمه »

فبسط الشيخ يده فاذا فيها أبعار ، فقال : « ان هذه الابعار لجمل من جمال المدينة جاء وحده الى هذا المكان من مدة قصيرة ورجع » ..

فاستغرب حسن حكمه فى الأمر ، وقال : « وكيف عرفت ذلك ؟ .. »

قال الراعى : « عرفته من هذه الأوساخ ، فان فيها النوى وهو علائف جمال المدينة .. فالنوى كثير عندهم . ويظهر من قلة جفافها ، انها وضعت من عهد قريب . ولم أر واضعها ، فلا بد انه عاد .. »

فوجد حسن كلامه معقولا ، ولكنه لم يقتنع بأن الجمل الذى يشير اليه هو جمله .. اذ لا يبعد أن يكون جمل أناس آخرين ، فقال له : « وما الذى ينبئك انه جملى ، وليس من جمال أناس مروا بهذا المكان الليلة ؟ »

فضحك الشيخ ، وقال : « لو كانت أبعار الجمال كثيرة لرأيناها

أصنافا وألوانا .. فاذا اقتنعت انها لجمل واحد ، قلت لك ان هذا الجمل لم يقم هنا الا قليلا . وأى جمل من جمال أهل المدينة يخرج الى هذا المكان بعد منتصف الليل الا أن يكون هاربا مثل جملك .. ؟ »

فأعجب حسن ببداهة أهل البادية ، وتذكر شهرتهم فى اقتفاء الأثر ، ولكنه ظل فى شك من أن يكون ذلك الجمل جمــله ، فقال : « لا أرى ما يمنع من أن أحد أهالى المدينة خرج الليلة على جمله يلتمس بعض الأحياء ، فمر بالعقيق ليشرب أو يسقى جمله أو يستريح »

قال الراعى : « قد يكون ذلك ، ولكن فى غير ما أراه من حال هذا المكان ، لأنى لا أرى على الأرض آثار خطوات لانسان ... »

فقطع حسن كلامه ، وقال وهو يظن انه سيفحمه : « الظاهر ان الراكب لم ينزل عن جمله ، وانما وقف ريثما يشرب الجمل ثم ساقه » ..

فقال الراعى : « لا يمكن للجمل أن يقف تحت هذه الأغصان المدلاة وعليه راكب لأنها تمس ظهر الجمل بانبساطها وانحنائها وليس عليه أحد »

قال حسن : « وربما برك الجمل ... »

قال الراعى : « لو فعل لشاهدنا آثار ركبه .. فما الجمل الذى مر من هنا الا جملك ، واذا صبرت هنيهة أريتك الطريق الذى سار فيه فيهون عليك طلبه »

قال حسن : « وكيف ذلك ؟ » وكان الفجر قد لاح وظهرت الأرض جيدا ، فنظر حسن الى ما حوله وراجع ما قاله الشيخ ، فترجح لديه قوله وتحقق مما كان يسمعه عن مهارة أهل البادية فى اقتفاء الأثر ، فلبث ليرى ما يفعله الشيخ .. فاذا هو قد مشى خطوات قليلة ، ثم قال : « انظر الى هذه الخطوات فانها آثار خفاف جمل يعدو عدوا سريعا كأنه يسير طرادا .. يدلك على ذلك عمقها وعدم نظامها .. ويظهر لى ان الجمل عاد الى المدينة »

— ٣١ —

وجدناه ضائعا

فالتفت حسن الى يساره ، وقد بان الصبح ، فاذا هو مشرف على المدينة عن بعد . ولم ير بدا من الذهاب اليها .. فتذكر حبيبته فيها ، ولكنه عاد الى التفكير فى أمر الجمل ، فقال : « انى لأعجب لما رأيته اليوم من جملى ، ولم يكن عهدى به مثل ذلك من قبل » ..

قال الراعى : « للجمال طباع غريبة.. فقد يكون الجمل هادئا ساكنا فلا تراه الا وقد دلق لسانه وأرغى وأزبد وركن الى الفرار كأنه أصيب بجنّة ، وقد يصيبه ذلك على أثر خوف أو رعب أو جوع . ومهما كان من الأمر ، فاطلب جملك فى المدينة . وأما أنا فانى أستأذنك فى العودة الى ماشيتى مخافة أن يكون قد أصاب

ابلى ما أصاب جملك ، وهى وحدها ليس معها سوى غلام وأمه تركتهما أحراستها » ..

* * *

فأثنى حسن على الشيخ وودعه ، وســار يلتمس المدينة وقد أنهكه التعب والقلق وأحسَّ بالجوع.. وتشاءم مما اتفق له ، فعزم على أن يسير توا الى المسجد للصلاة وليلتمس البركة ، وبعدئذ يبحث عن الجمل ، ثم تذكر حديث سليمان وأبيه وما فيه من الاشارة الى الفتك به .. فمال الى استطلاع سر والد سليمان قبل أن يدخل المدينة لئلا يكون ثمة ما يمنعه من دخولها ، فسار يلتمس المكان الذى تركهما فيــه بالأمس .. فأشرف على أكمة قرب سور المدينة ، فرأى قرب المستنقعات شيئا كالجمل البارك، ثم ما لبث أن سمع جعجعة فأسرع حتى دنا من الجمل فاذا هو جمله بعينه .. وقد وقع عند حافة المستنقع وكسر فخذه ولم يعد يستطيع النهوض ، ولكنه رآه عاريا لارحل على ظهره ولا خطام فى رأسه ، فشك فى أن يكون جمله ، وظنه جملا آخر يشبهه فتفرس فيه جيدا فلم ير فرقا بينه وبين جمله ثم تذكر ميسمه ، وهو العلامة التى يسمون بها الجمال بسمات القبائل ، فنظر فى الميسم فاذا هو الميسم الذى يعرفه فتحقق انه جمله وانه لم يعد يقوى على المسير فلم يهمه ضياعه ، وود لو أن الراعى رافقه الى هناك ليهبه الجمل فينحره لأهله .. ولكنه فكر فى الرحل وما كان عليه وما فى جيبه ، وخصوصا كتاب خالد بن يزيد ، فزاد تشاؤمه من تلك السفرة ، وقال فى نفسه : « لم يعد لى شىء أبغيه فى المدينة

الآن » ووقف برهة ثم مشى نحو الجهة التى ترك فيها سليمان مطروحا ووالده بجانبه ، فرأى المكان خاليا الا من آثار الدم على صخر منبسط ، ورأى بجانب الصخر ثوبا معفرا فرفعه ، فاذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعا قطعا فعجب لتمزقه.. فطرح بقاياه وفكر فى أمر سليمان والكتاب ، فقال فى نفسه : « لعل والد سليمان عثر على الجمل وهو سائر الى المدينة ، فلما رآه مصابا حمل رحله معه على نية أن يدفعه الىَّ عند اللقاء» فارتاح حسن الى تلك الفكرة وهدأ اضطرابه ، وبدا له أن والد سليمان حمل ابنه الى منزله فى المدينـــة لعلاجه ، فعوَّل على الذهاب اليه ..

* * *

وفيما هو يسير نحو المدينة ، رأى غبارا يتطاير فى عرض الأفق مما يلى طريق مكة ، فوقف برهة ، فاذا به يرى ثلاثة من الابل عليها ثلاثة رجال قد تلثموا وساقوا الهجن سوقا عنيفا ، ثم سمع قرقعة اللجم فعلم انها ابل البريد .. [1] اذ كان لدواب البريد قعقعة خاصة ، كأن ارسانها من سلاسل الحديد ، أو لعلهم كانوا يعلقون فى أعناقها جلاجل أو نحوها .. فمكث هنيهة ريثما يمر البريد ، فعلم من لباس الرجال ومظهرهم انهم من العراق وان هذا البريد هو بريد الحجاج بن يوسف الى عامل المدينة

---

(١) الفخرى

- ٣٢ -

سليمان وأبوه

فلما مر البريد ، سار هو فى أثره يلتمس بيت سليمان من أقرب الطرق فوصل اليه بعد زمن قصير ، فاستفهم عن سليمان.. فقيل له انه مريض ، فتحقق انه هناك ، فاستأذن وأقبل على حجرة رأى فيها سليمان متوسدا وأبوه الى جانبه ، فخلع نعليه بالباب ودخل ، فوقف له والد سليمان ورحب به . وأراد سليمان النهوض فأمسكه وأجلسه ، وجلس على طرف الفراش الى جانبه ، وجعل يسأله عن حاله فقال له انه أحسن كثيرا وان الفضل فى شفائه يرجع اليه . فقال حسن : « ولا أظن ان المصيبة جاءتك الا على يدى »

فقال سليمان : « أشكر الله لأنه نجاك من هذا الخطر أيضا »

فتقدم والد سليمان للحال ، والدمع ملء عينيه ، وقبّل حسنا وقال له : « الا غفرت زلتى يابنى ، فان الله قد هددنى بالقصاص بموت ابنى ووحيدى ، ولكننى أشكره على السلامة ، ولأنه أكسبنى ابنا آخر .. »

فنظر حسن الى ذلك الكهل ، فاذا هو على ما وصفناه من طول القامة ونحافة العضل وقصر اللحية وصغر العمامة .. ولكنه رأى فى وجهه دلائل السويداء وانقباض النفس ، فكان اذا

ابتسم فانما يبتسم تكلفا ، واذا ترك ساعة أو ساعات ظل صامتا لايتكلم ، كأنه يفكر فى مصاب يحدق به

ثم سأله سليمان ووالده عن سبب غيابه ، فقص حسن عليهما الحديث مختصرا ، وكان يتكلم ووالد سليمان يصغى اليه وهو مثبت بصره فيه ، وكأنه لم يعره كل انتباهه . فلما جاء على آخر الحديث ، وذكر العثور على الجمل وضياع الرحل ، قال : « فلما رأيت جملى بلا رحل على مقربة من المكان الذى كنا فيه ، ظننتكم عثرتم على الجمل ورأيتموه مصابا فحملتم رحله معكم لتحفظوه لى .. فهل صادف ظنى مكانه ؟ »

قال والد سليمان : « كلا يا ولدى ، فاننا عدنا فى الليل ولم نلتفت يمنة ولا يسرة لانشغال بالنا بجرح أخيك سليمان .. وأنت هل وصلت الى المكان الذى كنا فيه ؟ »

قال حسن : « نعم وصلت اليه فرأيت أثر الدم ، ووجدت القباء ممزقا وعليه جلطات الدم ، فعجبت لتمزيقه »

فقال الرجل : « لا تعجب يا ولدى لتمزيقه لأنه مزق قلبى فانتقمت منه فاعذرنى ، ولو كان قباءك »

فاستغرب حسن ذلك ، وقال له : « أتوسل اليك أن تقص علىَّ خبر هذا القباء .. »

فقال والد سليمان : « اعفنى من خبره ، واقنع بما قلته ولو تلميحا » ..

قال حسن : « وماذا قلت ؟ »

قال والد سليمان : « ألم أقل ان هذا القباء هو الذى مزق قلبى لأنه كان دليـــلى الى الفريسة المطلوبة ، فاذا هى ولدى وفلذة كبدى » ..

- ٣٣ -

انكشاف الحقيقة

ففطن حسن لأمور كثيرة كانت موضع الشك عنده ، وتذكر انه ليس من يعلم بوجود ذلك القباء معه غير عمه عرفجة لأنه أخذه من عنده ولم يلبسه قط ، فاكتنفته الشكوك وتناوبتـــه الهواجس ، وظل برهة صامتا لايتكلم .. ثم قال : « الا تقول لى من ذا الذى أمرك بقتلى ؟.. أرى أن تقول لى لئلا أتهم اناسا أبرياء .. قل ولو اجمالا »

قال والد ســـليمان : « اعلم يا ولدى انى أمرت من أعظم رجل فى هذه المدينة ، وهو صاحب السلطان الأقوى فيها »

ففهم حسن انه يقصد عامل المدينة طارق بن عمرو ، وكان يعلم بما بين طارق وعرفجة من روابط الود . فتراءى له ان لعمه هذا دخلا فى هذه الخيانة ، لكنه كتم ما فى نفسه وعول على الصبر حتى يفرغ من مهمته الى مكة

وأراد سليمان أن يزيل الانقباض عن صديقه ، فقال لأبيه : « كيف رأيت هذا الصديق يا والدى ؟ »

فتنهد أبوه وحاول الابتسام ، وهو يقول : « لم أكن أشك فيما قلته لى ، ولكن سوء حظى ساقنى الى ما ارتكبته .. ولكنى أحمد الله على نجاتنا من هذا الخطر » ثم التفت الى حسن ، وقال : « وأما انت فأعتذر اليك لتعمدى قتلك دون أن أعرفك ، ولا أظننى دفعت الى ارتكاب ذلك الا بما جنيته من الذنب برجوعى عن المطالبة بدم ذلك المقتول ظلما » قال ذلك وشرق بريقه ، فسكت برهة وحسن ينظر اليه ويعجب . ثم عاد والد سليمان الى الكلام فقال : « كنت من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن الحسين رحمه الله حتى قتل ظلما فى سهل كربلاء ، ولكننى لم أثبت على توبتى ، فانتظمت فى خدمة الذين قتلوه .. ولا ريب ان عملى هذا لم يرض الله سبحانه وتعالى .. فما علىَّ الآن ــ تكفيرا عن ذلك ــ الا تكريس ما بقى من حياتى لنصرة أعدائهم . وقد بلغنى انك فى طريقك الى مكة ، فهل ترى فى صحبتى لك نفعا ، والا فانى سأعيش هائما على وجهى فى هذه الصحراء » ..

فقال حسن : « اذا رافقتنى فانى آنس بك وأتخذك والدا لى لأن سليمان أخى ، ولكن أرى أن ... » وسكت كأنه أراد أن يتكلم وأسكته الحياء

فقال والد سليمان : « تكلم يابنى ولا تخف فانى بمنزلة أبيك ، بل أنا خادم لك ، ولا أستنكف من عمل أؤديه لخدمتك .. قل ما بدا لك » ..

قال حسن : « اذا كنت ترى ان تتفضل علىَّ وتعاملنى معاملة الوالد لولده ، فان لى عندك مطلبا يخجلنى أن أكلفك به »

قال والد سليمان : « لا تخجل يابنى .. قل »

قال حسن : « أحب فتاة فى هـذه المدينة ، وقد خطبتها ، وأنا مضطر للسفر قبل العقد عليها . ولا يخفى عليك ما يتأرث فى قلب مثل قلبى فى هذه الحال »

قال والد سليمان : « نعم .. ماذا تريد منى ، هل تريد أن أكرس نفسى لخدمتها ؟ »

قال حسن : « كلا ، فانها فى بيت والدها .. ولكننى قليل الثقة بمن حولها »

قال والد سليمان : « من هى هذه الفتاة ، ومن هو والدها ، أتقول لى ؟ » ..

فوجم حسن برهة ، ثم قال : « اذا لم يكن بد من أن أبوح لك باسمها ــ ولا أرى بدا من ذلك ــ فأخبرك انها سمية ابنة عرفجة الثقفى »

فلم يتم حسن قوله حتى بهت والد سليمان وامتقع لونه ــ أو زاد امتقاعا ــ وأطرق ، وصارت لحيته ترقص على صدره ، وكان حسن يلاحظه وقد أدرك ماجال فى خاطره . وجعل والد سليمان يهم بالكلام ثم يمسك نفسه ، لأنه كان يرى عرفجة يتردد على مجلس طارق يتحدثان ويتساران ، وعرفجة مشهور فى المدينة بخيانته وسوء نيته

أما حسن ، فلم يمهله ريثما يتكلم ، فابتدره قائلا : « لست أطلب اليك أن تطلعنى على شيء تظنه سرا ، فقد فهمته وهـذا يكفى . أما الفتاة فانها خطيبتى ، والعهد بيننا شديد الوثاق لايمكن أن يثنيها أو يثنينى شيء . وانما أرغب اليك أن تحاول البحث عنها والاستفهام عن أحوالها ، وهذه هى وصيتى اليك ، فاذا قبلتها كان ذلك فوق ما أتمناه »

فقال والد سليمان : « أنا على ما تريد ، واعلم انى أهتم بهذا الأمر اهتمامى بولدى هذا .. كن فى سكينة وراحة بال »

فلما فرغ حسن من أمر سمية ، عاد الى التفكير فى الكتاب والخادم ، فتبادر الى ذهنه انه ربما لقى خادمه فى المدينة فيساعده على البحث عن الكتاب ، وعزم اذا لم ير الخادم ان يسير بنفسه ويكتفى بأن يبلغ الأمر لعبد الله بن الزبير شفويا ويرى مايكون ، فنهض واعتذر بعزمه على السفر . فقال له والد سليمان : « اذا لم يكن بد من سفرك ، فاجعله من غير الطريق الذى سلكناه أمس .. اخرج من باب آخر ، وأنا أرسل معك خادمى يهديك الى الطريق ويسوق جملك بدلا من خادمك ، وأقدم لك جملا أحسن من جملك .. فانعم بالا وكن على ثقة بأننـا ــ أنا وسليمان ــ فى خدمتك حتى تحقق أمنيتك» . ثم نادى : «بلال» فجاء عبد خفيف السواد حسن الملامح كأنه مولد ، وما هو زنجى بحت ، لتناسب أعضاء وجهه ، فقال له : « هيىء الجمل الأشرم ، واملأ القرب ماء ، واعدد زاد السفر» . فذهب بلال ثم عاد وقد

أعد كل شيء ، فقال والد سليمان لحسن : « اذا كان لابد من سفرك ، فسر على عجل ولاتقف ولاتسترح حتى تبعد عن المدينة»

فقطع حسن كلامه قائلا : « وقد فاتنى أن أخبركم عن ابل البريد ، فقد رأيت ثلاثة منها دخلت المدينة فى هذا الصباح ، وأظنها قادمة من مكة .. »

قال والد سليمان : « لا يبعد انهم جاءوا بطلب نجدة أو مدد أو خبر فتح أو غير ذلك ، وعلى كل حال فانى سأنتقل من هذا البيت الى سواه ، وأختفى يومين أو ثلاثة حتى لايرانى أحد لئلا يطلبونى للمسير معهم .. »

ثم ودعهم حسن وركب الجمل ــ وسار بلال فى ركابه ــ وكان حسن يود أن يرى سمية قبل سفره ، ولكنه أراد العجلة خشية الوقوع فيما هو شرٌ من ذلك ..

— ٣٤ —

سمية فى منزل سكينة

فلنترك حسنا فى طريقه الى مكة مع بلال ، ولنعد الى المدينة لنرى ما كان من أمر سمية بعد سفره .. فقد تركناها أثناء رجوعها الى بيت سكينة ومعها عبد الله خادم حسن يسير فى خدمتها . فلما وصلا الى باب البيت ، قالت له سمية : « قد وصلت الى مأمنى ، فانصرف» وكانت قد استأنست به لأنه ثقفى

مثل والدها ، فلما ودعها للانصراف ، قالت له : « قد علمت ياعبد الله منزلة حسن منى ، فاسهر على سلامته ، وكن صادقا فى خدمته »

فقال عبـد الله : « انى عبدك وعبده يامولاتى .. ثقى انى أفديكما بروحى »

فاطمأنت سمية ، وأشارت برأسها اشارة الوداع ، فتحوّل عبد الله مسرعا يلتمس باب المدينة ليتبع سيده

أما سمية ، فانها أقبلت على باب سكينة ، وحوله الدواب ، والخدم لايزالون هناك .. فتظاهرت بأنها كانت فى أحد جوانب المنزل ، وسارت الى مجلس سكينة وفيه ليلى وغيرها ، فرحبت سكينة بها وسألتها عن سبب تأخرها . فقالت : « كنت منشغلة فى بعض الغرف هنا » فقالت لها ليلى : « قد بحثنا عنك فلم نجدك ، ألا تظنى ان والدك يستبطئك ؟ »

قالت سمية : « ربما استبطأنى ، ولكننى هنا فى مأمن من غضبه .. ومتى استبطأنى بعث فى أثرى »

فلما سمعتها سكينة تقول ذلك أمسكتها بيدها وجرتها الى جانبها حتى أجلستها معها على الوسادة ، وضمتها وقبلتها وقالت لها : « أهلا بك يا سمية ، انك من أعز الأحباء » وكانت سكينة تستلطف سمية وتحبها وتغار عليها

فقالت سمية : « لا حرمنـا الله من محبتك يا بنت سـبط الرسول .. ان اقامتك فى هذه المدينة بركة وسعادة لنا جميعا »

ثم جاء الخدم يدعون سكينة الى المائدة وقد مد السماط ــ

كما جرت العادة ـ فقاموا للعشاء . وأما سميـة فعادت الى هواجسها ، وأدهشها سكوت والدها عنها الى ذلك الحين . ثم خطر لها انه غائب عن البيت وهو يحسبها فيه.. فرأت أن تستأذن سكينة فى من يوصلها الى البيت ، فأذنت لها وبعثت معها احدى الجوارى ..

وصلت سمية الى باب البيت فقرعتـه قرعة يعرفها الخدم ، فأسرعت جارية الى فتحه واستقبلت سـيدتها ، وهى تقول : « لقد أبطأت علينا الليلة وشغلت بالنا » وكانت تلك الجارية حبشية الأصل اسمها أمة الله ، وكانت تحب سمية كثيرا وسمية تأنس بها وتكرمها .. فلما أبطأت فى تلك الليـلة انشغل بال الجارية كثيرا ، ولم تستطع نوما .. فلما طرقت سمية الباب ، كانت هى أول من سمعه

فلما دخلت سمية ترامت أمة الله عليها وقبلتها ورحبت بها ، فقالت لها سمية : « ألم يأت والدى ؟ »

قالت الجارية : « جاء عند الغروب ودخل الحجرة المعروفة ، وأقفل الباب عليه ، وهو لايزال هناك .. ولا يدرى أحد ماذا يعمل لأنه أنار السراج وحمله بيده الى الغرفة كما جرت العادة»

فدخلت سمية غرفتها وخففت ثيابها ، لتوهم والدها اذا رآها انها فى البيت منذ مدة طويلة . ولم تستغرب بقاءه فى تلك الحجرة طويلا ، لأنه كثيرا ما كان يفعل ذلك وأهل البيت يستغربون تكتمه ، ولا يعرفون ما فى تلك المحفة الموضوعة هناك . ولولا

خوفهم من غضبه واستبداده لعمدوا الى فتحها ، ولكنهم كانوا يخافون سطوته لظلمه وقسوته

فرأت سمية أن تلجأ الى الفراش وتنام قبل خروج والدها من مخبأه ، مخافة أن يراها ويسألها عن سبب غيابها .. وربما أساء الظن بها ، فجلست على فراشها واستدعت أمة الله لتمشط شعرها قبل النوم ، فجثت الجارية وراء ظهرها وجعلت تسرح الشعر وتمشطه ، وسمية مستقبلة باحة الدار بوجهها . وكانت سمية ترتاح الى محادثة أمة الله فى بعض الشئون الخاصة ، فقالت لها : « هل شغل بالكم غيابى الليلة ؟ »

قالت الجارية : « نعم يامولاتى وبخاصة لأنك قلما تطيلين الغياب ، ولا سيما بعد أن جاء عبد الله للسؤال عنك »

قالت سمية : « وأى عبد الله ؟ »

قالت الجارية : « الرجل الذى جاء فى صباح هذا اليوم ... »

فعلمت سمية انه عبد الله خادم حسن ، فبغتت لعلمها انه فارقها مستعجلا اللحاق بسيده ، فأدارت وجهها الى الجارية وقالت لها : « متى جاء ؟ »

قالت الجارية : « جاء قبل وصولك بقليل »

قالت سمية : « وهل جاء وحده ؟ »

قالت الجارية : « لم أرَ معه أحدا » ..

ففكرت سمية فى الأمر ، فوجدت انه جاء بعد أن فارقها بساعة أو ساعتين .. فتبادر الى ذهنها انه لم يأت الا لأمر ذى بال ،

اما لغرض أراده حسن منها ، واما لشر أصابه . فتوالت علبها الهواجس واستغرقت فى الأفكار ، وعادت الجارية الى تمشيط شعرها وهى فى غفلة عن كل ذلك ..

وبينما سمية غارقة فى لجج الهموم لاحت منها التفاتة الى تلك الباحة ، فرأت فيها نورا يتحرك وسمعت صوت باب يقفل ، فعلمت ان والدها خرج من تلك الحجرة السرية . ثم رأت النور يختفى وسمعت تصفيقا ، فعلمت ان والدها يدعو الخادم .. فخافت أن يكون عازما على استدعائها ، فتظاهرت بالميل الى النوم وقالت للجارية : « لم يعد لى طاقة على الجلوس ، فقد أخذ منى النعاس مأخذا عظيما فاتركينى لأنام ، واذا سأل عنى والدى فقولى له انى نمت منذ مدة طويلة » ففهمت الجارية غرضها ، فضحكت ضحكة خفيفة ، ولم تخرج صوتها . ثم قالت لها : « لاتهافى » ــ أى لا تخافى ــ وتوسدت سمية وتظاهرت انها استغرقت فى النوم ، وبعد قليل سمعت الخادم يسأل الجارية عنها ، وسمعتها تقول له انها نائمة ، فانصرف

وأصبحت فى اليوم التالى وهى لا تزال فى حاجة الى النوم ، فظلت فى الفراش ونهضت فى الضحى .. فجاءتها جاريتها بماء تغتسل به وطعام ، فسألتها عن والدها .. فقالت : « أفقت قبيل الصبح على قرع الباب ، ثم علمت ان بعض الناس جاءوا يطلبون سيدى على عجل .. فخرج وهو لم يتم لف عمامته . يبدو انه طلب لأمر عاجل » ..

فأطرقت سمية وفكرت قليلا ، فحدثتها نفسها ان لهذه الدعوة علاقة بخطيبها . ولما تذكرت سوء قصد والدها وما سمعته من قدوم عبد الله اليها بالأمس ، تبادر الى ذهنها ان شرا عظيما أصاب حسنا .. وذلك شأن المحب وهو بعيد عن حبيبه ، فانه يكاد لايطمئن باله عليه . واذا سمع واحدا يذكره لايتبادر الى ذهنه الا خبر السوء .. وقد يفسر الاشارات ويحل الرموز ويشرح الحوادث ، ولكنه قلما يظن فيها خيرا .. فكيف بسمية وهى تعلم ما ينويه والدها لخطيبها ، فلم تتناول الطعام الا قليلا، ومكثت جالسة تود البحث عن سبب ذهاب والدها ، وتخاف أن تسمع السبب لئلا يكون فيه ما يسوءها

— ٣٥ —

خديعة !

قضت معظم ذلك النهار فى قلق واضطراب ، وهى تارة تمشى فى الدار ، وآونة تخرج الى البستان ، وهى تتوقع أن ترى عبد الله آتيا أو تسمع خبرا جديدا . ثم سمعت اذان العصر ، فالتفتت نحو الجهة المنبعث منها ، وهى من ناحية باب البيت .. فرأت والدها داخلا والبغتة بادية على وجهه ، فخفق قلبها ولبثت تنتظر ما يبدو منه . فدنا منها وابتسم وناداها ، فتبعته وهى لا تزال فى اضطراب ، ولكنها تظاهرت بالارتياح حتى أقبل على

غرفة الجلوس ، فوقف بالباب وخاطب سمية وهو ينزع نعاله قائلا : « كيف قضيت يومك البارحة عند سكينة ؟ »

قالت وهى تتبعه الى وسادته التى تعود الجلوس عليها : « قضيته فى راحة ، ولكنى عدت وأنت منشغل فى الحجرة ، فنمت ونهضت فى هذا الصباح ، فقيل لى انك خرجت بدعوة مستعجلة فانشغل بالى »

فقطع كلامها ودعاها الى الجلوس بجانبه والابتسام لا يليق بذلك الوجه المملوء خبثا وغشا . فلما جلست قربها منه وضمها وقبلها ، فأحست ببرودة شفتيه ، واقشعر بدنها لاحتكاك شعر لحيته بذقنها وعنقها لعظم ما كانت فيه من التهيج العصبى الذى هو أثر من آثار القلق ، ولكنها قبلت يده فاذا هى أبرد من شفتيه ، على انها توقعت ان تسمع منه شيئا بعد هذا التملق ، فاذا هو يقول لها : « أظنك تشعرين بالضيق من طول الاقامة فى هذه المدينة » ..

قالت : « اذا كنت أنت فى خير وسعادة ، فكل حال ترضينى »

فأعجبه قولها وألقى يده على كتفها ، وجعل يعبث بشعرها بين أنامله ، ثم قال : « بورك فيك من ابنة مطيعة ، ان مثل هذا القول يجبر قلب الوالد .. هذا هو البر الذى كنت أرجوه منك . فالحمد لله ، ان الفكرة التى كانت تخامر ذهنك قد زالت الآن ، وعدت الى ما هو جدير بأمثالك من الرجوع الى آراء آبائهن فى كل شىء » -

فتوهمت سمية عند هذا التعريض ان صخرة وقعت على رأسها ، ثم أسرع خفقان قلبها . ولو انتبه والدها ، وهى مستلقية على صدره لسمع دقات قلبها أو لشعر بها ، أو لأدرك اضطرابها على الأقل ، أو لعله أدرك وتجاهل خبثا ورياء . ثم قال ولم يترك لها مجالا للتفكير : « أتذهبين غدا لترويح النفس فى العقيق ، فانه متنزه جميل ؟.. نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضى يومنا هناك »

فعجبت سمية لذلك الاهتمام ، وان كان من والد ، لأن والدها كان يندر أن يخاطبها بالحسنى أو يلاطفها الا اذا أراد منها أمرا ، حتى أصبحت لا تسمع منه ملاطفة الا توقعت شرا .. ولكنها لم تكن تستطيع غير مداراته ، فقالت : « أشكرك يا أبى على هذه العناية » ..

فقطع كلامها قائلا : « لا حاجة بى الى شكرك يابنيّة ، فانى أبوك وهذا شأن الآباء .. فلنذهب غدا صباحا ، وسأخبر الخدم ليعدوا لنا خياما وطعاما ويسيروا أمامنا الى العقيق قبل الفجر ، ثم نركب أنا وانت عند طلوع النهار كى نقضى يومنا فى العقيق ، فقد مللنا المدينة وأسواقها ونخيلها » قال ذلك بنغمة الأب الحنون ، فلم يسع سمية الا مجاراته .. على انها كانت أشد حاجة منه الى النزهة وخطر لها أيضا انها ربما استطاعت فى أثناء مرورها بالشوارع والطرق أن ترى عبد الله أو تستطلع خبره أو خبر حسن . فأثنت على والدها وقبلت يده فقبلها . ثم صفق فجاء عبد أسود ، كان عرفجة قد أسند اليه ادارة شئون منزله

وجعله رقيبا على أهل بيته . وكان ذلك العبد قبيح الخلقة كبير الشفة السفلى أفطس الأنف ، يكاد الشرر يتطاير من عينيه .. يندر أن يبتسم ، واذا فعل فانه يكشر عن أنيابه تكشيرا . فلما وقف بين يدى عرفجة ، قال له : «ياقنبر، اننا عازمون على الخروج فى صباح الغد الى العقيق، فهيىء مايلزم لذلك من الخيام والأطعمة، وأعد الهودج لركوب سميَّة ، واذهب انت والخدم عند الفجر ونحن نلحق بكم عند طلوع النهار »

قال العبد : « الأمر لمولاى » .. وخرج

ثم نهض عرفجة ودخل الحجرة السرية ، وتحولت سمية الى غرفتها وطلبت من جاريتها أمة الله أن تتهيأ لمرافقتها فى صباح الغد فى الهودج لأنها تستأنس بها دون سواها

— ٣٦ —

معسكر طارق

باتت سمية تلك الليلة ، فتوالت عليها الأحلام المزعجة .. رأت حسنا فى خطر ، ورأت مناظر كثيرة مخيفة ، فنهضت وهى فى اضطراب شديد .. فاذا والدها قد خرج وتهيأ للرحيل ، وجاءتها الجارية فمشطتها وألبستها ثيابها . وركبت سمية الهودج فوق الجمل والجارية معها ، وركب والدها بغلة ، وساروا وقد أمسك بخطام الجمل غلام من خدم المنزل

وجعلت سمية ــ منذ خروجهم ــ تطل من خلال الأستار الى الطرق تتفرس فى المارة ، فاستغربت امة الله ذلك منها لعلمها بأدبها وحشمتها . وزاد دهشتها شدة ما يبدو على وجهها من القلق . فلما خرجوا من باب المدينة ، بالغت سمية فى التطلع نحو الطريق الذى يؤدى الى مكة .. لعلهـا ترى أثرا أو تستطلع خبرا ، فرأت بجانب باب المدينة خياما ورايات وخيولا وجمالا وقد تفرق العبيد بين النخيل وحول المستنقعات يجمعون العيدان للوقود ، فاندهلت ولم تفهم حقيقة هذا المعسكر ، فلم تر بدا من أن تسأل والدها فنادته فلم يجبها ، فأخرجتْ رأسها من بين الأستار لتبحث عنه .. فاذا هو قد أركض بغلته نحو المعسكر ، فظنت انه ذاهب لاستطلاع الخبر ، فأمرت الغلام أن يظل فى مسيره .. فسار حتى بعدوا عن المعسكر وسمية لاتزال تشرف على الطرق وتتطلع الى كل جهة والقلق باد فى عينيها

وفيما هى تتطلع سمعت جعجعة جمل يتألم ، فالتفتت فرأت جمل حسن الذى ذكرنا أمره ، ولم تكن هى تعرفه لأنها لم تره الا فى أثناء مقابلتها حسنا فى المساء .. ولكن بالنظر الى هول تلك المقابلة ، انغرس فى ذهنها كل شيء شاهدته فى تلك الليلة.. وذلك طبيعى فى الانسان ، فانه اذا وقع له حادث أثر فى عواطفه انطبع الحادث فى ذهنه وكذلك كل ما رافقـه من المشاهـد والأحاديث .. فاذا رأى شيئا من تلك المشاهد أو سمع حديثا من تلك الأحاديث تذكر كل ما رافقه . فلما رأت سمية الجمل

خفق قلبها ، كأنها تنسمت منه رائحة الحبيب .. فأوقفت الهودج عنده ونظرت اليه ، فرأت انه ان لم يكن جمل حسن فانه يشبهه كثيرا . على ان هواجسها رجحت انه هو بعينه فاضطربت ، وجعلت تفكر فى حالها .. وتصورت حسنا مقتولا وقد أخذ قاتلوه رحل الجمل وخطامه وتركوه . فلما تصورت ذلك تساقطت الدموع من عينيها رغما عنها وهى تحاول امساكها

وكانت امة الله تلاحظ قلق سيدتها ، ولكنها لم تتجاسر على السؤال الا عندما رأت دموعها تتساقط ، فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم مع ما فيه من صيغة العجمة : « ما بالك ياسيدتى تبكين ، لا أراك الله سوءا .. قولى ما بالك ؟ »

فلما سمعت سمية سؤال الجارية انخرطت فى البكاء حتى علا صوتها ، فأمسكتها امة الله وقبلت يدها وقالت لها : « بالله كفى عن البكاء واخبرينى ما سبب ذلك ، اطلعينى على سرك لعلّى أنفعك فى شيء ... قولى لى »

فتنهدت سمية ومسحت دموعها بكمها من فوق الأساور والدمالج فذهب الكحل من عينيها ، ولو لم يكن رداؤها قاتما لظهر الكحل عليه . فلما انتهت نوبة البكاء وهدأ روع سمية التفتت الى خارج الهودج ، فلم تجد والدها ولا رأت أحدا يسمعها ، فقصت على جاريتها الحديث مختصرا وأطلعتها على مكنون قلبها ، فأحست للحال ان المصيبة خفت عنها . فشاركتها الجارية البكاء ، ثم لامتها على مقاساة كل ذلك لمجرد الظن. وقالت

لها : « انك لم تتحققى ان هذا الجمل جمله . ولكن هبى انه جمله ، فماذا أرانا انه أصيب بسوء ... ان هذا الحكم مجرد ظن . ولا أحسب هذا الجمل الا لبعض أهل هــذا المعسكر ، انكسر فتركوه ... »

فارتاحت سمية لهذا التعليل ، ولكنها عادت الى التفكير فى عبد الله ورجوعه الى منزلها فى تلك الليلة ، فقالت : « ولكن ما هو سبب رجوع الخادم الينا فى تلك الليلة ؟ .. »

قالت الجارية : « لعله جاءك برسالة من حسن فلم يجدك ، فعاد وسافر معه ، ولولا ذلك لرأيته أمس . وقد مضى النهــار كله وها نحن فى ضحى اليوم الثانى ولم نره »

فقطعت سمية كلامها قائلة : « أتظنينه لو علم بسوء أصاب حبيبى ، ينقل ذلك الخبر الىّ ؟ .. »

وبينما هما فى الحديث والجمل ســائر سمعتــا وقع حوافر البغلة ، فعلمتا ان عرفجة عاد اليهما .. وبعد قليل وصــل الى محاذاة الهودج فنادى سمية ، فأطلت وسلمت على أبيها فقال لها : « لعلّى غبت عنك كثيرا ؟ »

قالت سمية : « نعم ياسيدى ، وخصوصا لأننا رأينا خياما وجمالا وخيولا ، فلم نفهم سبب هذه الحركة »

فأجابها وهو يحاول اصلاح الرسن فى رأس البغلة : « ان هذا المعسكر معسكر طارق بن عمرو عامل المدينة ، وقد خرج برجاله وجنده قاصدا مكة »

قالت سمية : « ولماذا ؟ .. »

قال عرفجة : « جاء بريد الحجاج بن يوسف أمس يستقدم طارقا ورجاله مددا له فى حصار مكة ، وعما قليل يسافرون » قال ذلك وساق بغلته ، وتظاهر أنها أسرعت من نفسها فانقطع الحديث . وسرَّت سمية بانقطاعه لتعود الى التفكير فى حسن ؛ لعلها تلتمس تعليلا يريح بالها عليه .. والمرء ميال الى التماس مثل ذلك التعليل ، والناس يتفاوتون فى مقدرتهم على ذلك . فبعضهم اذا وقع فى مصيبة هان عليه تكييف عواطفه بالنسبة لتلك المصيبة ، فيجعل لنفسه مخرجا من سوء عواقبها . ومنهم من يزيده التفكير قلقا ، ولكنه لا يلبث وان طال قلقه أن يتوصل الى حل يتوكأ عليه ريثما يرى ما يأتى به القدر

وكانت الجارية قد رفعت أستار الهودج منذ خرجوا من المدينة وبعدوا عن الناس ، وسمية تطيل النظر فيما حولها من الهضاب والبطاح وبرك الماء وغابات النخيل .. وهى كأنها لا ترى شيئا لاستغراقها فى عالم الخيال ، فلم تنتبه الا وقد شمت رائحة الشواء ، فالتفتت فاذا هى على مقربة من ثلاث خيام : اثنتين قرب الماء ، وواحدة منفردة تحت ظل نخلة كبيرة . فنظرت فرأت نفسها على غير ماء العقيق لأنها كانت تعرفه ، فحولت نظرها الى ما حولها فاذا هى لا تزال على مقربة من المدينة وخيام المعسكر لا تزال ظاهرة . وتفرست فى الخيام حولها ورأت الخدم ، فاذا هى خيامهم وخدمهم فاستغربت ذلك ، ولكنها لم تعلق عليه

أهمية كبرى اذ لم يكن لها رغبة فى العقيق ولا غيره

وجاء الخدم فأناخو الهودج بقرب الخيمة المنفردة ، فنزلت سميّة وجاريتها ودخلتا الخيمة ..

أما عرفجة فرأته سميّة واقفا مع عبده على انفراد ، وكانت تكره ذلك العبد كرها شديدا لغلظ طباعه وفظاعة خلقته ..

– ٣٧ –

حديث ذو شجون

فلما دخلت سمية الخيمة عادت اليها هواجسها ، ففكرت فى حسن والجمل وتصورت ما تخشاه من أمره فازداد بلبالها . ثم خرجت أمة الله لمساعدة سائر الخدم فى اعداد الأطعمة ، وظلت سميّة فى الخيمة وحدها ..

وبينما هى على تلك الحال سمعت نحنحة أبيها ثم رأته قادما والعبد معه ، وقد فرغا من المسامرة ومشيا نحو خيمتها ، فاستعاذت بالله وخافت شر ذلك القدوم .. ثم رأت العبد يبطىء فى المسير ويتشاغل ، وأبوها يسرع حتى وصل الى الخيمة ، فنهضت له . فقال لها : « كيف رأيت هذا النهار ؟ انه نهار جميل »

فتظاهرت بالابتسام وأرادت أن تحادثه ، فقالت : « انه نهار جميل .. ولكننى سمعتك تقول اننا ذاهبـون الى العقيق وأرانا لا نزال بباب المدينة ..؟ »

قال عرفجة : « ان العقيق بعيد ، فأحببت الاستراحة هنا .. واذا شئت المسير الى العقيق سرنا .. وانما أحب أن تكونى مسرورة فرحة ولا أراك منقبضة النفس ، ومثلك قد تهيأ له كل ما يحقق السعادة والسرور .. فأبوك يحبك حبا شديدا وقد انقطع عن العالم من أجلك .. ولا يترك وسيلة الا اتبعها فى سبيل راحتك وسعادتك .. »

فلما رأت منه ذلك التلطف خشيت مما وراءه .. وظلت ساكتة ، فعاد هو الى اتمام حديثه فقال لها : « ولقد سرنى منك اذعانك لمشورة أبيك بشأن ذلك الشاب ، وعدت الى ما هو جدير بأمثالك .. ويسرنى أيضا أن أبشرك بسعادة قد وفقت اليها من أجلك ، ويندر أن تنالها فتاة من فتيات المدينة ؛ بل انهن كلهن يتحسرن عليها .. »

فازداد قلقها واستشفت من وراء ذلك الكلام بشرى سوء تزيد اضطرابها ، فظلت ساكتة وقلبها يخفق ، ومالت الى استطلاع ما فى نفس والدها ، ولكنها خشيت أن يكون فى استطلاعه ما يسوءها ، فلبثت صامتة لا تدرى ماذا تقول .. ووالدها ينظر الى وجهها خلسة وهو يتشاغل بلحيته بين أنامله . وكان يتوقع أن يسمع منها استفهاما أو جوابا ، فلما رآها صامتة دنا منها وهى متكئة الى عمود الخيمة ووقف أمامها ، وأسند يده الى العمود وجعل يده الأخرى على كتفها . فاقشعر بدنها وارتعدت فرائصها لعظم قلقها ، ولم تعد تصبر عن استطلاع ما فى نفس

عرفجة ، فاذا هو يقول لها : « لماذا لم تسأليني عن تلك السعادة ؟ لا أخالك اذا علمت بها الا معجبة بما يبذله أبوك فى سبيل راحتك . أتعلمين انك ستصيرين بعد قليل سيدة نساء هـذا الجيش ؟ .. » قال ذلك وأشار الى المعسكر

فلما سمعت قوله علمت انه يشير الى خطبتها لأحد كبار ذلك الجيش ، فتحققت سوء ما أضمره لها فى الأمس ، وانها مقبلة على خطر شديد ، فارتبكت فى أمرها ولم تدر بماذا تجيب ، ولكن الاضطراب بدا على وجهها . ولو تفرس والدها فى قرطيها لرآهما يرتعشان ارتعاشا يحاكى خفقان قلبها ــ وما ارتعاشهما الا من رجع ذلك الخفقان ــ واحمرت وجنتاها بغتة ، فتشاغلت باصلاح دمالجها فى معصميها وهى تنظر الى الدمالج ، ولكنها لم تكن ترى شيئا لأن الدمع غشى بصرها ثم تساقط على معصميها . فلما رأى والدها ذلك تحقق انها لا تزال متعلقة بحسن ، فأراد أن يقطع أملها منه فقال لها : « ما بالك لا تجيبين ؟.. ألم يعجبك ما دبرته لك من أسباب السعادة ؟ .. أم أنت لم تفهمى مغزى كلامى .. ألم تفهمى ما أقوله لك ؟ .. انك ستكونين سيدة نساء هذا الجند وجند بنى أمية المحاصرين لمكة الآن ، واذا أشكل عليك فهم مرادى أقول لك انك ستزفين الى الحجاج بن يوسف كبير أمراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان ، وهو من ثقيف مثلنا وله مالا أزيدك بيانا عنه من علو الشأن »

فلما سمعت تصريحه لم تستطع أن تمسك عن البكاء ، فغطت

وجهها بكمها وأسندت رأسها الى العمود وظلت صامتة وقد حبست نفسها عن البكاء أو التنهد حتى كادت تختنق ، وهى لا تدرى بماذا تجيب والدها لأنها تخشى اذا خالفت قوله أن يفتك بها ، فلم تر سبيلا لتفريج كربتها غير البكاء . فلما رآها عرفجة تبكى علم انها لا تزال تفكر فى حسن وترجو قربه ، فأمسك يدها وأبعدها عن العمود بلطف فطاوعته وهى تبالغ فى الاطراق ، فقال لها : « أحسب ان صورة ذلك الغلام لا تزال فى ذهنك مع اعتقادك انه لا سبيل اليه .. فاذا كان فى قلبك بقية من أمل فيه فانزعيها ، لأنه قد مضى وقضى الأمر »

فأجفلت سمية ، ورفعت رأسها تنظر الى والدها وعيناها تقطران دمعا ، وكأنها تريد أن تكشف عن هزل قوله من جده ، فابتدرها قائلا : « صدقينى انه لم يعد لك سبيل الى حسن ، ولا هو له سبيل اليك ؛ لأن أمره قد انقضى .. والأموات لا يقومون فى هذه الدنيا »

— ٣٨ —

قنبر

فلما سمعت سمية قول والدها صاحت صيحة سمعها كل من فى الخيام ، ولطمت وجهها وقالت : « حسن مات ؟.. مات ؟.. لا ، لا ، حسن لم يمت .. انه حى »

قالت ذلك واستغرقت فى البكاء ، وجلست على برش من سعف النخيل كانوا قد فرشوه فى أرض تلك الخيمة ، وجعلت رأسها بين كفيها وأطلقت لنفسها العنان ووالدها لا يزال واقفا ، وقد بُغِت لما رآه .. على انه قال فى نفسه انها لا تبرح أن تفرغ من البكاء ، فمتى تحققت من موته عادت الى رأيه . فصبر هنيهة وهو يظهر الاستخفاف بما بدا منها ، ثم عاد فقال لها : « أراك لا تثقين فى قولى ، وأنت تعلمين يا سمية انى أقول لك دائما الصدق .. صدقينى ان حسنا قُتِل فى أثناء خروجه من المدينة فلا سبيل الى رجوعه .. أتقتلين نفسك معه ؟ .. »

فصاحت : « نعم أقتل نفسى ، ولا غرض لى فى الحياة بعده .. قتلتموه ظلما وغدرا .. ويلك يا ظالم .. كيف قتلته ؟ .. اقتلنى معه .. اقتلنى .. » قالت ذلك وعادت الى الشهيق .. فلما رأى عرفجة عنادها عمد الى الملاطفة فقال لها : « أنا لم أقتله ولكنه قتل بذنبه . ومع ذلك فماذا يفيد البكاء ؟ اشكرى الله انه مات قبل أن يتزوج بك ، فانك حينئذ كنت لا تنالين حظوة فى عينى الحجاج » ..

فقطعت سمية كلامه قائلة : « وأى حجاج ؟ مالى وللحجاج .. انى لا أريد سواه ، لا أريد غير حسن .. حسن حبيبى .. هو وحده حبيبى حيا أو ميتا » ثم أجفلت وقالت : « لا ، لا ، لم يمت حسن بل هو حى .. وأيدى الظالمين اللئام تقصر عن ادراكه »

فقال عرفجة : « ألا تزالين تنكرين قتله حتى أريك جثته ؟.. »

فوثبت سمية من مجلسها بالرغم عنها ، وصاحت : « لا ، لا ، لا تريني اياه ميتا .. ويلاه قتل حسن .. قتل .. اقتلني يا ظالم يا خائن ، اقتلني وأرح نفسك مني ، وأرحني من الحياة كما أرحت رجلا أنقذك وأنقذ أهل بيتك من القتل فكافأته بالقتل . ويل لك من مشهد يوم عظيم .. » قالت ذلك وقد أحست بقوة الرجال الأشداء ، ويئست من الحياة . فلما سمع عرفجة توبيخها صاح فيها : « اسكتي يا فاجرة يا عاقة ، أبمثل هذا الكلام تخاطبين والدك ؟ .. والله لولا حرمة البنوة ولولا أن يقال اني قتلت فتاة ، لمزجت دمك بهذه المياه .. ولكني لا أعاملك الا معاملة صبية حمقاء .. وسأصبر عليك هنيهة وأعرض عليك السعادة مرة أخرى ، فان أبيت الا ما بدا من وقاحتك قتلتك بهذا الخنجر .. » قال ذلك واستل من منطقته خنجرا لمع نصاله كالبرق ، فلما رأت سمية النصال تعرضت لوالدها وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهي تقول : « اضرب .. اغمد خنجرك في هذا القلب .. اطعن .. يبدو انك تخوفني بالموت .. والموت أحب اليَّ من الحياة بعد ذهاب حبيبي وغاية أملي »

فلما رأى منها ذلك العناد ، صاح قائلا : « أهذه نتيجة التعب الذي تعبته في تربيتك يا عاقة يا فاجرة .. نعم قد حلَّ لي قتلك ، ولكني لا ألوث يدي بدمك ، وسترين قبل موتك جميع ألوان العذاب » ثم صاح : « قنبر » فأقبل ذلك العبد بأسرع من لمح البصر كأنه كان في جيب عرفجة وأخرجه بيده ، فقال قنبر :

« لبيك يا مولاى » فقال له : « شد يدى هذه الخائنة بالامراس، وقيِّد رجليها بالحبال ، وسأريها عاقبة العناد »

فلما رأت سمية قنبر مقبلا ، وثبت من مقعدها وصاحت فيه : « اذهب يا عبد السوء ولا تقرب منى .. ابعد عنى ، قبَّح الله وجهك » قالت ذلك وهى لا تعى ما تقول

أما قنبر فأخرج من جيبه حبلا كان قد أعده هناك ، وهو لا يبالى بصياحها ، وأقبل عليها فقبض على يدها وهى تحاول التخلص منه ، وقد اشتد ساعداها حتى صارت مثل أشد الرجال ، ونسيت حزنها ومرارة نفسها ، وعادت الى الدفاع وقنبر يحاول اخضاعها بغير عنف .. فلما رآها تدافعه وتقاومه عوَّل على استخدام العنف ، فصاح فيها صيحة دوت دويا عظيما ، وجذبها من يدها فاصطدم رأسها بعمود الخيمة ، فوقعت مغشيا عليها كأنها ميتة ، فأخذ عبد النحس فى شدّ وثاقها وهو لايبالى بحالها

— ٣٩ —

سر الأمر

وكان الخدم قد سمعوا صياحها وصياح والدها ، فلم يجرؤ واحد منهم على الاقتراب من الخيمة الا امة الله ، فانها هرولت خلسة واستترت وراء نخلة حولها عشب العليق ، ولبثت تتسمع ما يدور بينهما . فلما رأت قنبرا وثب عليها ، علمت ان سيدتها

عرّضت نفسها للخطر ، ثم سمعت لطمة عقبها سكوت ، فخافت أن يكون قد أصاب سمية سوء .. فلم تر سبيلا الى استبقائها الا بالحياة ، فأسرعت الى عرفجة وترامت على قدميه وقبّلتهما ، وقالت : « بالله الا أشفقت على سيدتى وأغضيت عن جرأتها وأنا أضمن لك كل ما تريده منها ... »

وكان عرفجة انما يعامل سمية بذلك العنف حتى يهون عليها قبول الحجاج لأنه يرجو من زواجها به منفعة كبرى لنفسه ، فقد ذكرنا ما فطر عليه عرفجة من حب الذات والطمع مع سوء النية . وقد بلغ منه الطمع حدا هوّن عليه بذل ابنته ضحية على مذبح أغراضه ، وقد مات ضميره فلا يهمه ما يرتكبه فى سبيل تنفيذ مقاصده . فكان يعلم ان الحجاج يحب الزواج بسمية ويبذل لها مهرا كبيرا ، ولكنه كان يخاف أن تشكوه لعبد الملك بن مروان بواسطة سكينة بنت الحسين أو غيرها من أهل الوجاهة والنسب فى المدينة . فلما اطمأن الى مقتل حسن على زعمه ، أخبر طارقا ابن عمرو أمير المدينة ان مثل ابنته لا تليق بغيرَ الحجاج بن يوسف ، وانه يعلم برغبته فيها . وكان طارق أيضا مثل عرفجة ، قسوة وطمعا ، وله مطمع فى وظائف الدولة ، ولا يتأتى له ذلك الا اذا تقرب الى الحجاج بما يهمه ، فرأى أن يتقرب اليه بسمية فيخطبها له ويحملها اليه . فرغّب عرفجة فى ذلك ، وهو راغب من تلقاء نفسه . وساعده على التخلص من حسن ، ودفع اليه بعض المال من أصل المهر على أن يقبض الباقى بعد وصولها الى

الحجاج قرب مكة ..

وكان عرفجة من ناحيــة أخرى ، يعلم بتعلق ابنتــه بحسن ونفورها من الحجاج وغيره ، وكان يتوقع رفضــها .. فهيــأ الأسباب المساعدة على اقناعها بأية وسيلة كانت ، وتواعد هو وطارق أن يخرج بها الىقرب المعسكر ويحاول اقناعها بالحسنى .. فاذا لم تقتنع عمد الى العنف فيحملها الى الحجاج ولو موثقة ، ولم يكن هو ينوى الذهاب معها لغرض له فى المدينة يتعلق بتلك المحفة السرية . وأراد اقناعها خارج المدينة ثم ارسالها توا الى مكة مع طارق مخافة انه اذا فعل ذلك فى المدينة فقد تهرب الى سكينة وتلتجىء اليها ، فاما أن تحميها أو تساعدها فىابلاغ أمرها الى عبد الملك بن مروان قبل وصولها الى الحجاج . أما بعد أن تسير الى مكة ويتزوجها الحجاج ، فلا يعود لها سبيل للشكوى . وقد أوصى طارقا أن يكتب الحجاج كتابه عليها ويتزوجها ساعة وصولها ، حتى ينقطع لديها كلأمل فىالنجاة . وبناء على ماتقدم ، احتال عرفجة فى اخراج سمية الى هناك . فلما رأى انكارها ما عرضه عليها من أمر الحجاج ، أمر عبده قنبرا أن يشد وثاقها .. وخرج هو من الخيمة لا يلتفت اليها

فلما لقيته أمة الله وترامت على قدميه ووعدته باقناعها ، نادى عبده فخرج .. وأمر أمة الله فدخلت الخيمة وحــدها ، فرأت سيدتها مغمضة العينين وقد خرج ذلك الأسود ولم يهمه أمرها ، فبادرت الى ركوة من جلد معلقة بعمود الخيمــة وفيها ماء ؛

فرشت على وجه سمية حتى أفاقت وأخذت فى حل وثاقهـا ، فالتفتت سمية فرأت جاريتها فوق رأسها وهى تقبّلها وتحاول انعاشها ، فارتد اليها وعيها وهى تمسح الماء عن وجهها بكمها .. فقالت أمة الله بصوت منخفض : « ماذا فعلت بنفسك يا سيدتى ، ما الذى أراه فيك ؟ »

فعادت سمية الى البكاء ، وقالت : « أتسألينني يا أمة الله عن سبب ماترينه وقد مات حسن.. حبيبى.. قبّح الله القوم الظالمين»

فقطعت أمة الله كلامها ووضعت يدها على فمها ؛ وهمست فى أذنها قائلة : « اخفضى صوتك لنتدبر فى هذا الأمر بالحكمة لأن العنف لا يجدينا نفعا »

فقالت سمية : « دعينى يا أمة الله .. فانى لا أريد الحياة بعد مقتل حبيبى وبهجة قلبى .. ومنية فؤادى ، حسن .. قتلوك ، لعنهم الله .. لماذا لم يقتلونى بدلا منه ؟ »

فتقطع قلب أمة الله على سيدتها ؛ ولكنها كانت عاقلة وحكيمة وصاحبة دهاء ، فتجلدت وقالت : « من قال لك انهم قتلوه ؟ »

— ٤٠ —

أمة الله

قالت سميـة : « أتسألينني ؟.. أما رأينـا جمله مصـابا مهجورا ؛ فقلت لعله غير جمله أو ان وجود الجمل لا يدل على

خطر .. والآن ما قولك وقد أخبرنى هذا الظالم الخائن .. انه قتل ، وقد عرض علىَّ أن يرينى جثته رأى العين ، فهل بعد ذلك من شك ؟ .. أتلومينني إذا ندبت حياتى ، ونحت على شبابى ، وهل ترين سبيلا لراحتى غير الموت ؟ .. »

قالت الجارية : « مهما بلغك من أمر القتل ، فلا يمكن أن نعده فى موضع اليقين لعلمك برغبة والدك فى زواجك بالحجاج طمعاً فى المال، فهو يظهر لك انه قتل لكى يحوِّل قلبك عنه ، ومع ذلك فان تقتلى نفسك أمر مستدرك .. ولا يجوز لك ذلك الا بعد أن تتيقنى انهم قتلوا حبيبك .. واما الآن فاننا لا نزال نشك فى الأمر ، وهبى انك تريدين الانتحار لتتخلصى من الحجاج .. فاصبرى حتى النهاية ، فاذا لم يفتح الله عليك بابا للفرج ، ورأيت الحجاج أوشك أن يبلغ مرامه منك ، فقبل وصوله اليك تجرعى السم واقتلى نفسك »

قالت سمية : « ومن أين لى بالسم ؟ .. »

قالت الجارية : « أنا أكون معك .. اشرطى على أبيك أن أكون أنا فى خدمتك ، وأنا أهىء لك السم ، ومتى تحققت من يأسك أجرعك السم وأتجرعه أنا أيضا .. والآن دعى العناد وتظاهرى بالرضا ، ولا يبعد أن يهيِّىء لنا القدر مخرجا قبل وصولنا الى مكة ، أو لعلنا نجد حسنا ونحن فى الطريق فتذهبين اليه .. ماذا يكون شأنك اذا قتلت نفسك وحسن لا يزال حيا ، وهو يعد لك أسباب السعادة ؟.. »

فلما سمعت سمية كلام امة الله ، أحست بانشراح صـدرها ، وارتاح بالها ، وعادت اليها الآمال .. والانسان سريع الرجوع الى الأمل لأن طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، وحب ذاته يهون عليه الرجوع عن الانتحار حبا فى البقاء ، لأن المرء مهما يكن من يأسه وتصميمه على الانتحار وهو فى حال هياجه وغضبه لا يلبث ـ اذا سكن هياجه ـ أن يندم على ذلك التصميم . ويندر أن يرتكب أحد جريمة الانتحار اذا فكّر وقدّر وتبصّر

وكان لكلام امة الله وقع شديد على قلب سمية ، واستصوبت رأيها فى الصبر ، فقالت لها : « افعلى ما بدا لك ، فانك تعرفين ما فى قلبى .. فعسى أن يأتينى الفرج على يدك ... »

فسرّت الجارية لنجاح مهمتها باستبقاء سـيدتها ، ولكنها شعرت بهول الموقف وقد رجحت موت حسن . على انها عمدت الى الصبر وخرجت الى سيدها ، وكان واقفا مع عبـده تحت نخلة .. فلمـا رآها خرجت أومأ اليها أن تدنو منه . فمشت منحرفة عن موقفه ، ففهم انها تريد الاختلاء به . فمشى وحده حتى التقيا . فقالت : « انى رأيت سمية مطيعـة لأمرك فى كل ما تريد ، لكنها استوحشت من معاملة قنبر فلا تدعه يخاطبها أو يكلمها . ولا يخفى على مولاى ان كل من كان فى حال سمية لا يؤخذ بالعنف ، وقد خاطبتها الآن باللين فرأيتها لانت ، ولا بد من جلسة أخرى أتمم بها المراد . فاذا كان لا بد من ارسالها الى معسكر طارق اليوم ، فمرها أن أكون أنا فى خدمتها حتى تصل

الى الحجاج ، ولك علىّ كل ما يسرك .. »

فاطمأن بال عرفجة وهان عليه ابعاد قنبر عنها ، وأطاع امة الله فى ارسالها معها ، وقال لها : « لا بد من ذهابها الآن الى خيمة أعدوها لها فى معسكرهم ، ولا آمن عليها أن تسير وحدها .. فاذهبى أنت معها وأكدى لها انى لم أفعل بها ما فعلته الا رغبة فى راحتها » ..

فقبّلت امة الله يده ، وقالت : « بارك الله فيك .. ولكن سمية تحتاج الى احضار ثيابها وأدواتها »

فقطع عرفجة كلامها ، وقال : « كل شيء معد لها فى خيمتها بالمعسكر ، ولا تحتاج الا الى الرجوع اليه »

فقالت امة الله : « ادخل الآن الى الخيمة وكلمها كلاما يطمئن خاطرها .. » قالت ذلك ومشت ، فمشى عرفجة حتى دخل الخيمة ، فرأى سمية جالسة باكية .. فدنا منها وأمسك بيدها وقال : « لقد ساءنى ما ألجأتنى اليه من قسوة .. ولكن ظهر لى من امة الله انك فعلت ذلك بالرغم منك ، فانهضى وسيرى معهـا الى خيمتك فى المعسكر ، وقد أوصيتها أن ترافقك وتخلص الخدمة لك .. »

فنهضت سمية ، وهى لا تزال مطرقة ، فأسرعت امة الله الى يد عرفجة وقدمتها الى سمية ، وهى تقول : « قبّلى يد والدك ليتم رضاؤه عنك » فقبّلتها . وقبّلها هو ، وكان الهودج لا يزال معدا ، فأركبها وامة الله معها وركب هو بغلته وسار أمامهما حتى

أوصلهما الى المعسكر ، وسلّم الجمل الى عريف الجند . فاستلم العريف خطام الجمل ، وسار معهم الى خيمة فى أحد أطراف المعسكر ..

– ٤١ –

ثبوت القتل

وكانت سمية فى أثناء الطريق غارقة فى بحار الهواجس ، وقد زال أثر كلام امة الله من نفسها ، وخاصة حينما مرت بالمكان الذى كان الجمل مصابا فيه .. فرأت بعض العبيد قد نحروا الجمل وأخذوا فى سلخه ، فتصورت كيف قتلوا حسنا ونحروا جمله ، وعظم عليها الأمر .. ولكنها صبرت نفسها بالرغم عنها ، وامة الله تراقب حركاتها خلسة . وبعد فترة قصيرة وصلوا الى المعسكر فتحققت سمية أنها وقعت فى الشباك .. والفتاة اذا زوجوها برجل تعرفه وترضاه لا بد من استيحاشها فى أوائل أيامها ، الا اذا كان زواجها عن غرام متبادل ، فكيف بسمية وقد قتلوا حبيبها (على زعمها) وباعها والدها لرجل لاتحبه ، والناس يتحدثون بقسوته وشدته . والرجل فى تلك الأيام اذا كان قاسيا ، كان أكثر ما يكون شدة على أهل بيته لشيوع السلطة المطلقة بينهم .. فكيف بالحجاج وأمره نافذ لا مرد له !

فلما وصل بعير سمية الى الخيمة المعدة لها أناخوه ، وأنزلوها

وامة الله فى خدمتها .. فدخلتا الخيمة فرأت سمية صندوقها وفراشها وكل معداتها هناك ، فجلست على بساط كانوا قد فرشوه لها فى أرض الخيمة فلم يشغل الا بعضها . وجلست امة الله الى جانبها تحادثها وتلاطفها ، وسمية تنظر الى خارج الخيمة وتتشاغل بما تراه من حركات الجند والعبيد والخيل والجمال ، وهى غارقة فى الهموم . وكان فى جملة ما شغل ذهنها كلب رأته ينهش خرقة سوداء ويلاعبها بين يديه ، فيقذفها ثم يعدو فى أثرها كأنه يعدو الى فريسة ، على عادة الكلاب اذا لم تكن جائعة . فاتفق أن قذف الكلب فريسته فوقعت بين يدى سمية ، وحين وقع بصرها عليها أجفلت وخفق قلبها ، ومدت يدها ففر الكلب من أمامها ..

فأمسكت الخرقة ورفعتها ، وتفرست فاذا هى ملوثة بالدم . وما لبثت أن قلبتها حتى صاحت : « ويلاه .. هـذا هو القباء .. هذا هو قباء والدى .. قتل حسنا به .. »

فتناولته امة الله من يدها وقد عرفته ، ولكنها جعلت تغالط سمية لتخفف عنها ، فقالت : « كيف عرفت انه قباؤه ، والأقبية تتشابه ؟ » ..

فقطعت سمية كلامها ، وقالت : « قد عرفته من هذا الوشى على هذا الكم ، فانى طرزته بيدى ، وأنا أعلم الناس برسمه » قالت ذلك وشرقت بدموعها ، ولم تنتظر جوابا من امة الله ، وأخذت تبكى وتقول : « قتلوه .. لم يبق عندى شك فى قتله .. »

فقطعت امة الله كلامها ، وقالت : « وما علاقة هذا القبـاء بقتله ؟ » ..

قالت سمية : « ألا تتذكرين ان والدى أهداه له يوم أن عزم على السفر ، وألح عليه فى لبسه للوقاية من البرد.. ويل له من مشهد يوم عظيم .. ألبسه اياه وأوعز الى من يقتله ، وكأنه اتخذ القباء دليلا عليه فأصابوا غرضهم منه .. وهذه هى بقية القباء وعليها الدم . فهل من شك انهم قتلوه ، فما العمل الآن ؟ .. كيف نسلم أنفسـنا الى أناس قتلوا حبيبى ؟ .. » قالت ذلك وغصّت بريقها ..

فقالت امة الله : « سلّمى أمرك الى الله ، ولا تيأسى من رحمة الله . واعلمى ان ما يقدره الله فهو كائن .. واصبرى ، فان الله مع الصابرين » ..

فلم تر سمية غير الصبر ، فصبرت نفسها . والمرء قبل وقوع المصيبة يتوهم انها اذا وقعت يستحيل عليه احتمالها ، وقد يتوهم ذلك أيضا أهـله وذووه .. ولكنه متى وقعت لا يعدم سبيلا لاحتمالها والصبر عليها ، وأمثال هذه الحوادث كثيرة نراها كل يوم .. فلا غرو اذا صبرت سمية بعد ما تحققته من مقتل حبيبها

وفى أصيل ذلك اليوم ، نودى الجند : الخيل الخيل ، فركبوا بعد أن قوّضوا الخيام ، ومشت الفرسان الى الامام وأصحاب الرايات بينهم ، وفيهم رؤساء القبائل يحيطون بطارق بن عمرو وكلهم بلباس أهل البادية ، الا هو فانه لبس درعا فارسية كان

قد جاء بها من العراق

أما سمية فانهم حملوها على هودج ومعها خادمتها ، وكان يقود خطام الجمل عبد ويسوقه عبد .. والى كل من الجانبين فارس على هجين . وكان طارق يتردد على الهودج يتعهده ويسأل أهله هل يحتاجون الى شيء ، ثم يركض فرسه الى أطراف الجند يتفقده ويدبر شئونه ..

— ٤٢ —

خادم حسن

فلنترك سمية فى هودجها تفكر فى مصيرها ، ولنرجع الى المدينة للبحث عن عبد الله خادم حسن .. فقد تركناه راجعا من بيت سكينة بعد أن رافق سمية اليه . ثم سمعنا ان امة الله أخبرت سمية انه جاء الى منزل والدها للسؤال عنها فلم يجدها ، فرجع على أعقابه . ثم لم تعد تعلم ما أصابه . وتفصيل الخبر انه لما رجع عبد الله من بيت سكينة أسرع لمقابلة سيده خارج باب المدينة ، وقد انشغل باله بسمية وماسمعه من حديثها مع حسن فى تلك الليلة ، وهو واقف بالجمل على حدة . وتصور ما يحدق بسيده من الأخطار ، فضلا عن شواغل أخر .. فسار مدة وهو غارق فى هذه الهواجس وقد نسى نفسه ، فأخطأ الطريق وخرج من باب غير الذى خرج منه حسن ، وسار من طريق آخر يؤدى

الى جهة أخرى . وكثيرا ما يحدث ذلك فى مثل هـذه الحال ، فيتجه الرجل شرقا وهو يعتقد انه يسير غربا . وبعد مسير ساعة وهو لايرى راكبا ولا يسمع صوتا وقد اشتد الظلام ، وقف ونظر الى ما يحيط به فاذا هو بين النخيل لايرى الطريق ولا يدرى أين هو . ولم يكن يعرف الاستدلال بالكواكب ، فتحول الى جهة أخرى فلم يبلغ المكان.. وكان كلما بعد عن المدينة استدل عليها ببعض ما يبـدو فيها من الأنوار ، فيرجع الى جوارها . وحدثته نفسه بدخولها ، ولكنه خاف أن يكون سيده فى انتظاره باحدى ضواحيها .. ثم خطر له بغتة ان سيده ربما عاد الى بيت حبيبته لسبب من الأسباب ، فرجع عبد الله الى المدينة وتوجه الى منزل عرفجة فلم يجد سمية هناك كما تقدم ، فعاد الى خارج المدينة .. وقضى ليلته فى هذا الاضطراب

* * *

وقبل الفجر سمع جعجعة جمل يتألم ، فأسرع نحو جهة الصوت وقد استأنس به لأنه يشبه صوت جمل سيده . فناداه بما تعود أن يناديه به من الأصـوات ، فازداد الجمل جعجعة وهو باق مكانه .. فأقبل نحوه فاذا هو الجمل بعينه ولكنه لا يستطيع النهوض ، فغاص عبد الله فى الماء حتى دنا منه .. فأدار الجمل رأسه اليه كأنه يحييه ويستنجد به

فلما تحقق انه معقور ، ولم يجد حسن عنده اضطرب وشغل باله ، فأسرع الى الرحل فنزعه عنه .. ووقف مدة وهو يفكر فى

ماذا عسى أن يكون من أمر حسن. واشتد به الاضطراب والقلق ، ولم يخطر له أن يسأل عنه فى بيت عرفجة لأنه لم يجده هنـاك بالأمس ، وخاف اذا سأل سمية عنه أن يزيد بلبالها بلا طائل . فخطر له أن يسأل عنه فى المكان الذى باتا فيه ليلة وصولهما الى المدينة مع ليلى الاخيلية ، فسار اليه .. ومر فى أثناء مسيره بمنزل عرفجة فتنسم الأخبار فلم يسمع شيئا عن حسن . ولما وصل الى البيت لم يجد أحدا ، فجلس وقد أخذ التعب منه مأخذا عظيما ، ووضع الرحل بين يديه وجعل يفتش فيه ، فوجد فى جيبه اسطوانة مختومة وعليها اسم عبد الله بن الزبير .. فعلم انها الرسالة التى سيحملها حسن الى مكة . فلما رآها زاد قلقه وقال فى نفسه : لو ان حسنا ترك الجمل باختياره لحمل هذا الكتاب معه لأنه انما جاء الى هذه الديار من أجله . فثبت لديه انه قتل أو أصيب بخطر عظيم ، فقضى نهاره وهو لم يذق طعاما .. تارة ينـدب مولاه ، وطورا يعلل نفسه بلقياه . ولم يغادر سوقا ولا دربا من دروب المدينة الا مر به ، وهو يتفرس فى وجوه الناس ويتنسم الأخبار ، فلم ير الا انهماك الناس فى اعداد النجدة للحجاج عملا بما حمله البريد اليهم . وبات تلك الليلة فى المدينة وهو يفكر فيما عساه أن يعمل ، فاستقر رأيه أخيرا على أن يحمل كتاب خالد الى عبد الله بن الزبير فى مكة ، فيتم المهمة التى جاء حسن من أجلها ، على أن يبحث فى أثناء ذلك عن سيده ..

- ٤٣ -

عبد الله بن الزبير

هو عبد الله بن الزبير بن العوام أحد كبار الصحابة .. وكان لما توفى معاوية وبويع لابنه يزيد ، قد أنكر ابن الزبير بيعته كما أنكرها الحسين بن على ، وخرجا من المدينة الى مكة ودعا كل منهما بالبيعة لنفسه . ولكن عبد الله لم يكن يتظاهر بذلك والحسين فى مكة ، لعلمه انه أولى منه بها .. حتى اذا كان ما كان من خروج الحسين الى الكوفة ومقتله فى كربلاء ، خلا الجو لابن الزبير ، فبايعه الناس واستفحل أمره وجعل عاصمته مكة ، وبايعه أهل الحجاز واليمن فعظم أمره على بنى أمية فحاربوه فلم يفلحوا. فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان حاربه أيضا ، ولم يبلغ منه وطرا ..

* * *

وكان الحجاج يومئذ أميرا من أمراء عبد الملك ، ولعبد الملك ثقة فى شجاعته .. وكان الحجاج راغبا فى الخروج على عبد الله ، فاحتال على عبد الملك برؤيا قال انه رأى نفسه فيها وقد أخذ ابن الزبير وسلخه ، وطلب من عبد الملك ان يبعثه اليه .. فبعثه فى ثلاثة آلاف من أهل الشام ، وأعطاه كتاب أمان الى ابن الزبير ومن معه ان أطاعوا . وأوصاه أن يرفق بالكعبة

فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ وحارب ابن الزبير فى مناوشات لم يتم الفوز فيها لأحد الجانبين ، فسل الحجاج المطاولة .. فبعث الى عبد الملك يستأذنه فى دخول الحرم وحصار ابن الزبير ، فأذن له وأنجده بخمسة آلاف آخرين ، فاشتد ازر الحجاج فحاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق . فعظم ذلك على المسلمين وأنبوه عليه ، ولكنه لم ير سبيلا الى الفوز الا به ، وطال الحصار على أهل مكة حتى قل زادهم وأصابهم جوع شديد . وكانت مكة يومئذ قليلة الأبنية ليس فيها غير المسجد ، وفى وسطه الكعبة وبعض الأبنية ، وكانت الكعبة قد تهدمت فى حصارها قبل مجىء الحجاج ، فأعاد ابن الزبير بناءها على أوسع مما كانت عليه

ونصب الحجاج المنجنيق على جبل أبى قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق

* * *

وكان ابن الزبير مقيما مع أهله فى المسجد الحرام ، ومعه جماعة من رجاله قد بايعوه حتى الموت ، وهو صابر صبر الرجال . واما الحجاج فكان من جملة مساعيه فى تضييق الحصار على عبد الله ان بعث سراياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول اليها والخروج منها . ولما طال أمد الحصار على الحجاج ، ولم يسلم المحاصرون استنجد بطارق أمير المدينة

- ٤٤ -

محمد بن الحنفية والمختار

فلنرجع الى حسن بعد أن تركناه وقد خرج من المدينة على جمل أهداه له والد سليمان ، ومعه العبد بلال . فبعد مسيرة أيام ، أشرفا على مكة نحو الغروب ، فرأياها محاطة بشراذم من الفرسان يطوفون حولها . فقال بلال : « انى أرى الطلائع الأموية حول مكة ، ولا آمن اذا واصلنا السير أن يمنعونا وهم كثيرون ، فهل تأذن لى بالخروج اليهم والاستفهام عن حالهم ثم أعود اليك ؟ »

قال حسن : « سر ولا تبطىء ، فانى أنتظر عودتك على عجل بجانب هذا الحائط »

فمشى بلال ، وتحول حسن الى حائط بعيد عن الطريق العام كأنه أثر بناء قديم ، وترجل وعقل جمله وراء الحائط ، واتكأ الى جانبه بحيث لايراه أحد من المارة . ولبث مدة وقد طاب له أن يتكىء لعظم ما قاساه من الجهد فى أثناء ركوبه الطويل من المدينة الى مكة ، فأحس براحة لذيذة .. ولكنه ما لبث أن رأى الشمس تغرب والظلال تتقلص وبلال لم يرجع . فلما آن وقت العشاء ، استبطأه وحسب لتأخره ألف حساب ، ووقف ثم تسلق الحائط وجعل ينظر الى الأفق لعله يراه قادما

وبينما هو يفكر فى أمره ، سمع نحنحة بلال فالتفت فرآه

قادما يعدو عدو الغزال والأرض رمليـــة لايسمع وقع الخطى عليها .. فلما وصل بلال قال لحسن : « لا سبيل لنا الى مكة الليلة لأن رجال الحجاج مضيقون عليها من كل ناحيـــة حتى لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد »

قال حسن : « وما الحيلة ؟ .. لابد من دخولنا »

قال بلال : « الحيلة يامولاى أن نصبر الى الغد لأبحث عن سبيل لدخولنا » ..

فقال حسن : « أنبقى وراء هذا الحائط الى الغد ؟ »

قال بلال : « كلا يامولاى .. فقد دبرت وسيلة أظنها تريحك وتسهل عليك الدخول ... »

قال حسن : « وما هى ؟ »

قال بلال : « أتعرف محمد بن الحنفية ؟ »

قال حسن : « أليس هو ابن الامام على من احدى سبايا بنى حنفية ؛ (١) وأخا الحسن والحسين من أبيهما ؟..كيف لا أعرفه ؟»

قال بلال : « ان لهذا الرجل حرمة عند الحجاج وعند ابن الزبير ، فلعلنا اذا وسّطناه أدخلنا مكة فى سهولة ويسر »

قال حسن : « كيف تكون له هذه الحرمة ، وهو عدو لابن الزبير ولعبد الملك ؛ لأنه يسابق الأول على الخلافة فى الحجاز ويسابق الآخر على الخـــلافة فى الشـــام .. ألم تسمع بحديث المختار ؟ .. »

---

(١) ابن خلكان ـ الجزء الاول

فقال بلال : « كيف لم أسمع به ؟ .. »

فقال حسن ولم ينتظر اتمام جوابه : « ألم يكن المختار مطالبا بالخلافة لمحمد بن الحنفية ، ثم قتله مصعب أخو عبد الله بن الزبير واستخلص العراق منه لأخيه عبـد الله المحاصر الآن فى هذا الحرم حتى جاء عبد الملك بن مروان بنفسه وحارب مصعبا وقتله وأخذ العراق منه »

قال بلال : « صدقت يامولاى ، انى لا أخالفك فى هذا الأمر، ولكن المختار طلب البيعة لابن الحنفية هذا وهو لم يكلفه ذلك ولا أراده ؛ وانما أراد المختـار الالتجـاء الى ابن لامام على ليستخلص الأمر لنفسه .. فحمل ذلك الكرسى وأمره مشهور عند الناس كافة ، وقال انه كرسى الامام على وادعى ما يشـبه النبوة حتى كرهه الناس ونفروا منه .. »

فقال حسن : « هل رأيت ذلك الكرسى ، وهل تعرف أصله ؟»

قال بلال : « ان سر هذا الكرسى عندى ، وطالما جلست عليه قبل أن يصبح مقدسا كما ادعى المختار .. »

قال حسن : « وكيف ذلك يا بلال ؟.. يظهر لى انك واسع الاطلاع .. »

قال بلال : « ان الذى يعيش طويلا يرى كثيرا .. فقد اتفق لى منذ بضع سنين وأنا فى المدينة انى صاحبت رجلا اسمه الطفيل ابن جعدة بن هبيرة ، وكان بجانب بيته رجل زيات كان الطفيل يتردد اليه وأتردد أنا اليه أحيانا ؛ فاتفق أن أصيب الطفيل بضيق

ولم يبق معه ما ينفق منه على نفسه . وكان المختار يومئذ قد قام لمحاربة قتلة الحسين ، فأراد الطفيل ان يبتكر حيلة يكسب بها مالا . وكانت جدته أم جعدة أخت على بن أبى طالب ، وكان عند جاره الزيات كرسى قديم قد ركبه الوسخ فأخذه من الزيات وغسله فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو يلمع ، ثم ذهب الى المختار وقال له : « انى كنت أكتمك شيئا وقد بدا لى ان أذكره لك . ان أبى جعدة كان يجلس على كرسى عندنا ، ويروى أن فيه أثرا من على » فقال له المختار : « سبحان الله لماذا أخرته عنى الى هذا الوقت ؟.. ابعث به » فبعث به اليه وقد غشاه بملاءة فدفع له اثنى عشر ألف درهم . فأخذها الطفيـل وانصرف (١) وأخذ المختار الكرسى فغشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة ودعا الناس الى المسجد وبعد الصلاة قال : « ان هذا الكرسى من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبنى اسرائيل » فصدقوه وصار اذا حارب خصومه يضع الكرسى فى براح الصف ، ويقول : « قاتلوا ولكم الظفر والنصر ، هذا الكرسى محله فيكم محل تابوت بنى اسرائيل وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم» (٢) ولكن هل تظن يامولاى ان محمدا كان يصدقه ؟.. ان الذى يعرف ابن الحنفية يجله عن أن يقبل تلك الدعوة ... »

فقطع حسـن كلامه ، وقال : « لعلك تعرفه يا بلال معرفة

(١) ابن الاثير ـ الجزء الرابع

(٢) الملل والنحل ـ الجزء الاول

جيدة ? .. »

قال بلال : « نعم يامولاى .. وقد شهدت منه كثيرا مما تناقله الناس من أحاديث قوته البدنية . واذكر انى رأيته فى حياة والده الامام على ، وكنت غلاما ، وفى يد أبيه درع طويلة فأراد أن ينقص بعض حلقاتها ، فدفعها الى محمد وأمره أن ينقص منها كذا وكذا حلقة ، فقبض محمد باحدى يديه على ذيلها وبالأخرى على فضلها ثم جذبها ، فقطعها من الموضع الذى حدده أبوه (١) وقد شاهدته مرارا وهو يعرفنى أيضا ... »

فقال حسن : « وهب انك تعرفه أو يعرفك ، فماذا تبتغى من وراء ذلك ? .. »

قال بلال : « الغرض من ذلك انه مقيم الآن فى الشعب بجوار مكة ، (٢) فاذا شئت نزلنا عنده الليلة ، ثم نرى مايكون فى الغد»

فقال حسن : « وهل تعرف الطريق اليه ? »

قال بلال : « عرفته فى أثناء غيابى عنك الآن ، لأنى عاهدت نفسى أن لا أرجع قبل أن أدبر هذا الأمر ، لكى تكون فى راحة .. فقد أوصانى مولاى والد سليمان بك خيرا ، وأراك أهلا لذلك .. فأنا خادمك حتى تصل الى مأمنك ، وتفرغ حاجتك منى »

فقال حسن : « بورك فيك ... » وأخذ يهيىء رحله للركوب ، وبلال يساعده ويقول : « انى أرى مكة فى ضيق شديد ، وأخاف على ابن الزبير من عاقبة هذا الصبر ، فان الأمويين سيغلبون على

(١) ابن خلكان ــ الجزء الاول (٢) ابن الاثير ــ الجزء الرابع

ما أرى » ..

فتذكر حسن ما هو قادم من أجله وخشى أن يخفق فى مسعاه ، ولكنه صبر نفسه ريثما يدخل مكة فى الغد

— ٤٥ —

فى دار الضيافة

ثم ركب حسن، وسارا الى يسارهما حتى أتيا أرضا صخرية ، مشيا بين شقوقها ثم صعدا تلالا ، وبلال الدليل وحسن لايعرف الى أين يسير . ولكنه مالبث أن رأى نارا ، فعلم انه أشرف على الشعب ، والنار نار القرى على مألوف العادة عند العرب . وهمَّ أن يسأل بلالا عن ذلك ، فاذا هو يقول له : « اننا على مقربة من الشعب .. وعما قليل تبدو لنا الخيام ونسمع صهيل الخيل ، فهل تريد أن ننزل فى دار الضيافة رأسا أم نقصد خيمة الأمير نستأذنه ونخاطبه فى أمر دخولنا مكة ؟ »

قال حسن : « أخشى أن يكون فى دخولنا خيمته ما يزعجه ، والأجدر بنا أن نزوره فى صباح الغد »

قال بلال : « فلنذهب اذن الى دار الضيافة ، فانهم لا يسألون القادم اليها عن سبب قدومه ، ومتى أصبحنا نرى ما يكون . وربما خرجت أنا الليلة لأدبر الأمر وأنت مستريح »

فأثنى حسن على غيرته .. وبعد قليل ظهرت لهما الخيام ، وكانت

كثيرة منصوبة على غير نظام ، فى نحو منتصفها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف بعض الخدم ببـابه انه فسطاط محمد بن الحنفية ، فوقف بلال برهة وهو يتفرس فى الخيام من خلال ذلك الظلام حتى تبين خيام الضيوف ، وقد عرفها من انفرادها عن سواها وقربها من النار.. فتحوَّل وحوَّل الجمل حتى اقتربا من الخيام ، فسمعا لغطا وكلاما فعلما ان الناس غير نيام . فترجل حسن وسبقه بلال الى أقرب خيمة ، فلقيه رجل رحب به وسأله عن جهة مسيره ، وطلب اليه أن ينتسب فانتسب ، وقال اننا ضيوف غرباء.. فأنزلهما على الرحب والسعة ، وأدخلهما خيمة ليس فيها أحد . فدخل حسن ، وظل بلال خارجا يهتم بالجمل .. فتناوله منه أحد الخدم وأخذه الى المعالف ، وعاد بلال الى حسن فاذا هم قد أعدوا له طعاما ، فأكل ثم توسد للراحة ، فاستأذنه بلال فى الخروج على أن يعود بعد قليل وينام بباب الخيمة

وتوسد حسن على فراش من جلد فرشوه له ، وكان التعب قد أخذ منه مأخذا عظيما .. فغلب عليه النوم فنام سريعا ، ولكن هواجسه لم تنم معه فتحولت الى أحلام مزعجة ، فتصور المهمة التى جاء لها ، وانه دخل مكة وقد دخلها الحجاج وقبض عليه وحبسه وقيده بغل من حديد . فشق ذلك عليه وانزعج ، وأفاق من نومه مذعورا ، فشكر الله لأن ذلك كان حلما ، ولكنه تشاءم منه وغلب عليه الأرق .. فجعل يتقلب والنوم يجافيـه . فأراد استدعاء بلال لعله يقص عليه خبرا يتسلى به ريثما يطلع النهار ،

وتذكر انه نام بباب الخيمة فناداه فلم يجب ، فظنه مستغرقا فى النوم فنهض حتى أتى الباب ورفع السقف فلم يجد أحدا ، فالتفت الى السماء وتفرس فى النجوم فعلم انه فى الهزيع الثالث من الليل ، فانشغل باله على بلال .. فالتف بردائه الى فوق رأسه التماسا للدفء ، وخرج ليبحث عنه بجوار الخيمة

— ٤٦ —

قادم غريب

وبينما كان حسن يدور حول الخيمة سمع جعجعة جمل قادم نحو الخيام فالتفت فاذا هناك جملان ، على أحدهما راكب والثانى عليه شبه هودج يقوده رجل ماش ، ولم يستطع حسن أن يتبين الوجوه لشدة الظلام .. فتبادر الى ذهنه ان رجلا وامرأته وخادمه قادمون للمبيت هناك الى الصباح . ولكنه استغرب مسيرهم فى أواخر الليل بجوار مكة ، وهى فى هذا الحصار الشديد . فتحول حسن الى خيمته فدخلها ، وفى نفسه حب الاستطلاع على حقيقة القادمين .. وحب الاستطلاع فى مثل هذه الحال طبيعى ، قل ان يصبر عنه انسان . فجعل حسن يتطلع من شقوق فى الخيمة تطل على القادمين ، فرأى ان الجملين أنيخا ونزل الراكب وهو رجل قصير القامة قد تلثم بعمامته والتف بعباءته . وحين ترجل ، جاء الرجل الذى كان ماشيا يقود الجمل فاذا هو عبد ضخم الجثة

سريع الحركة .. فأخذ الجمل وعقله بجانب الجمل الآخر وهو يقول : « أترى يامولاى أن أبقى هنا مع الجملين أم أسير فى خدمتك ؟ » ..

فقال له بصوت منخفض : « امكث انت هنا واحرس ما على الجمل ، فانه أعز شىء عندى كما لايخفى عليك »

قال العبد : « هل أسير فى خدمتك الى خيمة الضيوف ؟ »

قال : « لست ذاهبا لآوى الى فراش .. امكث أنت ريثما أعود اليك .. واذا شئت الراحة فلا بأس ، لكن حافظ على هذا الجمل وما عليه ... » قال ذلك ومشى

وكان حسن يسمع الكلام ويرى الأشباح ، ولكنه لم يعرف أحدا .. على انه ظل يعتقد انهم رجل وامرأة وخادمهما ، وتوقع أن يرى المرأة نازلة من الهودج ، فحول نظره بعد ذهاب الرجل الى الهودج فرآه لايزال مجللا بغطائه .. ثم رأى العبد قد عاد الى الجمل الذى يحمل الهودج وجلس فى ظله واتكأ على بطن الجمل ، ولم يكد يسند رأسه حتى سمع شخيره وقد نام نوما عميقا ، فاستغرب حسن ما رآه .. وكان قد تعب من أثر الوقوف والتشوف فعاد الى فراشه وفكره مضطرب ، كأن قلبه دله على أمر يهمه . وبعد أن جلس على الفراش عاد الى باب الخيمة للبحث عن بلال ، وقد انشغل باله لغيابه فأطل برأسه من الباب وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد أحدا ، وحال الظلام بينه وبين الأشباح البعيدة فعاد الى فراشه وقد غلب الأرق عليه وأحدقت به الهواجس ،

فحدثته نفسه أن يخرج الى ذلك العبد ويستفهم منه عن أمرهم ، ولكنه خشى أن يسمع منه مايخجله ، فقال فى نفسه : « لو كان بلال هنا لعهدت اليه بهذه المهمة ، وهما عبدان يسهل التفاهم بينهما »

— ٤٧ —

كشف السر

وبينما كان حسن فى تلك الهواجس ، سمع وقع أقدام خارج الخيمة من جهة الباب ، فعلم ان بلالا قادم .. ولكنه لم يشأ ان يناديه لئلا ينتبه العبد النائم بجانب الجمل .. فوقف ومشى الى الباب ، فاذا هو بلال بعينه وقد اتكأ فناداه ، فلما سمع بلال صوت حسن ، وقف حالا وقال : « ما الذى أيقظك فى أواخر هذا الليل يامولاى ؟ »

قال حسن وهو يشير اليه أن يخفض صوته : « لقد استيقظت من مدة طويلة ، وانشغل خاطرى لغيابك ، ثم رأيت بعض الناس أوقفوا جمالهم وراء خيمتنا ، وظهر لى من أمرهم ما أقلقنى .. ولا يفرج كربى سواك »

قال بلال : « لبيك يامولاى .. ما الذى تبتغيه منى ، انى أطوع لك من بنانك »

قال حسن : « هل مررت من وراء هذه الخيمة ؟ »

قال بلال : « كلا ، وانما جئت من هنا »

قال حسن : « تعال » وأمسكه بيده وجره الى داخل الخيمة وأراه الجملين والعبد نائم تحت الهودج ، وقص عليه ما كان من أمرهم الى أن قال : « فاذا استطعت مخاطبة هذا العبد والاستفهام منه عما دفعهم الى المجىء افعل ، فانى سوف أظل قلقا حتى أعرف ذلك »

قال بلال : « ذلك أهون ما يكون على » .. قال ذلك وخرج من باب الخيمة ، ودار حتى دنا من الجملين وحسن يتطلع اليه من شق الخيمة ، فرآه يقترب من العبد رويدا رويدا حتى دنا منه وتفرس فى وجهه والعبد نائم ، ثم انكفأ بلال راجعا وهو يهرول مسرعا حتى دخل الخيمة ، فلاقاه حسن وهو يعجب من رجوعه عاجلا . وقال له : « لماذا لم تخاطبه ؟ »

قال بلال : « لأنى عرفته وعرفت حكايته بغير سؤال »

قال حسن : « وكيف ذلك ؟ »

قال بلال : « اجلس لأقصّ عليك سبب غيابى ، وفيه مايغنيك عن كثرة البحث .. نمت فى أول هذا الليل بباب هذه الخيمة ، ولكننى ما لبثت أن استيقظت وأخذت فى التفكير فى مصيرنا ، واننا اذا لم نستطع غدا مقابلة الأمير طال بقاؤنا . وخشيت من جهة أخرى أن يكون علينا بأس اذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا ، فرأيت أن أمهد هذه العقبات فى هذا الليل وأنت نائم ، فنهضت وسرت الى رجل من المقربين الى الأمير ، وقد عرفته من أيام المدينة .. ولى عليه دالة . فلقيت الرجل فى خيمته بقرب

خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح ، وقد زاد صاحبى تقربا وكرامة حتى صار يدخل عليه من باب خاص دون سائر الناس .. فلما رآنى رحب بى وأكرمنى وسألنى عن أمرى ، فقلت له : « اننا جئنا نلتمس من الأمير وسيلة ندخل بها مكة » . فوعدنى خيرا ثم أجلسنى ، وجعـل يسألنى عن حوادث مرت بنا قديما وأمور يهمه الاطلاع عليها ، وكلما هممت بالنهوض أقعدنى حتى طال بى الجلوس .. وبينما كنت أهمّ بالنهوض سمعنا وقع أقدام خارج الخيمة على غير انتظار ، فأقعدنى صاحبى وخرج وهو يقول : « من الرجل ؟ » فأجابه : « أنا عرفجة » وأنا أعرف رجلا اسمه عرفجة كان يتردد على عامل المدينة ، وكنت اذا ذهبت الى دار الامارة رأيته . فخرجت لأتحقق منه ، فرأيت الرجل ملثما ، ولكننى تحققت انه هو بعينه من صوته وقامته »

* * *

وعندما قال ذلك بلال ، استعاد حسن ذكر الصـوت الذى سمعه من الرجل حينما أناخ الجملين فتذكر انه يشبه صوت عمه عرفجة ، فبغت واستغرب مجيئه فى هذا الليل ، وتبادر الى ذهنه انه ربما علم بقدومه فجاء للوشاية به لدى ابن الحنفية .. ولكنه استبعد ذلك لعلمه انه ليس على وجه البسـيطة رجل يعرف بخروجه من المدينة غير سليمان وأبيه وخادمه بلال وهو معه . ثم هب ان عرفجة عرف بمسيره الى مكة ، فمن أخبره انه فى هذا الشعب .. فاستبعد حسن أن يكون قد جاء المكان لأجله .

ولكنه عاد الى التفكير فى الهودج ، وقال فى نفسه : « لا يبعد أن تكون سمية فيه ، لأن عرفجة غير متزوج .. وليس عنده من النساء الا ابنته » ولما تصور سمية فى ذلك الهودج ، خفق قلبه وتصاعد الدم الى وجهه .. كل ذلك وبلال واقف بين يديه ينتظر اشارته لاتمام حديثه

* * *

فقال حسن : « وهل عرفت الغرض من قدوم هذا الرجل فى هذا الليل ؟ »

قال بلال : « كلا يا مولاى لأنى رأيته يخاطب صاحبى همسا ، فشعرت انه قد آن لى أن أبرح ، فرجعت .. ولما رآنى صاحبى خارجا نادانى اليه ، وقال : « موعدنا غدا ان شاء الله » فعلمت انه لا يزال على وعده ، فأتيت على أن أنام بالباب ولا تشعر أنت بى الى الصباح » ..

فقال حسن : « وما الذى رأيته فى هذا النائم بجانب الجمل؟ »

قال بلال : « حالما دنوت منه عرفت انه قنبر خادم عرفجة ، وهو عبد سمج الخلق فظ الطبع يعرفه أهل المدينة بذلك »

قال حسن : « وما ظنك بمن فى الهودج ؟ »

قال بلال : « لا أظنه هودجا وانما هو محفة .. ولا يبعد أن يكون فيها بعض النساء ، أو ربما كانت فيها ابنته سمية لأنه ليس له سواها » ..

- ٤٨ -

حديث

فلما سمع حسن اسم حبيبته تجددت أشجانه ، وتذكر ان بلالا لايعلم شيئا من أمره مع سمية .. فضاقت نفسه عن كتمان سره ، ولكنه تجلد وقال : « أتظنه يحمل ابنته معه الى هـذه البلاد فى هذه الأحوال ؟ »

قال بلال : « لا أخاله يفعل ذلك ، ثم هب انه حملها فلا أظنه كان يتركها هكذا محبوسة فيه ولا نسمع لها صـوتا ، واذا فرضنا انها نائمة فالمحفة لا تكفى للنوم لصغرها .. »

فاطمأن بال حسن من قبيل سمية ، ولكنه ظل منشغل الخاطر بأمر المحفة ، فأراد أن يعود الى الاستفهام ، فاذا ببلال قد ابتدره بغتة وقال : « لا ، ليس فى المحفة فتاة ولا امرأة ، لقد تذكرت الآن ان لهذا الرجل محفة قد احتفظ بها فى منزله ، وهو لا يطلع أحدا على ما فى باطنها .. فلعلها هى تلك المحفة ، وأهل المدينة مشتاقون لمعرفة سرها »

فازداد حسن قلقا لمعرفة سر هذه المحفة ، ولكن هذا القلق تبدد فى غمرة القلق على سبب مجىء عمه فى هذا الليل . فسكت برهة ، ثم قال : « متى نذهب الى ابن على ؟ »

قال بلال : « عند طلوع الشمس »

فذهب حسن الى الفراش ، ورجع بلال الى الموضع الذى كان نائما فيه .. وقضيا مابقى من الليل بين نوم وتقلب وهواجس ، ولما طلع النهار نهضا وخرجا الى الخيام .. فالتفت حسن أولا الى الجملين وراء خيمته فلم يجد لهما أثرا ، فظن ان عرفجة سافر .. فمشيا وتأملا فى تلك الخيام فاذا هى على مرتفع من الأرض متشعب وللجمال مسارح ، والمكان أشبه ببلد صغير وقد خرج الخدم لتسريح الجمال وعلفها وعلف الخيول ..

فسارا حتى أتيا خيمة الأمير فاذا هى من الأدم ، ولكنها واسعة تسع عشرات من الناس ، وهى ترتكز على عمد عديدة .. ورأيا باب الخيمة مسدلا، فعلما ان محمدا يبحث فى أمر سرى.. فتحولا الى خيمة صاحب بلال ، وهى ملتصقة بخيمة الأمير .. فلما دخلا عليه رحب بهما وأدخلهما ، وهو يشير اليهما أن لا يتكلما . فدخل حسن ونظر من كوة فى تلك الخيمة تطل على خيمة الأمير، فرأى محمدا جالسا وبين يديه رجل قصير القامة عرف حسن — للتو — انه عرفجة . فقال فى نفسه : « هذه فرصة لا ينبغى أن نضيّعها ، بل يجب أن نطلع على سرّ هذه المقابلة » وتفرّس حسن فى محمد فاذا هو كبير الوجه وقد بانت عليه ملامح الشيخوخة وهو لا يزال كهلا ، ولكنه كان يخضب لحيته بالحناء والكتم (١) فلا يظهر فيها الشيب ، على ان دلائل القوة كانت لا تزال ظاهرة فى كفيه ووجهه وعينيه

---

(١) ابن خلكان — الجزء الاول

وخشى حسن أن يكون فى بقائهما هناك ما يلام عليه صاحب بلال فأراد أن يعتذر منه ، فتظاهر بالرغبة فى الخروج ، فقال له : « تفضَّل يامولاى واجلس ، فانى أحب الاطلاع على غرض هذا الرجل من هذه المقابلة السرية التى يزعم انها ذات بال ، ولقد ساءنى بخشونته حتى صرت لا أبالى بكتمان سره »

* * *

ففرح حسن لاستياء صاحب الخيمة من الرجل مما سيهيىء له السبيل لتحقيق بغيته ، ولكنه تظاهر بعدم اكتراثه بالاطلاع على السر .. وجلس بحيث يَرى ولا يُرى ، فرأى عرفجة جالسا بين يدى ابن الحنفية باحترام وهو يخاطبه .. ومحمد مصغ لما يقوله . فكان فى جملة ما سمعه من قول عرفجة : « أنت تعلم أيها الامام انك أولى الناس بهذا الأمر بعد الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة . ان الخلافة بعدهما لك ، فأنت وحدك ولى هذا الأمر ونيس بنو أمية الا مختلسين .. »

وظل محمد صامتا لا يتكلم ، فظنه عرفجة راضيا بما يقول ، فاستأنف الكلام قائلا : « وانت تعلم يامولاى ان المختار ـ رحمه الله ـ قد قام بالدعوة لك ، ولكنه لم يثبت فى عهده ، فلم يوفقه الله الى أمره ، وان السر الذى كان يحاول أن يقوم به لجدير أن يقوم به واحد تنتدبه أنت لئلا يبقى الناس على ضلال من دنياهم فيخسروا أخراهم » ..

- ٤٩ -

سر المحفة

وظل محمد صامتا يطرق فى البساط كأنه يفكر فى أمر آخر ، وظل عرفجة فى حديثه فقال : « ولا يخفى على مولاى الامام ان بنى أمية الآن منصرفون الى عبد الله بن الزبير ، وأكثر جندهم مجندون فى حصاره ، والعراق خال ممن يدعو أهله الى الحق .. فاذا انتدبت أحدا وسيّرته الى العراق يدعو الناس اليك ، كان ذلك من سداد الرأى .. »

فرفع محمد رأسه ، وقال : « ان الفشل لم يأتنا الا من العراق ، ففى العراق قتل أبى وأخى غدرا وخيانة »

فزحزح عرفجة نفسه باحتشام على البساط ، وقال : « ان السبب فى ذلك الفشل لم يبق منه شىء الآن . وانى أرى السبل قد تمهدت ، والوقت قد دنا لظهور الحق »

فقال محمد : « ومن ترى يليق لهذه الدعوة ؟ »

قال عرفجة : « الذى تنتدبه أنت هو الرجل ، لأنك ستضع سرّك بين يديه ، وتعهد اليه بالنداء بصوت الله .. »

قال محمد : « ومن تشير علىّ بانتدابه ؟ »

فسكت عرفجة وأطرق وهو يخشى أن يشير بانتداب نفسه لهذه المهمة فيسىء محمد به الظن ، فلبث برهة صامتا ثم قال :

« ان هذا الانتداب لا يكون الا بالهام الله سبحانه وتعالى ، فالذى يلهمك الله به فهو الذى تنتدبه »

قال محمد : « واذا فرضنا ان الله لم يلهمنى ؟ .. »

فارتبك عرفجة فى أمره ، وتهيب من التصريح له بغرضه . وكان غرضه الأول من هذا الأمر كسب المال ، فقد باع ابنته للحجاج وجاء لنصرة عدوه

وكان محمد بن الحنفية يومئذ على الحياد ، وقد طلب الحجاج منه أن يبايع لعبد الملك ، وطلب منه ابن الزبير أن يبايع له ، فأبى البيعتين .. ولبث فى انتظار ما يكون من أمر مكة وحصارها ، فاذا لم يكن بد من بيعة فانه يبايع الغالب

وكان محمد عاقلا لا يجهل عجزه عن القيام بدعوة جديدة بعد هذا الفشل ، ولكنه كان يساير عرفجة فى حديثه وهو لا ينوى غير الحياد

أما عرفجة فلم ير بدا من الاجابة ، فقال : « اذا لم تشعر بالهام فانتدب صاحب الكرسى »

فقال محمد : « وأى كرسى ؟ »

فنهض عرفجة للحال وتحول الى باب الخيمة ونادى : « قنبر » ورجع ..

وبعد هنيهة دخل قنبر ، وعلى كتفه المحفة وعليها ستار ، حتى وضعها بين يدى محمد وخرج . فقال محمد : « وما هذا ؟ »

قال عرفجة : « هذا تابوت العهد .. » قال ذلك وأخرج من

جيبه مفتاحا ، ورفع الستار عن المحفة وجعل يعالجها بالمفتـاح حتى فتحت .. فرفع سقفها وحسن ينظر ويتطاول بعنقه ، وهو يعجب من غدر هذا الرجل وخبثه . ثم ما لبث أن رآه يمد يده الى داخل المحفة يستخرج شيئا مغشى بالديباج ، فرفع الديباج عنه فاذا هو كرسى خشبه يلمع كالمرآة

وتقدم عرفجة بالكرسى حتى وضعه بين يدى محمد وهو يقـول : « أليس هـذا كـرسى الامام على الذى انتصر به المختار ؟ .. »

فابتسم محمد وقال : « ولكنه فشل بعدئذ .. »

قال عرفجة : « فشل لأنه لم يخلص النية فى سعيه »

فقال محمد : « وهل اذا انتدبناك لذلك تخلص النية ؟ »

قال عرفجة وقد بان السرور فى أسرَّة وجهه : « كيف لا ؟.. وهذه بغيتى .. وأكون قد نصرت الحق وأهله »

— ٥٠ —

الفشل

فعجب حسن لقبول محمد هذا الأمر مع علمه بسوء نية عرفجة وحديث الكرسى ، ولكنه ما لبث أن سمع محمدا يقول له : « ولكن دعوة أهل العراق تحتاج الى المال ، لأن بنى أمية انما غلبوا أخوى بالمال ، وسيغلبون اللائذ بالكعبة بالمال أيضا ، فان

ديارهم غنية وعندهم المال كثير ينفقونه فى ابتياع الأحزاب ، فاذا كنت صاحب مال فانى أرجو لك النجاح »

فلما سمع عرفجة كلام محمد أسقط فى يده وخاب ما أمّله ولم يدر بماذا يجيب ، ولكن محمدا لم ينتظر جوابه فقال له : « ثم أتيتنى بهذا الكرسى الذى تزعم انه كرسى والدى وهو لبعض الزياتين . وتزعم انى انتدبت المختار ليدعو لى وهو وهم باطل ، لأن ذلك الثقفى انما انتدب نفسه ليشبع بطنه . واذا كنت أنت جائعا فالتمس بابا آخر غير هذا .. » قال ذلك وقد ظهر الغضب والجد فى وجهه ..

فارتبك عرفجة فى أمره وتحقق من فشل مهمته ، وقد قضى بضعة أعوام فى تنميق ذلك الكرسى وصقله ، وشغل بال أهل المدينة بكتمان ذلك السر أعواما ، وكان لا يشك فى انه اذا عرض هذا الأمر على محمد بن الحنفية فانه سيجد منه قبولا صريحا ، فيبتز منه المال ليشبع مطامعه وشرهه . ويضيف ذلك المال الى ما قبضه ويقبضه مهرا لابنته من الحجاج .. ومن الناس من لا يتورع عن شىء فى سبيل الكسب ، وهم فى الغالب أصحاب الاحساس الأصم والعواطف الميتة . ومن كان هذا طبعه ، وكان ذا دهاء وسياسة ، لا يعسر عليه عمل مهما كان خطيرا . ولكن منهم من تموت عواطفهم ويتبلد احساسهم ، ويكونون مع ذلك ضعاف الرأى .. فهؤلاء يندر أن يوفقوا فى سعى كبير . ويغلب الفشل فى مساعيهم ، كما حدث لعرفجة فى أمر الكرسى

فلما تبين عرفجة الغضب فى عينى محمد عمد الى الخديعة ، فوقف بين يديه وهو يظهر الاستغراب مما شاهده ، وقال : « عجلت يا مولاى بالحكم علىّ ، وأنا انما أدعوك الى أمر يعود النفع فيه لك ولأهل بيتك .. ولست ألتمس على ذلك أجرا ولا شكورا .. » .

فقطع محمد كلامه وهو ينظر اليه شزرا ، وقال : « أتظن أن أمرك يخفى علىّ ، والعاقل يقرأ المكر والخديعة فى عينيك . ولولا حرمة الجوار لألحقتك بالمختار ، وألحقت بك بنى ثقيف »

ثم نادى : « سعيد »

فنهض صاحب بلال وهو يكاد يطير من الفرح ، وأسرع حتى دخل على محمد .. وحسن وبلال ينظران وكلاهما مسرور

— ٥١ —

الرجوع

فلما وقف سعيد بين يدى محمد ، قال له : « ألق هذا الكرسى فى النار حالا .. واخرج هذا الثقفى من خيمتى ، وليقم حيثما شاء .. واذا رحل فزودوه بما شاء »

فلما سمع عرفجة ذلك خرج من تلقاء نفسه ، وهو يظهر الأسف لأنه نصح محمدا ولم يثمر نصحه فيه ، وتبعه سعيد حتى خرج من الفسطاط ، فجعل يبحث عن عبده قنبر فلم يجده .. فسأله

سعيد عما يبتغيه فقال : « انى راحل الى بلدى ، وقد أسفت لأن الامام محمدا لم يقدّر غايتى » قال ذلك وهو يبدى اللطف خوفا على حياته . فوجد سعيد فرقا كبيرا بين مقابلته الخشنة ساعة وصوله فى مساء الأمس وبين ما يبديه من التزلف .. وذلك هو شـــأن أمثال هــذا الرجل ، فان الذين يظهرون الكبرياء ويستبدون بأصاغر الناس يســتولى عليهم الذل والصــغار ان وجدوا عنفا من كبير ، لأن ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم ينبع من نفس كبيرة ، وانما هو وليد احساس بالنقص وضعف الرأى . وأما كبير النفس فلا يسوم الناس اهانة مخافة أن يوجه اليه مثلها ، ونفسه تأبى ذلك

فلما رأى سعيد تزلف عرفجة رق له ، فعرض عليه النزول فى دار الضيافة فاعتذر برغبته فى الرجوع ، ونادى قنبرا وكان قد عاد الى المكان الذى انتقلوا اليه فى ذلك الصباح ، فجاء وقد ذل كما ذل سيده .. فركب عرفجة جملا وركب قنبر الجمل الآخر ، وخرجا من الشعب يلتمسان معسكر الحجاج

فلما بعدا عن الخيام أخذ عرفجة يتوعد محمــدا بالسوء عند الحجاج ، ويقذفه بكل قبيح من السباب واللعن ليستر ما بدا لعبده من فشله . ولو خشى أن يبلغ ذلك السباب محمدا لما قاله

أما سعيد فانه عاد الى فسطاط محمد ، وتناول الكرسى وألقاه فى النار .. وعاد الى حسن وبلال ، وكانا لا يزالان فى خيمته ، وقد أبرقت أسرَّة حسن من الفرح . فلما دخل سعيد وأخبرهما

بخروج عرفجة من الخيام ، عاد حسن الى التفكير فى الذهاب الى مكة ، فسأل سعيدا عن ذلك فقال : « أظننى اذا سألت مولاى الامام عن هذا الشأن ، أمر بذهابى معكما لأنى تعودت الذهاب اليها من قبل ، وأكثر الطلائع يعرفوننى » قال ذلك ودخل على محمد يستأذنه فى الذهاب معهما ، فأذن له

فعاد سعيد اليهما وأخبرهما ، فخرجا الى دار الضيافة ليتأهبا للسفر .. وبعد قليل جاءهما سعيد على جواد ، فركبوا وساروا يلتمسون مكة من طريق يعرفه سعيد ، وكانت الشمس قد تكبدت السماء ..

— ٥٢ —

يا شوقى .. والحبيب قريب

وبينما هم يسيرون ، وحسن يفكر فى مهمته وكيف يدخل على عبدالله بن الزبير بدون كتاب خالد ، رأوا غبارا يتصاعد فى عرض الأفق من جهة طريق المدينة ، ثم انقشع الغبار عن أعلام تخفق وخيول تركض وجمال تجعجع .. فلما اقترب الركب تفرس حسن فى الأعلام والناس ، فعلم انهم من أنصار بنى أمية وعلم انهم قادمون من المدينة ، وتذكر البريد الذى جاء المدينة يوم خروجه منها ، فرجح لديه انها نجدة للحجاج

ولكنه استغرب وصولها فى ذلك اليوم مع انه بدأ السير

قبلها ، والسيارة كلما زاد عددهم ثقلت خطواتهم ، فظن نفسه مخطئا فى حكمه عليهم .. فأعاد النظر الى الرايات والملابس فتحقق انها لأهل المدينة والقبائل القاطنة بجوارها فقدّر أن الحملة قد سارت بسرعة كبيرة مما يدل على اضطرار الحجاج اليها .. فترجّل حسن ورفيقاه والتجأوا الى مكان يرون الركب منه ولا يراهم أحد ، وجعل حسن يتفرس فى وجوه الناس

فمرَّ الفرسان وحملة الرايات أولا ، ثم المشاة ثم أحمال الزاد والمئونة ، وأخيرا رأى هودجا يقوده عبد ويسوقه عبد ، والى كل من جانبيه فارس . ولم ير فى تلك الحملة هودجا غيره ، وكان من عادة العرب فى الجاهلية وأوائل الاسلام اذا خرجوا الى حرب ، أن يحملوا معهم غالبا النساء والأولاد .. فلما تمصروا قلّت هذه العادة عندهم . فاستغرب حسن أمر هذا الهودج ، وتبين من الاحتفاء بأمره انه لبعض الأمراء .. وما درى انه يقل حبيبته التى سلبت لبّه وانهم يحملونها الى سواه .. ولو عرف ذلك لطارت نفسه شعاعا اليها . ولو صح ما يتغزل به الشعراء من مشاعر الحب واتصال القلوب عن بعد ، لاضطرب حسن وخفق قلبه ودلّه فكره على ساكنة الهودج .. ولكن الشعراء يقولون ما لا يفعلون ، أو لعل سيال الحب لا يخترق جدار الهودج مثلما تخترقه الكهرباء والحرارة وسائر القوى الطبيعية !

لقد ظلوا وقوفا يراقبون مسير تلك الحملة حتى رأوها تحولت الى جبل أبى قبيس ، فتحققوا انها نجدة المدينة الى الحجاج

لعلمهم ان الحجاج قد ضرب خيامه فى تلك الأنحاء

- ٥٣ -

الكعبة والمنجنيق

ومشوا حتى أقبلوا على مكة ، وسعيد يركض جواده ، وحسن وبلال يسيران وراءه .. فلما أشرفوا على مكة رأوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها ، فاقترب اليهم بعضهم .. فتقدم سعيد حتى استقبلهم وقال لهم انهم ذاهبون لغرض يخص محمد ابن الحنفية فأذنوا لهم وقد عرفوه ، فدخلوا مكة وحسن ينظر عن بعد الى جبل أبى قبيس ، فرأى فيه خياما وحولها الناس وقد صغرت أشباحهم لبعد المسافة . وبعد قليل وصلوا الى تل فيه بعض المدافن ، فقال سعيد : « ها نحن فى الحجون » فوقف حسن على مرتفع ونظر الى مكة ، فاذا هو قد أشرف على المسجد الحرام والكعبة فى وسطه . وقد زار مكة من قبل ورأى الكعبة ، لكنه رآها فى ذلك اليوم أكبر مما يعهدها ، ورأى على سطحها أشياء غريبة كالفرش والأثاث ، فوقف هنيهة وسعيد واقف معه ، فلما رأى ذلك قال : « انى أرى الكعبة على غير ما عهدتها ، كأنها كبيرة وكأن عليها فرشا وأثاثا ، وكأنى أرى فى أرض المسجد خياما .. »

فقال سعيد : « لقد صدق ظنك ، أما الكعبة فانها الآن أكبر

مما تعهدها لأنها احترقت فى الحصار الماضى على عهد يزيد بن معاوية ، فأعاد ابن الزبير بناءها ووسَّعها الى ما كانت عليه فى الزمن الأول قبل أن تبنيها قريش (١) وأما ما تراه على سطحها فهو ألواح الساج ؛ وضعها عبدالله هناك ووضع فوقها الفرش والأثاث وقاية لها من حجارة المنجنيق (٢) لأن الحجاج نصب المنجنيق على جبل أبى قبيس ، وجعل يرمى الكعبة بالحجارة نكاية فى ابن الزبير .. ! »

فقطع حسن كلامه ، وقال : « أعوذ بالله من ذلك .. يرمون بيت الله بالحجارة .. »

فقال سعيد : « هذا عمل الحجاج ، فانه رجل عات لا يبالى بما يقف فى سبيل مقاصده .. فقد رأيناه يرمى الكعبة بالمنجنيق والناس يطوفون حولها . واتفق فى الحجة الماضية أن عبدالله بن عمرو حج ، وكان مولاى الامام محمد فى جملة الحجاج ، فكنا نطوف والحجارة تتساقط علينا .. فبعث ابن عمرو الى الحجاج يقول له : « اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس ، فانك فى شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا ، وان المنجنيق قد منعهم من الطواف .. فاكفف عن الرمى حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة » فأوقف الرمى حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا ، ولم يمنع ابن الزبير الحجاج من الطواف والسعى . فلما فرغوا من

---

(١) مقدمة ابن خلدون

(٢) ابن الاثير ــ الجزء الرابع

طواف الزيارة ، نادى منادى الحجاج : « انصرفوا الى بلادكم ، فانا نعود الى رمى الحجارة على ابن الزبير الملحد » . وبلغنى انه أول ما رمى بالمنجنيق الى الكعبة ، أرعدت السماء وأبرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة ، فأعظم ذلك رجاله وأمسكوا أيديهم.. فأخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيده ، فوضعها فيه ورمى بها معهم . فلما أصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من أصحابه اثنى عشر رجلا ، فقال الحجاج لرجاله : « يا أهل الشام لا تنكروا هذا ، فانى ابن تهامة وهذه صواعقها ، وهذا الفتح قد حضر فأبشروا » فلما كان الغد جاءت الصاعقة فأصابت من أصحاب ابن الزبير عدة ، فقال الحجاج : « ألا ترون انهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلافها ؟ .. »

— ٥٤ —

الجوع والضيق

فعجب حسن لدهاء الحجاج وعتوه ، وساق جمله حتى نزلوا أسواق مكة ، فقال حسن لسعيد : « لقد وصلنا مأمننا ، فاذا رأيت الرجوع فارجع جزاك الله خيرا »

فقال سعيد : « بل أوصلكما الى المسجد ، فأطوف طوفة وأعود » ..

ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية ، فقال سعيد : « هذا

صوت حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الكعبة .. انظر الى حَمَام الحرم كيف يتطاير اجفالا من صوت وقوعه ! »

وأحس حسن بالجوع لأنهم خرجوا من الشعب ولم يأكلوا ، فقال لسعيد : « بالله الا أخذتنا الى أحد باعة الأطعمة فنأكل شيئا » فضحك سعيد وقال : « ان الأطعمة قليلة فى مكة والناس فى ضنك شديد من الجوع ، فقد بيعت الدجاجة بعشرة دراهم ، والمد الذرة بعشرين درهما ، وقد سمعت أن ابن الزبير اضطر لما أصاب رجاله من المجاعة أن يذبح فرسه ويقسم لحمها بينهم(١) » قال ذلك وأدنى فمه من أذن حسن ، وقال بصوت منخفض : « ولكننى أعلم علم اليقين ان بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا اختزنها خوف المجاعة ، ولولا ذلك لما استطاع الصبر على هذا الحصار ، والحجاج ورجاله ينتظرون فراغ ما عنده من المئونة ليستسلم لهم (٢) »

فقال حسن : « لا بأس من ابتياع شىء نأكله ، ولو كان غاليا .. »

وأشار الى بلال فانصرف الى السوق وعاد بشىء من خبز الشعير والسويق ، فأكلوا على عجل وساروا حتى بلغوا المسجد الحرام ــ وبلال يقود الجمل وراءهم ــ ودخل حسن وسعيد الى المسجد وهما يتظاهران بالرغبة فى الطواف ، ثم سأل حسن عن ابن الزبير فقيل له انه يصلى بجانب الكعبة ، فسأل عما يفعل

(١) ، (٢) ابن الاثير ــ الجزء الرابع

بعد الصلاة ، فقالوا : « انه يذهب الى بيته » .. فدله سعيد على بيته بأصبعه ، وودعه وعاد الى الشعب

فرأى حسن أن يصلى ركعتين ، ويطلب الى الله أن يرشده الى الصواب . فصلى ثم جلس فى أحد أطراف المسجد ينتظر الفراغ من صلاة عبدالله ، وجعل يفكر فى أمره والمهمة التى جاء من أجلها فى ذلك الوقت .. وما هو وقت خطبة ولا زواج . ثم جرته هواجسه الى ما كان من أمر سمية وانتظارها رجوعه ليتزوجا .. ثم انتقل الى التفكير فى عرفجة وما كان من أمره فى ذلك الصباح ، وخيل له ان الفشل الذى أصابه سيكون وسيلة للتقارب بينه وبينها . وفكر فى مصير عرفجة بعد خروجه من عند ابن الحنفية ، فظنه عاد الى المدينة لأنه لا يستطيع الغياب عنها طويلا وليس عند سمية أحد

وكان حسن وهو فى تلك الهواجس لا يرى النـاس يدخلون المسجد الا قليلا ، ثم ما لبث أن سمع قرقعة وأحس ان شيئا هوى بالقرب منه ، وسمع رفرفة أطيار .. فالتفت فرأى حجرا كبيرا أصاب الكعبة وسقط على الأرض ، فعلم انه من أحجار المنجنيق وقد أجفل حمام الحرم من وقعه فتطاير ، ثم عاد فوقع على الكعبة وعلى جدران المسجد . ولم ير الناس يهتمون بتلك الحجارة لأنهم تعوّدوها لكثرتها ..

فتذكر حسن للحال ان عبدالله يصلى بجوار الكعبة ، فاستغرب كيف يعرض نفسه لحجارة المنجنيق.. وخشى أن يكون ذلك الحجر قد أصابه وأضر به حتى لم يعد يستطيع النهوض ، وخاصة بعد

أن طال وقت صلاته .. فانشغل خاطره عليه . فنهض ومشى فى فناء المجلس يلتمس الكعبة حتى مرَّ بالحطيم وحجر اسماعيل ، ودار نحو بئر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الأخرى بضعة رجال وقوفا . فأقبل عليهم ليسألهم عن عبد الله ، فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلا ساجدا وقد استقبل الأرض بوجهه ، ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد كأنهما واقفتان على حائط والرجل لايتحرك . فخيل له انه ميت .. فاستغرب وقوف الناس بالقرب منه فى غير حرج ولا اهتمام . فتقدم الى أحدهم فحياه ، وأشار اشارة يستدل منها على دهشته من أمر ذلك الساجد ، فابتسم الرجل وقال : « يظهر انك لاتعرف من هو الساجد ؟ »

قال حسن : « كلا .. »

قال الرجل : « هو أمير المؤمنين »

***

ففهم حسن انهم يريدون عبد الله بن الزبير ، فزاد عجبه وقال : « وما بالى أرى الحمام يقع على ظهره وهو لا يتحرك ؟ »

قال الرجل : « يظهر انك غريب فى مكة .. اعلم ان مولانا أمير المؤمنين أكثر الناس صلاة وسجودا ، وكثيرا ما رأينا العصافير تقع على ظهره فى أثناء الصلاة تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده ، (١) ولهذا السبب ترى الحمام يقع عليه »

فقال حسن : « انه سجود طويل »

---

(١) ابن الاثير — الجزء الرابع

فتقدم رجل آخر وكان واقفا هناك ، وقال : « يظهر انكم لا تعلمون من تقوى أمير المؤمنين الا قليلا . وأما أنا فقد صحبته طويلا ، فرأيته يقضى لياليه على ثلاث حالات : ليلة يقضيها قائما الى الصباح ، وليلة راكعا ، وليلة ساجدا . أما صومه ، فانه يصوم الدهر كله الا ثلاثة أيام يفطرها فى كل شهر»

فدهش حسن لهذه التقوى ، وقال فى نفسه : « يجدر بمن كان مثل هذا أن يكتب له النصر »

***

وفيما هم وقوف ، سمعوا رعدا علموا انه صوت المنجنيق فجفلوا ، ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقط الى الأرض بجانب ابن الزبير ، فنفر الحمام عنه وهو لايزال ساكنا لايتحرك ، فذهل حسن وقال لصاحبه : « ألا تخافون على حياة أمير المؤمنين ؟ »

قال الرجل : « لقد طالما نبهناه الى ذلك ، وكثيرا ما وقع له مثل ما تراه وهو لا يبالى » ..

فقال حسن : « أرجو أن يحرسه الله »

فقال الرجل : « ان الله حارسه لفرط تقواه وكثرة عبادته ، فانه لا يعجزه باب من أبواب العبادة ، فقد نزل فى العام الماضى سيل طبق البيت ومنع الناس من الطواف ، فطاف أمير المؤمنين سابحا » (١)

---

(١) ابن الاثير – الجزء الرابع

— ٥٥ —

ابن الزبير وابن صفوان

فتأمل حسن فى وجه محدثه ، فاذا هو يتكلم وملامح الاهتمام بادية على محياه .. لايدرى بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عنده ولا مقدار حبه له ، ورآه موجها نفسه اليه يتوقع سؤالا يسأله اياه عن ابن الزبير ليشرح له ما يعلمه من تقواه وشجاعته وصدق دعوته .. قرأ حسن كل ذلك فى عينى الرجل ، وتأكد مما رأى انه من أشد أنصار ابن الزبير غيرة عليه ، وتبين له من قيافته وهندامه انه من وجهائهم . وزاد اعتقادا فى وجاهته لما آنسه من لطفه ودعته ، لأن الانسان يزداد لطفا ووداعة بازدياد منزلته رفعة .. فاذا رأيت جفاء وكبرياء من أحد الناس وأنت لاتعرفه ، فاعلم انه دنىء الطبع ، ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر أو ما فى خزائنه من الأموال الطائلة .. فان دناءة الطبع تظهر فى جفائه وكبريائه ..

وبينما حسن يفكر فى ذلك ومحدثه واقف الى جانبه ينتظر أمره ، سمعا عبدالله ينادى : « ابن صفوان » ثم رأى الرجل الذى كان يخاطبه بغت ، وأسرع الى عبد الله يقول : « لبيك يا أمير المؤمنين »

ففهم حسن انه عبد الله بن صفوان الجمحى ، وكان قد سمع

عن حبه لابن الزبير واستماتته فى نصرته ، وهو رجل فى نحو الستين من عمره عريض الجبهة ، خشن الملامح ، عريض الفكين مما يدل على الثبات والقوة ، أصلع الجبهة ، ثم التفت حسن الى ابن الزبير .. وتهيأ للسلام عليه اذا مر بجانبه ، فاذا هو طويل القامة عريض الكتفين لحيته غزيرة فى أسـفل ذقنه خفيفة فى عارضيه ، (١) وهو ما يعبرون عنه بالكوسج . وتفرس فيه وهو يصلح عمامته عند نهوضه من الصلاة ، فرأى شعره جمة مفروقة طويلة (٢) وتأمل فى وجهه ، فرأى الهرم قد بدا فى ملامحه لفرط ما قاساه من أمر ذلك الحصار ، وشدة ما أحاط به من الضيق وهو فى الثالثة والسبعين من عمره لأنه أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة ..

وتهيأ حسن للسلام عليه وتقبيل يده ، ثم رآه تحول من جهة أخرى ولم يلتفت الى أحد من الوقوف ، ومشى مشية ثابتة تدل على وقار وجلال . وسار ابن صفوان فى أثره وقد ثبت عليه عينيه وكل عواطفه . فلما مشى ابن صفوان ، لحظ حسن فى مشيته عرجا ، (٣) وعلم انهما سائران الى البيت .. فاقتفى أثرهما وهو يفكر فى مخاطبة عبد الله فى الأمر الذى جاء من أجله ، لكنه تهيب واستحى لما رآه فيه من الاضطراب والضيق . على انه عول على اغتنام الفرصة ومخاطبته فى خلوة ..

(١) اسد الغابة ــ الجزء الثالث — (٢) ابن الاثير ــ الجزء الرابع

(٣) العقد الفريد ــ الجزء الثالث

فخرج عبد الله من المسجد ، وابن صفوان يتبعه ، وحسن فى أثرهما . والناس حيثما لقوه وقفوا له وحيوه ، حتى أشرفوا على دار واسـعة قد غصت بالوقوف من الناس ، وخارجها مرابط الخيول والمعالف . فلما أقبل عبد الله على الدار ، توجهت أبصار الناس اليه وأفسحوا له الطريق .. فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى أشرف على مقعد فى صدر القاعة فجلس عليه ، وجلس الى جانبه شاب كثير الشبه به ظنه ابنه ، ولكنه لم يعرف أى أولاده هو ؛ ثم جاء شابان آخران جلسا الى جانبه الآخر ، وجلس الناس بين يديه لايفوه أحد بكلمة لفرط ما أحاط بهم من الأمر العظيم . ولبثوا هنيهة كأن على رؤوسهم الطير .. أما حسن فرأى نفسه غريبا بين هذه الجموع . فأحب الخروج ، فرأى ابن صفوان يشير اليه من أحد جوانب القاعة أن « أقبل » فمشى اليه وجلس الى جانبه ، وقال له : « يسرنى انى قد عرفتك اليوم ولطالما سمعت بك » فقال ابن صفوان : « فهل تنتسب لأعرفك أنا أيضا ؟ »

قال حسن : « سأطلعك على أمرى فيما بعد ، اذ لا غنى لى عن معونتك » ..

وكانا يتكلمان همسا والناس سكوت ، وربما اضطر أحدهم الى السعال فأمسك نفسه . فالتفت حسن الى ابن صفوان وقال له : « أى أبناء أمير المؤمنين هؤلاء ؟ »

قال صفوان : « ان الذى تراه الى يمينه هو أخوه عروة بن الزبير .. والاثنان الجالسان الى يساره ولداه حمزة وحبيب ،

وترى على مسافة منهما شابا مطرقا فى الأرض هو ولده الثالث واسمه مثل اسم جده .. ان هذا الشاب جدير بأن يكون ابن أمير المؤمنين » قال ذلك واستأذنه قائلا : « لابد لى من أن أبرح الآن لأمر يدعونى الى ذلك ، فاننا فى مجلس ذى بال اليوم.. وستسمع وترى ، فان هؤلاء من قريش وهم رؤساء القبائل» ثم تحول حتى وقف على مقربة منعبدالله ، فأشار اليه عبدالله أن يجلس ..

- ٥٦ -

تدهور الحال

ثم وقف أحد الجلوس ، وخاطب عبد الله قائلا : « يا أمير المؤمنين اننا بحمد الله نعتقد بصدق دعوتك وانك على الحق . وقد قاتلنا معك حتى لا تجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك ما تريد على أن نموت . وانما هى احدى خصلتين اما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ، واما ان تأذن لنا فنخرج »

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق من ضعف القوم ، وعلم انهم صائرون الى الفشل . ثم سمع ابن الزبير يقول : « ألم تبايعونى على أنفسكم وأموالكم ؟ .. »

قال الرجل : « بلى ، ولكنا نرجو أن تقيلنا بيعتنا ، اذ لا نرى فائدة من البقاء على البيعة »

فقال عبدالله : « لقد كنت عاهدت الله ان لايبايعنى أحـد فأقيله بيعته الا ابن صفوان »

فالتفت حسن الى ابن صفوان ، فرآه قد وقف بغتة والحمية والغيرة تنبعثان من عينيه ، وقد ظهر التأثر فى وجهـه ، وقال : « أما أنا فانى أقاتل معك حتى أموت بموتك ، وانها لتأخذنى الحفيظة أن أسلمك فى مثل هذه الحالة »

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى علت الأصوات وضج الناس ، وانقسموا الى حزبين وأكثرهم لايرون رأى ابن صفوان . فشق ذلك على حسن ودبت الحمية فى عروقه ، فوقف وارتجل قائلا : « بورك فيك يا ابن صفوان ، بورك فيك من رجل ، بايع وثبت فى بيعته ، ان أمير المؤمنين كما تعلمون أولى الناس بهذا الأمر. فعثمان ــ رحمه الله ــ قد استخلفه على الدار يوم مقتله ، فهو ولى عهده من ذلك اليوم ، (١) ومثلكم يفهم معنى الخلافة ولا يغره بهرج الدنيا . ألا ترون عبد الملك بن مروان كيف يستعين على هذا الأمر بالمال والرجال ؟.. وأمير المؤمنين انما يستعين بالصوم والصلاة . تلك هى خلافة الراشدين رحمهم الله أجمعين. ألم تسمعوا ماذا فعل عبد الملك يوم جاءه الخبر بالبيعة بعد موت أبيه مروان ؟.. أنتم تعلمون ان عبد الملك كان من فقهاء المدينة ، ولكثرة ما كان يظهره من التدين والتقوى سموه حمامة المسجد . فلما مات أبوه وبشر بالخلافة كان المصحف فى يده ، فأطبقه

(١) العقد الفريد ـ الجزء الثانى

وقال : « هذا فراق بينى وبينك » (١) أين هذا من سجود أمير المؤمنين وصلاته وصيامه مما لايخفى على أحد منكم . وفوق ذلك فان لأمير المؤمنين بيعة فى أعناقكم ، وأنتم جماعة قريش أهل الحماسة ، فكيف تغادرون أمير المؤمنين وهو فى هذه الحال ، أما لكم أسوة بابن صفوان ؟ .. »

وكان حسن يتكلم والعرق يتصبب من جبينه وقد امتقع لونه ، وهو يعتقد مع ذلك ان الوفاق أصبح عبثا .. ولكنه لم يستطع غير الانتصار للضعيف ، وكانت الأبصار شاخصة اليه لأنه غريب ولم يكن أحد منهم يعرفه . وكان عبد الله بن الزبير ينظر اليه ويعجب بغيرته . فلما فرغ من الكلام زادت الغوغاء ، فوقف رجل آخر وقال : « لقد نطقت بالصواب وان البيعة فى أعناقنا لاننكرها ، وما نحن بخارجين من بين يديه الا بأمره . ولكننا نرى القتال عبثا ومعنا من الرجال عشرة آلاف رجل ، وقد جعنا جميعا وعطشنا وقلّت مؤونتنا وذخيرتنا . وهذه منجنيقات الحجاج ترمينا من فوق الكعبة ، فهو لايبالى بحرمة هذا البيت . وقد نصب لنا الحجاج الآن راية الأمان .. فمن خرج اليها سلم ، فما بالنا لا نختار الطريق الأسلم » ، ثم التفت الرجل الى عبدالله ابن الزبير وقال : « اكتب الى عبد الملك بن مروان لنرى رأيه ، فلعلكما تنتهيان الى أمر فيه صلاح الحال » (٢)

فلما سمع عبد الله اسم عبد الملك بن مروان أجفل وتغير

---

(١) الفخرى (٢) ابن الاثير ـ الجزء الرابع

وجهه ، وقال : « كيف أكتب اليه ؟.. أبدأ بنفسى او أبدأ به ؟..
أأكتب من عبد الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ..؟ فوالله
لا يقبل هذا أبدا . أم أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من
عبد الله بن الزبير ..؟ فوالله لئن تقع الخضراء على الغبراء أحب
الىّ من ذلك (١) » قال ذلك وسكت .. ثم أطرق وأخذ يحك ذقنه

وسكت الناس ينتظرون رأيا جديدا ، فاذا بعروة بن الزبير
أخى عبد الله قد التفت الى أخيه وهو جالس بجانبه على المقعد ،
وقال له : « يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة »

فقال عبد الله وقد ظهر الغضب فى جبينه : « من هو ؟.. »

قال عروة : « الحسن بن على . فانه خلع نفسه وبايع معاوية » .
ولم يتم عروة قوله حتى رفع عبد الله رجله وضربه بها فألقاه
على المقعد .. فأجفل الناس من سقوط عروة ، وأعظموا غضب
عبد الله فتهيبوا ، ثم سمعوه يقول له : « ياعروة .. قلبى اذن مثل
قلبك ، والله لو قبلت ما يقولون ماعشت الا قليلا والا أخذت
الدنية . وان ضربة بسيف فى عز ، خير من لطمة فى ذل » ثم وقف
والتفت الى الجموع ولحيته ترقص فى وجهه من شدة التأثر ،
وقال لهم : « أنتم مخيرون فافعلوا ما تشاؤون ؛ وان رجلا يُجَرّ
الى الحرب بحبل لا يحارب .. وان الله وليّى ونعم النصير »
قال ذلك وأراد التحول ، فوقف ولداه عن يساره وهما : حمزة
وحبيب ، وقالا : « هل نحن مخيران أيضا ؟ »

(١) العقد الفريد — الجزء الثانى

فعجب حسن لما سمعه ، وقال فى نفسه : حتى أولاده تخلوا عنه ، والتفت الى عبد الله فرآه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما يتجلى فيهما من الدمع ، ثم قال : « نعم يا ولداه ، وأنتما أيضا فى حل .. امضيا واطلبا الحياة ولا تموتا » ثم اختنق صوته

فسكت ريثما ابتلع ريقه ، ونظر الى ابنه الثالث الزبير ، وقال له : « وانت يابنى اطلب لنفسك أمانا مع أخويك ، فوالله انى لأحب بقاءكم »

فوثب الزبير من مجلسه ، وقال ولم يبد على وجهه شيء من الخوف : « حاشا لله أن أتخلى عنك ، فما كنت لأرغب بنفسى عنك » (١)

— ٥٧ —

خالد وعبد الملك

ثم انصرف عبد الله من باب آخر فى القاعة الى دار النساء ، وظل حسن واقفا فى جملة الوقوف وهو يسمع ما يدور بينهم . فعلم انهم أجمعوا على الخروج الى الحجاج يلتمسون أمانه . وأدرك ان أشد ما أبعدهم عن ابن الزبير بخله بجانب سخاء عبد الملك ، وبذل بنى أمية الأموال لأحزابهم .. حتى لقد يقال ان دولة بنى أمية قامت بالمال . فساءه ذلك مع اعتقاده ان هؤلاء انما أرادوا الخروج رغبة فى العطاء ، وان صبر ابن الزبير قد

(١) ابن الاثير — الجزء الرابع

لا يفيده شيئا ، ولكن الانسان لا يعيش فى هذه الدنيا عمرين ، وانما هى موتة واحدة .. فلا كانت عيشة تشترى بالشرف والمروءة

وما أحس حسن بعد هنيهة الا ويد قد أمسكته ، فالتفت فاذا هو ابن صفوان يدعوه اليه ، فتبعه حتى دخلا حجرة بجانب تلك الدار وابن صفوان يقول : « ان أمير المؤمنين يدعوك ، وقد أحب أن يراك » قال ذلك وتركه هناك وخرج ..

فسرَّ حسن لتلك الدعوة لأنه سيغتنم الفرصة للكلام فى المهمة التى جاء من أجلها ، ولو كان الكلام فيها لايجدى نفعا

وبعد هنيهة عاد ابن صفوان ، وأشار الى حسن فتبعه حتى دخلا حجرة رأيا عبد الله يتمشى فيها وحده وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما ، وهو تارة يمسح جبهته وطورا يحك لحيته وآونة يشمر عن ساعده أو يرسل كمّه مما يدل على شدة الاضطراب . وتأمل حسن فى تلك الحجرة ، فاذا هى مجردة من الأثاث لا شىء فيها سوى حصير ومقعد . فلما أقبلا عليه ، تقدم حسن اليه وسلم بالخلافة فرحب به ودعاه الى الجلوس على المقعد ، فلم يجلس وابن الزبير واقف .. فألح عليه بالجلوس وقال : « دعنى واقفا ، وسأجلس بعد هنيهة »

فجلس حسن ، وابن صفوان لايزال واقفا يراعى عبد الله ويراقب حركاته ولا يتكلم

ثم التفت الى حسن وقال : « من أين قدمت ؟ .. »

قال حسن : « من الشام »

فبغت عبدالله عند سماع اسم الشام لأن فيها أعداءه ومناظريه ، والتفت الى ابن صفوان كأنه يطلب مشاركته فى الاستغراب ، فرآه لا يقل عنه استغرابا ، فقال عبد الله : « وما الذى جاء بك الينا ونحن فى هذه الحال ؟.. لعلك جاسوس ؟ »

قال حسن : « معاذ الله يامولاى ، كيف أكون جاسوسا ، وأصبر على الظهور بما فعلته اليوم ؟ »

فجلس عبد الله على جانب المقعد ، وأمر ابن صفوان بالجلوس فجلس . ثم قال عبد الله : « لا غرابة فيما ظهر منك اذا كنت جاسوسا ؛ فالجواسيس يتلونون تلون الحرباء .. على انى لا أبالى مهما يكن من أمرك ، فما أنا ممن يستعينون بالجواسيس ، وأنا لا أخشاهم ، وانما أستعين بالحق والعدل » ..

فوقف حسن وهو يقول : « العفو ، يامولاى ، انى أربأ بنفسى عن الجاسوسية فى هذا السبيل .. وانما أنا رسول اليك فى مهمة لا أرى مسوغا للكلام فيها الآن .. »

قال عبد الله : « وماذا تعنى ..؟ وكيف لا مسوغ لها ؟.. قل .. لابأس مما تراه من الأحوال .. من أرسلك الينا من الشام ؟.. لعلك قادم من عبد الملك بنصيحة ؟.. »

قال حسن : « كلا يامولاى ، بل أنا قادم من عند خالد ابن يزيد بن معاوية .. »

قال عبد الله : « وهو أيضا أموى ، وشأنه عندنا مثل شأن عبد الملك ؛ وان يكن أعلم منه بالكيمياء والشعر ونحو ذلك »

فقال حسن : « ما كنت أحسب الحقيقة تخفى على مولاى أمير المؤمنين ، فانها عكس ذلك على خط مستقيم »

قال عبد الله : « كيف يكون هـذا وكلاهما أموى ، وقد اتحدا علينا وقاما لحربنا ؟ »

قال حسن : « أما الحرب فقد نصبها عبد الملك وليس خالد . ولو عرفت ما بينهما من الدخائل ، لثبت لك ان خالدا أشـد رغبة فى بيعة أمير المؤمنين من آل العوام أنفسهم »

فقال عبد الله وهو يبتسم ابتسـامة الاستخفاف يغتصـبها اغتصابا : « وكيف يكون ذلك وهو ابن يزيد الذى أمر بحصار هذا البيت ، وقاتلنا حتى هدم الكعبة بمنجنيقاته ، ثم احترقت وأعدنا بناءها ؟ »

فقال حسن : « صدقت يامولاى انه ابن يزيد بن معاوية ، ولكن لايخفى عليك انه لمـا مات يزيد كان الحصين بن النمير لايزال محاصرا البيت الحرام وأنتم فيه ، وهو لايعلم بموت خليفته يزيد .. وبلغنى انكم عرفتم بموته قبله ، واذا صح ما سمعته عما دار بينكم وبينه بشأن الخلافة ... »

فقطع عبد الله كلامه ، وقال : « أظنك تعنى انه عرض علىّ البيعة بعد موت يزيد ؟ » ..

قال حسن : « نعم يامولاى .. ذلك الذى أعنيه لأنك لو أجبته الى هذه البيعة لما كان على منصة الخلافة سواك »

فتقطب حاجبا عبد الله بغتة ، كأنه تذكر أمرا يؤلمه ، وقال :

« ولكنه أراد أن أذهب معه الى الشام ، ولم يشأ أن يبايعنى الا هناك ! » ..

قال حسن : « وماذا كان يمنع من ذهابك ؟.. لست أشك فى انك لو خرجت معه الى الشام وقربته منك ، ما اختلف على بيعتك اثنان » ..

فأسرع عبد الله فى قطع الكلام لأنه لا يحب أن يتذكر الخطأ الذى ارتكبه فى ذلك . ولولا هذا الخطأ لكان بنو العوام خلفاء الاسلام بدل بنى أمية لشدة اضطراب حال بنى أمية فى ذلك الحين .. فقال عبد الله : « ثم ماذا ؟.. أتمم لنا حديث خالد »

قال حسن : « لما مات يزيد بايع أهل الشام ابنه معاوية (الثانى) كما تعلمون ، وهذا لم يكن يرى لبنى أمية حقا فى الخلافة كما صرح جهارا فى خطابه بعد أن تولاها بأربعين يوما ، فانه أمر فنودى : « الصلاة جامعة » فاجتمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد ، فانى ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا ، ماكنت لأتزودها ميتا وما استمتعت بها حيا » ثم دخل داره وتغيب حتى مات . فلما مات معاوية هذا اختلف الناس فيمن يولونه ، واضطربت الأحوال كما هو معلوم حتى آل الأمر الى مبايعة مروان بن الحكم لأنه أكبر بنى أمية سنا . وكلنا يعلم شأن هذا الرجل فى أمر عثمان ، وكيف انه قد أوقد جذوة تلك الفتنة التى

لم تتخلص من عواقبها الى اليوم . فتولاها مروان دون خالد ابن يزيد ، وخالد أحق بها منه ، بالنظر لما استحدثه جده معاوية من أمر الوراثة فى الحكم . ولكن بنى سفيان لم يرضوا ببيعته حتى عاهدهم انه يجعل الخلافة بعده لخالد . فلما تولاها مروان حدثته نفسه أن يخرجها من نسل معاوية الى نسله ، فتزوج أم خالد حتى تصغر نفس خالد عن طلب الخلافة (١)

***

« واتفق بعد بضعة أشهر ، ان مروان ناظر خالدا فى شأن وشتمه وأهان أمه ، فخرج خالد الى أمه وأطلعها على ما كان ، فقالت له : « دعه ، فانه لا يقولها بعد اليوم » وفى المساء جاءها مروان وسألها ، هل أخبرها خالد بما جرى بينهما . فقالت . « يا أمير المؤمنين ، خالد أشد تعظيما لك من أن يذكر لى خبرا جرى بينك وبينه » فلما أمسى المساء وضعت مرفقه على وجهه ، وجلست عليها هى وجواريها حتى مات ، ولم يتم السنة فى خلافته . والناس يظنونه مات حتف أنفه . فخلفه ابنه عبد الملك وهو يعلم بالأمر ، فخاف اذا انتقم لأبيه أن يفتضح أمره ويقال ان امرأة قتلته . ولكنه ظل حاقدا على خالد ، وخالد ينظر الى عبد الملك نظره الى من اختلس شيئا هو من حقه . ولهذا السبب قلت لمولاى أمير المؤمنين ان خالدا أشد رغبة من آل العوام فى خلافتك »

(١) ابن الاثير — الجزء الرابع

- ٥٨ -

الخطبة

فلما فرغ حسن من كلامه ، أطرق عبد الله طويلا وقد استغرق فى الأفكار ، وحسن وابن صفوان صامتان .. وقد أحس كل منهما بما يجول فى خاطر عبد الله فى أثناء ذلك الصمت الطويل . ثم رفع عبد الله رأسه بغتة ، ونظر الى حسن وهو يقول : « لقد فات الوقت ، وجاءت هذه المعرفة بعد أوانها ، ولكن ما يقدره الله فهو كائن . ومع ذلك فلا أظن ان خالدا يرضى بخروج هذا الأمر من بنى أعمامه الى رجل حاربه أبوه عليه . ولا أرى ثمة مسوغا لذلك » وكأنه انتبه للموضوع الأصلى الذى جر الى هذا الحديث كله ، فنظر الى حسن بغتة وقال : « وما هو الأمر الذى جئت من أجله ؟ .. »

قال حسن : « انه أمر لا يستحسن الخوض فيه فى هــذه الأحوال .. »

قال عبد الله : « لابأس .. قل .. »

قال حسن : « انتدبنى خالد لآتى الى أمير المؤمنين خاطبا »

قال عبد الله : « من ؟ .. ولمن ؟ .. »

قال حسن : « مولاتى رملة أخت أمير المؤمنين الى مولاى خالد بن يزيد ، وقد كتب بذلك كتابا ضاع منى فى المدينة لسبب

يطول شرحه » ..

فوقع ذلك الطلب موقع الاستغراب عند عبد الله لاعتقـاده بالتباعد بين القبيلتين ، على انه لما تذكر ما سمعه فى هذا الشأن هان عليه تصديق الأمر ، ولكنه ظل مرتابا فى ذلك الرسول .. فقال له : « اذا كان خالد كما وصفت فانى أسر بمصاهرته ، ولكنى أود الاطلاع على كتابه . ومع ذلك فان الحال تدعو الى التريث برهة لنرى ما يقضيه الله بيننا وبين هذا الطاغية الذى يرمى بمنجنيقاته على بيت الله ولا يخاف عقابا .. »

فقال حسن : « ذلك هو السبب الذى دعانى الى التردد فى تبليغ الرسالة لأنى رأيت الحال حرجة كما ذكرت ، ولكن يكفينى ما سمعته من الرضى .. وقد شعرت بضعف ساعدى فى هذا الأمر لأنى لا أحمل كتابا من خالد ، ولذلك لا أرى الحال تساعد على أن تبدى رأيا قاطعا ، فسأكتب اليه أطمئنه بالقبول بعد أن يصل كتابه بهذا الشأن . ثم انى أعرض على مولاى أن أكون فى خدمته لعلّى أستطيع أمرا يكون فيه مصلحة له .. فهل ترى أن أذهب الى الحجاج فأخاطبه فى أمر الهدنة أو الصلح أو نحو ذلك ، فربما كان لكلامى وقع عنده لأنى أعتبر من أتباع بنى أمية فلا يشك فى أمرى »

فقطع عبدالله كلامه قائلا : « لا .. لا .. دعهم وما يفعلون ، انى لا أريد وساطة ولاسيما لدى عبد ثقيف » قال ذلك ووقف ، فوقف حسن وابن صـفوان ، فأحس حسن انه ينبغى له أن ينصرف .. فحياه مودعا وخرج من باب غير الباب الذى دخل

منه ، وقد أرخى الليل نقابه فتبعه ابن صفوان وهو يقول له : رويدك يا أخا العرب » ..

فوقف حسن حتى اقترب ابن صفوان منه ، فاذا هو قد أمسك بيده وأدنى فمه من أذنه ، وقال همسا : « تعال معى »

فمشى معه حتى دخلا دارا بجانب دار ابن الزبير ، فأدخله غرفة خلا به فيها ، ثم قال ابن صفوان : « سمعتك تعرض على أمير المؤمنين التوسط لدى الحجاج فى الهدنة أو نحوها وأمير المؤمنين لم يقبل ذلك انفة منه . ولكننى أعلم ما نحن فيه من الضنك ، وان الهدنة تفيدنا فى جمع شملنا لأننا قد تشتتنا .. لا أقول ذلك خوفا من الموت فاننا لا رغبة لنا فى هذه الحياة ، وانما نحن نطلب الآخرة .. وبنو أمية يريدون هـذه الحياة الفانية ، ويسفكون الدماء من أجلها .. فاذا رأيت انك تستطيع شيئا من ذلك فافعل » ..

قال حسن : « لست أدرى مدى قدرتى فى هـذا السبيل ، وانما سأسعى فى ذلك جهدى .. لعلّى أوفق الى شىء منه »

فقال ابن صفوان : « فانزل الآن فى دار الضيافة ، أو انزل فى دارى اذا شئت »

فقال حسن : « بل انزل فى دار الضيافة ريثما أدبر الأمر »

قال ابن صفوان : « ولكن الليل قد أظلم ، فامكث عندنا الليلة .. فاذا أصبحنا خرجت الى حيث تريد »

فتذكر حسن بلالا والجمل ، وكان قد تركهما بباب المسجد ،

فقال : « ان خادمى ينتظرنى بباب المسجد والجمل معه ، وأخاف اذا استبطأنى أن يظن بى سوءا »

قال ابن صفوان : « لابأس عليه لأنه اذا استبطأك نام هناك ، وفى الغد نراه .. فاننا فى بيت الله الحرام ولا يضيع شىء فيه »

فأطاعه حسن وبات تلك الليلة عنده . وقضى معظم الليل وهو يفكر فى أمر عبد الله وفى مسيره الى الحجاج ، ولما استغرق فى النوم رأى فى منامه انه لقى الحجاج وجادله فى أمر الكعبة وكيف يرميها بالمنجنيق ، فسمع من الحجاج كلاما قبيحا ، فأفاق فى الصباح وهو منقبض النفس بسبب ذلك الحلم

ثم جاءه ابن صفوان بالطعام فأكل ، وعرض عليه أن يسير الى دار الضيافة ، فقال حسن : « أرى أن أبحث عن الخادم والجمل أولا .. »

فقال ابن صفوان : « لابأس عليهما ، وعلى كل حال ها أنا أسير معك الى دار الضيافة حتى تعرفها فانها بجانب بيت أمير المؤمنين ، ثم اذهب الى حيث شئت »

— ٥٩ —

ذات النطـاقين

فمشيا حتى أقبلا على دار الضيافة ، فسار ابن صفوان الى بيت عبد الله ودخل حسن الى الدار ، فرأى فيها أناسا لم يعرف

أحدا منهم ، فجعل يتفرس فى الوجوه لعله يرى خادمه بينهم فلم يجده فهمّ بالخروج الى مواقف الدواب للبحث عن جمله عسى أن يكون بلال مع الجمل هناك ، ولم يكد يمر ذلك فى ذهنه حتى رأى بلالا مقبلا على الدار والبغتة بادية فى وجهه وعيناه شائعتان كأنه يفتش عن ضائع ، ثم ما لبث أن وقع نظره على حسن حتى أسرع اليه ، فناداه حسن : « ما وراءك ؟ » قال : « ما ورائى الا الخير .. ان سيدى والد سليمان يبحث عنك »

فبغت حسن لذكر والد سليمان لعلمه انه فارقه فى المدينة ، وقد عهد اليه أن يتنسم أخبار سمية ، فاضطرب خاطره لمجيئه ونهض وقال : « أين هو ؟ »

قال بلال : « تركته فى المسجد وجئت للبحث عنك ، فهل أدعوه اليك ؟ » ..

قال حسن : « لا ، بل أنا أذهب اليه » قال ذلك وهمّ يريد الخروج ، فرأى أهل الدار فى هرج ومرج يزحم بعضهم بعضا كأنهم يوسعون الطريق لقادم عظيم ، فوقف فى جملة الواقفين وسأل أحدهم عن سبب هذه الحركة ، فقال له : « ان ذات النطاقين قادمة الى دار الضيافة »

فعلم انها أسماء بنت أبى بكر والدة عبدالله بن الزبير ، ولكنه كان يحسبها قد ماتت لكبر سنها ، لأنها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة .. فهى يومئذ كانت قد بلغت السنة المائة من عمرها . وكانت مشهورة برجاحة الفكر وسعة الصدر والتعلق

بالدين (١) فأحب أن يراها ، فجعل يزاحم حتى أقبلت .. فاذا هى قد احدودب ظهرها ، وجاءت تتوكأ على عكاز وبجانبها رجل يسندها ويرشدها الى الطريق لأنها عمياء . ورأى الناس يدنون منها ويقبلون أطراف ثوبها تبركا بها ، حتى اذا أقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم : « اتقوا الله ولا تبخلوا على عباده بالطعام ، وان كان قليلا فى الأسواق ، فان الله كفيل بطعام الغد » ..

***

فعجب حسن لاهتمام أم الخليفة بأمر الضيوف على عجزها وضعفها ، ولكنه تذكر ما يقال عن بخل ابنها عبدالله .. فظنها جاءت تستحث الخدم على اكرام الضيوف لاعتقادها ان ذلك يدفع البلاء عن أهلها . ومهما يكن من حرص الأمهات على الدرهم ، فانه اذا وقع أولادهن فى خطر هان عليهن البذل دفعا للبلاء عنهم . وكانت أسماء فى غاية القلق على ابنها عبدالله لعلمها بما يتهدده من الخطر العظيم ، فلم تر سبيلا لاستمطار الرحمة عليه سوى الحث على الاحسان والبذل والاكرام

أما حسن فما صبر الا حين مَرّ موكب ذات النطاقين ، ثم خرج ومعه بلال .. فلما أقبلا على المسجد أسرع حسن حتى اقترب من والد سليمان ــ وكانت دلائل السفر بادية على وجهه ــ وحين وقع بصره عليه صاح فيه : « ما وراءك يا عماه ؟ »

(١) أسد الغابة ــ الجزء الخامس

قال والد سليمان : « ان ما ورائى ذو بال يابنى .. »
فبغت حسن وقال : « وما هو ؟ .. قل .. هل أصاب سمية سوء ؟ .. »
قال والد سليمان : « لم يصبها سوء ، ولكنها جاءت الى مكة .. »
قال حسن : « جاءت الى هنا ؟ .. أين هى ؟ »

***

قال والد سليمان : « اصبر ريثما نجلس فى أحد جوانب المسجد على انفراد ، وأقص عليك الخبر » وكان المسجد خاليا من الناس خوفا من حجارة المنجنيق ؛ فجلسا فى ناحية وحسن فى قلق شديد وهو يخشى أن يلح فى استطلاع الخبر لئلا يكون فيه ما يكدره .. ولكنه لم يستطع صبرا عن السؤال ، فلما جلسا قال : « قل يا عماه .. أين هى سمية الآن ، فقد نفذ صبرى .. وكيف تقول انها جاءت الى مكة ؟ .. »
قال والد سليمان : « صدقنى انها جاءت الى مكة ، ولكنها فى خارجها » ..
فانتبه حسن ، وقال : « لعلها عند الحجاج ؟ .. »
قال والد سليمان : « نعم يابنى .. انها عنده »
فصاح حسن وهو لا يعى ما يقول ، وليس فى المسجد من يسمعه غير والد سليمان : « أخذها ..! وكيف أخذها ؟.. افصح .. أخبرنى .. »

قال والد سليمان : « أخذها زوجة له ، لأن أباها عرفجة زفّها اليه يوم أن سافرت وخرجت من المدينة مع الحملة التى بعث الحجاج يطلبها من طارق بن عمرو عامل المدينة .. »

***

فلما سمع حسن ذلك أطرق كأنه أصيب بجمود ، وتذكر للحال انه شاهد تلك الحملة بالأمس مارة قرب مكة ، ومعها هودج يحرسه فارسان ، فارتعدت فرائصه وهز رأسه ، وقال : « أعوذ بالله .. أأرى سمية تساق الى الحجاج ، وأنا واقف أنظر الى هودجها ولا أنصرها ؟ .. كيف أنصرها .. وأنا لم أعرفها ؟ .. ولكن لا بد من انقاذها من يدى ذلك الظالم .. بل من يدى أبيها الخائن الغادر قبّحه الله .. هل سيقت الى الحجاج برضاها ؟.. »

قال والد سليمان : « ما أظنها سيقت الا بالرغم منها ، فقد علمت ان أباها احتال فى اخراجها من المنزل الى ضواحى المدينة ، وسلمها للجند المعسكرين هناك »

قال حسن : « اذن هى الآن أمامنا فى هذه الخيام بجانب جبل أبى قبيس .. لا بد لى من الذهاب اليها .. فاما أن أنقذها ، أو أموت فى سبيل ذلك »

فقال والد سليمان : « اعلم يابنى انى رهن اشارتك ، وقد قلت لك انى أكرّس نفسى لخدمتك .. فاذارأيت أن تبعثنى فى أمر يتعلق بها فافعل .. »

كتاب خالد

فصمت حسن وهو يفكر برهة ، ثم قال : « احتاج اليك يا عماه فى رسالة بعيدة الشقة ، فهل لك فى انفاذها ؟ »

قال والد سليمان : « ولو الى السند .. »

قال حسن : « لا .. بل هى الى الشام ، الى خالد بن يزيد . هل تسير ؟ .. »

قال والد سليمان : « أفعل ان شاء الله ومتى ؟ .. وما هى الرسالة ؟ .. »

قال حسن : « هى كتاب أكتبه اليه يتعلق بالمهمة التى جئت من أجلها .. »

قال والد سليمان : « أكتب .. وأنا بين يديك »

فأخرج حسن من جيبه منديلا من القباطى (نسيج مصرى) وكان قد أعد دواة وقلما فى جيبه لمثل هذه الغاية ، وجلس على حجر بجانب عضادة من عضادات المسجد يكتب .. واختصر فى الكتابة على مألوف عاداتهم فى تلك الأيام وخلاصة ما كتبه قوله :

« الى خالد بن يزيد من حسن .. أما بعد ، فقد جئت البيت الحرام بعد أن مررت بالمدينة ، وأضعت فيها كتابك الى ابن الزبير . ولذلك قصة سأرويها عند اللقاء . ومع ذلك فقد خاطبت

ابن الزبير شفاها فى الأمر ، على حين كان مشغولا بالحصار فأجاب بالرضا ، ولكننى رأيته يسأل عن كتاب منك فى هذا الشأن .. فاذا شئت فاكتب اليه وابعث الكتاب مع حامل هذا ، فانه ثقة .. وأنا باق هنا لأمر يهمنى كثيرا ، والسلام عليك ورحمة الله » ..

ثم سلم الكتاب الى والد سليمان ، وقال له : « امض بأسرع ما يمكن ؛ واحذر أن يعترضك الحراس حول مكة »

قال والد سليمان : « لقد دخلت ولم ينالوا منى مأربا ، فكيف بخروجى .. وها أنا أترك بلالا فى خدمتك ، لعلك تحتاج اليه »

فأثنى عليه وودعه ، وعاد الى التفكير فى سمية .. فرأى أن يذهب الى معسكر الحجاج يبحث عنها ، لعله يستطلع خبرها فيقف على الحقيقة .. وكلما فكر فى الأمر تعاظم لديه ، وان تصور انها زفّت الى الحجاج انتفض جسمه كأنه أغرق فى ماء يغلى ..

قضى برهة فى مثل هذه الهواجس حتى لم يعد يستطيع صبرا ، فعزم على الذهاب الى معسكر الحجاج بحجة انه مندوب من قبل ابن الزبير للمفاوضة بشأن هذه الحرب ، ولكنه لم يرَ بدا من استشارة ابن صفوان لئلا يغضب ابن الزبير اذا خابر الحجاج بشأنه وهو لا يريد . فنهض لساعته وأسرع الى بيت ابن صفوان فلم يجده فى البيت ، فالتمسه فى دار ابن الزبير .. فدخل القاعة التى كان فيها الاجتماع بالأمس فلم يجد أحدا . وبينما هو عائد ،

مَرّ بمرابط الخيل والجمال وبينها الخدم والجمالة ، فوقع نظره على رجل من خدم ليلى الاخيلية يتوسم فيه الخير ، فناداه فأسرع اليه ، فقال له : « ما الذى جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال الخادم : « جئت مع مولاتى .. »

قال حسن : « وهل ليلى هنا الآن ؟ .. وأين هى ؟ »

قال الخادم : « هى عنـــد أمير المؤمنين فى بيته ، وأظنها فى حجرة والدته ذات النطاقين »

قال حسن : « ومن أين أتيتم ؟ »

قال الخادم : « من معسكر الحجاج »

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه ان ليلى لا بد انها اطلعت على الحقيقة ، وربما رأت سمية وسمعت منها شيئا .. فلم يعد يصبر على لقائها ، فجعل يتمشى خارج البيت . وهو كلما سمع حركة أو صوتا ظنها خارجة ، حتى ملّ الانتظار فعاد الى الخادم وقال له : « هل أقمتم فى معسكر الحجاج طويلا ؟ »

قال الخادم : « أقمنا يوما وليلة ، ثم رأيت مولاتى تسرع الى مكة ، وقد أرسل الحجاج معها من يرافقنا لئلا يعترضنا الجند المحيط بها » ..

فأدرك حسن انها جاءت باشارة الحجاج ، فزادت رغبته فى مقابلتها واستطلاع حقيقة الأمر . وفيما هو يفكر فى ذلك رأى ابن صفوان خارجا من الدار يهرول . ولما تلاقت الأبصار ، أقبل ابن صفوان وهو يقول : « أحمد الله انى رأيتك هنا ، فقد كنت

ذاهبا لأفتش عنك مخافة أن تكون قد مضيت فى الأمر الذى انتدبت نفسك له بالأمس »

قال حسن : « وماذا تعنى ؟ »

قال ابن صفوان : « اعنى مفاوضة الحجاج »

قال حسن : « وما الذى حدث ؟ »

قال ابن صفوان : « جاءت ليلى الاخيلية لمثل ذلك الغرض . وقد سمعت من أمير المؤمنين جوابا أكد لى انه لا يرجو صلحا ولا هدنة ، لأن الحجاج لا يرجو غير التسليم .. وهـذا أمر مستحيل عندنا ، والموت أهون منه علينا »

فقال حسن : « وأين هى ليلى الآن ؟ »

قال ابن صفوان : « هى فى دار النســاء ، وقد نزلت عنـد مولاتى ذات النطاقين ، ورملة بنت الزبير عندها أيضا »

قال حسن : « وهل من سبيل لى اليها ؟ .. فانى أرغب فى لقائها » ..

قال ابن صفوان : « هل أخبرها بأنك تطلب رؤيتها ؟ »

قال حسن : « افعل .. »

– ٦١ –

عند جهينة الخبر اليقين

فدخل ابن صفوان ثم عاد وهو يشير اليه أن يتبعه ، فدخل

غرفة رأى فيها ليلى وحدها فى انتظاره .. فلما أقبل عليها صاحت فيه : « هل أنت حسن حقيقة ؟ .. »

قال حسن : « ولماذا هذا الاستفهام ، وأنت تعرفيننى ؟ »

قالت ليلى : « لأننى سمعت انك تائه ، وأكدوا لى انك قتلت »

قال حسن : « كدت أن أقتل ، ولكننى الآن حى .. فاخبرينى قبل كل شىء ، هل كنت فى معسكر الحجاج ؟ »

قالت ليلى : « نعم .. »

قال حسن : « وهل رأيت سمية هناك ؟ .. »

قالت ليلى : « نعم .. رأيتها »

فخفق قلبه عند سماع ذلك الجواب الصريح ، ولم يصدقه .. فقال : « هل رأيتها حقيقة ؟ .. »

قالت ليلى : « رأيتها ورأتنى ، وكلمتها وكلمتنى .. »

قال حسن : « بالله قولى كيف حالها ، وما الذى جرى لها ، وماذا تم من أمرها ؟ »

قالت ليلى : « لعلك غائب عن الدنيا ؟ .. ألم تعلم أنها حُمِلت الى الحجاج ليعقد عليها ؟ .. »

فلما سمع حسن ذكر العقد انزعج انزعاجا شديدا ، وصعد الدم الى وجهه ، وقال وهو يتجلد : « نعم .. علمت ، فهل تم العقد ؟ » ..

قالت ليلى : « نعم .. كتبوه منذ يومين ، وهى الآن فى داره مع نسائه » ..

قال حسن : « فى داره مع نسائه .. مع نسائه ؟ .. »
قالت ليلى : « نعم .. مع نسائه »
قال حسن : « وهل ذكرتمانى فى حديثكما ؟.. »
قالت ليلى : « ذكرناك وبكينا عليك ، وهى التى أخبرتنى بموتك ، وأكدت لى ذلك بدلائل حسية »
قال حسن : « وهل هى حزينة على موتى ؟ .. »
قالت ليلى : « أما قلبها فهو معك ، فهى لا تكف عن ذكرك لحظة .. وبالرغم من يأسها من لقائك فانه لا يهنأ لها العيش بدونك » ..
فأبرقت أسرة حسن عند سماعه ذلك ، وقال : « اذا كان الحجاج كتب كتابه عليها كما تقولين وهى يائسة من لقائى ، فكيف أرجو اللقاء ؟ .. »
قالت ليـلى : « الحب كله رجاء يا حسن .. » قالت ذلك وتنهدت ، ثم استطردت قائلة : « ان الحب يضع الرجاء فى موضع اليأس » ..
قال حسن : « هى باقية على حبى اذن ؟ »
قالت ليلى : « نعم .. رغم انها لا ترجو لقـاءك .. فكيف اذا علمت انك على قيد الحياة ؟ .. فهل أنت تحبها مثـل حبها لك .. » ..
قال حسن : « كيف لا ؟ » وهاجت أشجانه ولم يعد يستطيع صبرا على الذهاب اليها ، وأحس انه مقصر فى سعيه اليها الا اذا

ألقى بنفسه للقتل من أجلها .. ولكنه حين تصور انها زفتَّ الى الحجاج عظم الأمر عليه ، وكادت الغيرة تحرقه .. فأطرق برهة ثم قال : « وهل زفتَّ الى الحجاج حقيقة ؟ .. »

قالت ليلى : « قلت لك انها زفتَّ اليه ، وهى فى داره مع سائر نسائه .. »

قال حسن : « أعوذ بالله من ذلك .. لا أصدق انها فى بيته مثل احدى نسائه وكيف هو ؟ .. هل يحبها ؟ »

قالت ليلى : « يحبها حبا شديدا ، ولم يكن يحلم بأنه سيفوز بها لأنها لا تريده ، ولكن الأقدار ساعدته فحملوها اليه قسرا »

فاقشعر بدنه وجمدِ الدم فى عروقه ، وقال : « انى أطير اليها ، وأختطفها من وسط بيته ، ومن بين مخالبه .. »

فقطعت ليلى كلامه ، وقالت : « تبصَّر يا حسن ، ان دون الوصول اليها عقبات لا يستطاع تجاوزها الا بالحكمة »

قال حسن : « وأى حكمة ؟ كيف يمسها الحجاج وأنا حى .. ليس فى الحب حكمة . الحب شىء والحكمة شىء آخر .. ليس فى الحب حكمة ، ولا سياسة ، ولا مداهنة ، ولا رياء .. »

فلما رأت ليلى شدة هياجه خافت عليــه الموت ، لعلمها بما يعترض سبيله الى سمية من الأخطار ، وبخاصة لما تعلمه من ظلم الحجاج وعتوه ، فاذا وقع حسن بين يديه فلا عقاب له غير الموت ، فقالت له : « أسلِّم معك ان الحب لا سياسة فيه ولا حكمة ، ولكن المحب حريص على حياته من أجل حبيبته .. فبدلا من أن

تستبقى حياتك لتفرح سمية بك فانك تعرضها للخطر عمدا ! .. تبصَّر فى الأمر ، وأنا فى خدمتك حتى تبلغ ما تريد .. فانى أعرف قيمة الحب ويسوءنى أن أرى حبيبين لا يجتمعان ، كما أنى أنقم على من يسعى فى التفريق بينهما .. » قالت ذلك وتنهدت وأبرق الدمع فى عينيها ..

فشعر حسن انها تنطق عن احساس حقيقى ، لأنها أصيبت بحب توبة ومنعوها منه ، فقال : « بورك فيك يا ليلى .. والله انك خففت عنى نصف المصاب بهذه المشاركة ، فأشيرى علىَّ »

- ٦٢ -

سمية فى بيت الحجاج

قالت ليلى : « لا أخفى عنك انى جئت الى معسكر الحجاج وافدة على عادتى فى الوفود على الأمراء والملوك ، فرحب بى الحجاج وأنزلنى فى دار احدى نسائه .. وهى أعزهن عليه ، واسمها هند بنت النعمان ، انها جميلة ذات حسب ونسب ، ولكنها لا تحبه ولا تحترمه .. فلقيت سمية عندها ، فلما عرفتها دار الحديث حولك فلما سمعت بفقدك شق ذلك علىَّ ، وقلت لعلِّى اذا جئت مكة أستطلع خبرا عنك .. فعرضت على الحجاج أن آتى الى مكة وأحرض ابن الزبير على التسليم ، وأنا أعلم أن تسليمه أمر مستحيل . ولكننى فعلت ذلك حتى آتى تحت

حمايته .. ولما جئت سألت عنك فأخبرونى انك جئت بالأمس ، وخطبت رملة لخالد فأجابك بالرضى .. ولكنه استمهلك ريثما تنقضى هذه الحرب ؛ فسررت سرورا مضاعفا ، أولا لأنك حى .. وثانيا لأنك نجحت فى المهمة التى جئت من أجلها ، فالرأى الآن أن أعود الى معسكر الحجاج ، وأجعلك راويتى (لأن لكل شاعر عند العرب راوية يرافقه فيحفظ أشعاره ويرويها عنه) والحجاج لا يعرفك ولا يخطر له أنك تنافسه على سمية ، فمتى وصلنا الى المعسكر وأقمنا فيه آمنين نحتال فى أمر سمية بما يوفّق لنا » ..

***

فاستحسن حسن رأيها ، وقال : « نذهب اذن معا .. هلم بنا الآن ، فانى لا أصبر على هذه الحال »

قالت ليلى : « اسبقنى الى المسجد ، وأنا أودع ذات النطاقين وألحق بك » ..

قال حسن : « لقد أنسانى حديث سمية استطلاع ما دار بينك وبين ابن الزبير من أمر الصلح أو التسليم »

قالت ليلى : « كنت على يقين قبل أن أتحدث معه بهذا الحديث انه لن يقبل ، ولكننى رأيت أمه أسماء ذات النطاقين أكثر تعلقا منه بذلك . انى معجبة بهذه العجوز وصبرها على المكاره ، فقد رأيتها مع يأسها من نجاح ابنها تشجعه وتحرضه على الثبات فى دعوته .. ولكننى لا أرى فائدة من ثباته ، وقد

رأيت معسكر الحجاج ورأيت معسكره .. والفرق بينهما واضح من حيث العدد والعدة وكل شيء »

فابتدرها حسن قائلا : « وقد رأيت بعيني رأسي أصحاب ابن الزبير واخوته وأهله يتخلون عنه ، وقد نفدت قواته وأقواته ، فالأمر خارج من يديه لا محالة »

قالت نيلي : « القوة هي الغالبة يا حسن ، والخلافة صائرة الى بني أمية .. لأن عندهم الرجال والأموال ، وقد ساعدتهم الأقدار في كل سبيل ، ونحن لا يهمنا أمر هؤلاء »

***

فقطع حسن كلامها قائلا : « لا يهمني الآن الا أمر سمية ، فها أنا أسرع الى المسجد لأتهيأ للسفر » قال ذلك وتركها وأسرع الى المسجد ، فوجد بلالا جالسا بجوار الصفا بباب دكان رجل فارسي يبيع فيه الأقمشة ، فتبعه بلال حتى دخلا المسجد .. فقص حسن عليه عزمه على دخول معسكر الحجاج ، وأسرّ اليه بالغرض من ذلك

فقال بلال : « أكون في خدمتك يا مولاي »

قال حسن : « بورك فيك .. ولكني ذاهب في مهمة لا تخلو من الخطر ، فاذا انكشف أمري فيها لاينفعني الرجل والرجلان ، واذا وفقت فاني وحدي قادر على استقبال ذلك التوفيق . وانما أرجو منك أن تبقى هنا بضعة أيام ، فاذا استبطأتني فاطلبني في معسكر هذا الطاغية .. »

- ٦٣ -

معسكر الحجاج

ثم بدل حسن ثيـابه بحيث لا يفطن له عارفوه الا بالتأمل الدقيق ، وحمل جرابا فيه أدراج من الرق عليها بعض القصائد ، ومكث ينتظر ليلى حتى عادت وقد تلثمت وركبت الجمل كبعض الرجال ؛ وفى ركابها خادم .. فركب هو جمله وسارا والخادم يمشي وراءهما حتى مَرّا ببيت ابن صفوان ، وكان ابن صفوان واقفا بالباب فرأى ليلى فعرفها .. وتفرس فى رفيقها فعرفه فحياه حسن ، فقال ابن صفوان : « والى أين ؟ » قال : « عولت على السعى ، لعلّى أجد سبيلا للتوفيق »

قال ابن صفوان : « لا أظنك تلقى نجاحا »

وما لبث حسن وليلى أن ابتعدا عن بيت ابن صفوان وخرجا من مكة ، فلاقاهما رجال الحجاج حولهـا فعرفوا ليـلى فلم يعترضوها .. وما زالا سائرين حتى أقبلا على معسكر الحجاج

فنظر حسن الى ذلك المعسكر والأعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على مسافة بعيـدة ، فعظم أمر الحجاج فى عينيه وقال : « يا ليلى ان النصر سيحالف هذا العاتى لا محالة .. وانى لينفطر قلبى كلما تصورت مصير عبدالله بن الزبير . أتظنينـه مغرورا بنفسه ؟ » ..

قالت ليلى : « كلا ، ولكنه يعتقد أنه على هدى .. ولذلك فانه لا يخشى الموت .. »

قال حسن : « ما الذى أراه على هذا الجبل ؟ »

قالت ليلى : « ألم تر وقوع الأحجار على الكعبة ؟ فعلى هذا الجبل (جبل أبى قبيس) نصب الحجاج منجنيقاته وهو يرمى الحجارة منها على الكعبة . ومع المنجنيقات فصيلة من الجند .. »

قال حسن : « وأين خيام النساء من هذا المعسكر حيث يقيم نساء الحجاج ومعهم سمية ؟ » ولما ذكر اسمها اقشعر بدنه ، اذ تراءى له انها أصبحت من جملة نساء الحجاج .. فمرّت فى ذهنه ألوان من عوامل الغيرة ، ولا سيما حين تصور الحجاج فى خلوة معها وليس عليهما فيها رقيب

***

وأدركت ليلى ما فى نفس حسن ، فقالت : « نحن سائرون الآن الى خيمة الحجاج ، وهى الكبيرة القائمة فى وسط هذه الخيام ، فأدخل أنا لأحدثه عن مهمته بما يحضرنى من الكلام ، ثم أخرج وأسير بك الى مكان أعرفه ، وأذهب الى منزل هند بنت النعمان وأرى سمية هناك ، فأقص عليها خبرك ونضرب موعدا تخرجان فيه من هذا المعسكر فى غير ضجة » فسرّ حسن بذلك الأمل وان كان بعيدا ..

وكانا قد وصلا الى المعسكر والحراس لا يعترضونهما لأنهم علموا ان ذهاب ليلى باذن من الحجاج . وما زالا حتى أقبلا على خيمة كبيرة قائمة على بضعة عشر عمودا أمامها أناس مدججون

بالحراب وآخرون يتمنطقون بالسيوف ، يشبهون فى ذلك الحراس عند الروم . وكان بنو أمية قد اقتبسوا ذلك منهم ، ثم توخاه عمالهم ارهابا للناس لأن دولتهم انما كانت دولة ارهاب وأطماع

وقبل وصولهما الى الباب أناخا الجمال ونزلا ، فمشت ليلى والناس يوسعون لها وحسن يسير فى أثرها حتى وقفت بباب الخيمة .. فدخل أحد الوقوف يستأذن لها ثم عاد وهو يدعوها ، فدخلت وظل حسن فى جملة الوقوف وهو فى شوق شديد لرؤية الحجاج ، وقد طالما سمع به وبعظم أعماله .. فوقف بحيث يستطيع رؤيته من باب الخيمة . فاذا هو جالس فى صدرها على سجادة ثمينة ، وقد تربع ووضع السيف على فخذيه تحت مطرف من خز ألقاه على كتفيه وأداره على جنبه ، ورآه لما دخلت ليلى قد رحب بها بصوت أرق مما كان يتوقع أن يكون ، لأن الحجاج كان رقيق الصوت الا اذا استفاض فى الخطابة فيرتفع كثيرا . (١) وتفرس حسن فيه وهو يخاطب ليلى ، فاذا هو أخفش (٢) العينين مقطب الوجه لا يرى فى وجهه ميلا للابتسام أو الضحك . والواقع أنه قلّما كان يُرى ضاحكا ..

---

(١) العقد الفريد — الجزء الثالث

(٢) البيان والتبيين

- ٦٤ -

الانتظار صعب

وبينما هو ينظر اليه ، لاحت منه التفاتة الى من فى مجلسه ، فرأى بينهم رجلا لم يقع بصره عليه حتى اضطربت كل جوارحه واستعاذ بالله من رؤيته .. كيف لا ، وهو عرفجة ، فقد رآه جالسا بجانب الحجاج كجلوسه بين أهله ، يقضى ويمضى .. وله الحول والطول . فاستولت حسن رعدة لشدة التأثر ، وبخاصة حين علم أن عرفجة لم ينل ذلك المنصب الا بتضحية ابنته سمية ، فهاجت عواطفه حتى حدثته نفسه أن يفتك به وينتقم منه . ولكنه ما لبث أن عاد الى رشده وأدرك ما يحيط به من الأخطار اذا انكشف أمره فتجاهله ، وحوّل وجهه الى خارج المعسكر لئلا يكشف أحد خبيئة نفسه . وخاف أن يراه عرفجة فيعرفه ويدبر له مكيدة أخرى ، فمشى وهو يتظاهر انه يسير بغير انتباه حتى بعد عن خيمة الحجاج

وبعد برهة سمع ليلى تناديه ، فسار فى أثرها والجراب معلق فى كتفه ، وما يشك الذين يرونه الى جانبها انه راويتها . وبعد أن قطعت مسافة فى المعسكر ، قالت : « انظر الى هذه الخيمة بجانب هذه الراية ، انها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم ، وستقيم فيها ريثما آتيك أو أبعث اليك »

قال حسن : « وسمية ؟ .. ألا أستطيع رؤيتهـا الآن ؟ .. خذينى معك .. اجعلينى خادما لك أو تابعا أو أى شيء ، وهيئى لى السبيل كى أرى سمية »

فأشفقت ليلى عليه ، وقالت له : « سر فى أثرى حتى ندخل مضرب خيام النساء ، وتظاهر بأنك تحمل لى هذا الجراب حتى نضعه فى الخيمة التى نحن سائرون اليها ، ومتى وصلنا أدبِّر لك حيلة لنشاهدها ونخاطبها »

فرقص قلبـه فرحا ، ونسى كل خطر فى سـبيل شوقه لرؤية حبيبته . وبعد هنيهة ، وصلا الى خباء له عدة أبواب وحوله خيام أخرى صغيرة ، فعلم انه خباء أهل الحجاج ، فقـالت له ليلى : « امكث تحت هذه النخلة ، ومتى دعوتك ادخل » . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب ، فجلس حسن هناك وقلبه يدق وعيناه شائعتان

أما ليلى فانها دخلت الخباء ـ وهو أقسام لكل امرأة قسم على عادة العرب فى بناء الأخبية ـ فدخلت القسم الذى فارقت هندا فيه ، فرأت هندا متكئة وسمية متكئة الى جانبها لاتتكلمان. فلما رأتا ليلى رحبتا بها واستقبلتاها ، فآنست ليلى فى وجه هند انقباضا ، وكانت سمية تعزيها وتخفف عنها فقالت : « ما بالى أرى هندا غضبى ؟ »

قالت سمية : « من يقترب من هذا الظالم العاتى ولا يكون منقبضا ، انه لايترك وسيلة لايثقل بها على نسائه وأهل بيته »

وكانت ليلى تعلم ببغض هند للحجاج فلم تستغرب ذلك ، ولكنها اغتنمت الفرصة وأجابت سمية قائلة : « أراك تشكين من الحجاج وقسوته وأنت لم تعرفيه الا بالأمس ، وهو مغرم بك وفى رأيه انه فاز فوزا عظيما حين ظفر بك »

فقطعت سمية كلامها قائلة : « لم يظفر بشىء ولن يظفر به ان شاء الله » ..

فقالت ليلى : « عجبا لما تقولين ، وأنت فى داره وبين يديه ليلا ونهاراً » ..

فأشارت بعينيها انها تكتم أمرا لاتريد أن تبوح به أمام هند . فاستغربت ليلى قولها ، وتظاهرت انها تريد مخاطبتها فى شأن ، فدخلت بها الى خيمتها الخاصة .. فاستقبلتهما امة الله خادمتها الحبشية ، وكانت تهيىء طعاما لسمية ، فلما دخلتا خرجت الخادمة لاصلاح بعض الشئون .. فقالت ليلى : « رأيتك تتوعدين الحجاج وتتبرئين منه وهو زوجك الشرعى ، فضلا عما له من السلطان النافذ عليك .. فكيف تقولين انه لم يظفر بشىء ؟.. »

وكانت سمية قد جلست على برش من سعف النخيل فى أرض الخيمة ، وبين يديها وسادة تتشاغل باصلاح ثنياتها وهى تسمع كلام ليلى . فلما فرغت ليلى من سؤالها بدت البغتة على وجه سمية ، ثم امتقع لونها امتقاعا شديدا وهى لاتزال تنظر الى الأرض ، وليلى تتدبر ذلك وتستغربه ولا تعلم سبب هذا الانفعال ، فقالت : « ما بالى أرى سمية صامتة لا تجيبنى على

سؤالى ؟.. كيف تقولين انه لم يظفر بك وأنت بين يديه ؟ »

— ٦٥ —

السم الزعاف

فرفعت سمية رأسها ، وقد بدا التأثر فى عينيها وشفتيها ، وقالت : « صدقينى يا ليلى انه لم يظفر بى بالرغم من عقد العقد .. ولم يكن ذلك تفضلا منه ، فهو مجبر على ذلك بسبب قَسَم سبق لسانه . وثقى انه لن يظفر بى ، فقد أعددت وسيلة أنجو بها منه الى حبيبى ... » قالت ذلك وشرقت بريقها ، فاختنق صوتها وسالت دموعها وهى صامتة لا تشهق ولا تتكلم.. فازدادت ليلى مشاركة لها فى ذلك الأمر ، ولكنها استغربت قولها انها أعدت وسيلة للنجاة الى حبيبها ، فقالت : « وأية وسيلة أعددت ؟.. وأين هو حسن الآن ؟ »

فلما سمعت سمية اسم حسن لم تستطع أن تمنع نفسها عن البكاء ، فكان جوابها الشهيق والنحيب وليلى تهم ان تطمئنها عن حسن ، وتخاف ان يصيبها سوء من البغتة .. فعولت على استطلاع سرها ، فقالت : « اذا كنت تحبيننى لا تخفى عنى سر هذا الأمر ، فقد رأيت منى كل مساعدة ومشاركة ، وأنا خادمة لك الى آخر نسمة من حياتى .. قولى .. لاتخفى عنى شيئا .. »

فقالت وهى تمسح دموعها : « أما السبب فى انه لم يظفر بى ،

فلأنه أراد أن يطوف بالكعبة فى آخر الحجة الماضية .. فمنعه ابن الزبير من ذلك ، فأقسم أن لاينزع السلاح عنه ولا يقرب النساء ولا الطيب حتى يقتله » (١)

فتذكرت ليلى انها كانت لا ترى الحجاج الا بسلاحه حيثما كان ، ليلا أو نهارا ، وسرَّت لهذا الخبر لأنه يشرح صدر حسن ، ثم أرادت أن تستطلع كيفية نجاتها ، فقالت : « وكيف تقولين انك دبرت وسيلة للنجاة ؟ »

فمدت سمية يدها الى جيبها وأخرجت منه صرة صغيرة حلت عقدتها فاذا فى داخلهــا قطعة من رق لفت على شكل درج ، فتبادر الى ذهن ليلى انها كتاب لأنهم تعودوا أن يلفوا الكتب على هذه الصورة . ثم رأت سمية تتناول ذلك الرق بين أصابعها وتقول : « ان الفرج يأتينى من هذا الدواء ... »

فقالت ليلى : « وما ذلك ؟ »

فقالت سمية : « هو سم احتفظت به حتى اذا تحققت من وقوع الخطر تناولته ، فيذهب بى الى مكان أرجو أن ألاقى حسنا فيه » ..

فرأت ليلى أن تبوح لها بالسر ، فقالت : « وما قولك اذا لاقيت حبيبك وأنت على قيد الحياة ؟ .. »

فتفرست سمية فى وجه ليلى ، وهى تحسبها تمزح ، وقالت : « لا تحببى الحياة الىَّ ، فان لقائى اياه فى العالم الآخر خير

(١) ابن الاثير — الجزء الرابع

وأبقى . أما هنا فلا أمل لى فى ذلك »

قالت ليلى : « لا تقطعى الأمل يا سمية »

فأجابت سمية وهى تحسب انها تخفف عنها : لست أبالى .. أقطعت الأمل ، أم لم أقطعه ، فان مدة عذابى فى هــذا العالم أصبحت قصيرة .. ولا بد من انقضاء هذه الحرب ، فاذا ظل هذا الطاغية حيا كان دوائى فى هذه الصرة ، واذا مات .. ولكن ما الفائدة من بقائى فى هذه الدنيا وحدى ؟ »

***

فقطعت ليلى كلامها وقالت والجد فى غنة صوتها : « اذا بقيت على قيد الحياة ، فانك لاتكونين وحدك لأن حسنا ما زال حيًّا »

فلما سمعت سمية ذلك بغتت ، وعادت الى التفرس فى وجه ليلى ، فرأت الجد باديا فى عينيها فوثبت من مجلسها ، وقالت : « بالله أعيدى ذكره وعلليني ببقائه ... قولى انه باق فان بقاءه يحييني .. ! » قالت ذلك واختنق صوتهــا فبكت ، ثم قالت : « ولكن ما الفائدة من التعلل بالأحلام .. »

فقالت ليلى : « لسنا فى حلم وانما نحن فى يقظة ، وقد آن لك أن ترى حسنا .. انه فى انتظارك على مقربة من هذا الخباء ، وسأدعوه اليك لتتلاقيا » ثم خفضت صوتها وقالت : « وتتواعدا على وقت تفران فيه من هذا المعسكر . ولا خوف من مجىء الحجاج الليلة بسبب القَسَم الذى أقسمه ، فهو طبعا لايأتى خيام نسائه » ..

- ٦٦ -

ضاع ثانية !

وكانت سمية تسمع قول ليلى ولا تصدقه ، ولكنها لم تر بدا من تصديقه ، وخاصة حينما سمعت ان حسنا بقرب خبائها .. فهرولت الى شق فى الخباء ونظرت الى الخارج ــ وكان الليل قد أسدل نقابه ــ فلم تر أحدا ، فنادت امة الله فأسرعت اليها وقد أنارت السراج ودخلت حتى وضعته على المسرجة ، فقالت لها سمية : « هل رأيت أحدا جالسا حول هذا الخباء ؟ »

قالت الخادمة : « كلا يامولاتى ، ولكننى رأيت رجلين سارا معا وخرجا من المعسكر »

فقالت ليلى : « هل رأيت مع أحدهما جرابا ؟ » ..

قالت الخادمة : « اظننى رأيت أحدهما يحمل جرابا »

فأسرعت ليلى وسمية فى أثرها ، وأطلتا من باب الخباء فلم تريا أحدا ، فتحولت ليلى نحو المكان الذى أجلسته فيه فلم تر له أثرا فأسقط فى يدها ، وأعملت الفكرة فى سبب ذهابه ، ومن هو الرجل الذى سار به فلم تهتد الى حل

أما سمية فخامرها شك فى قول ليلى ، ولكنها تحققت من صدقها لما بدا فى عينيها من دلائل الاهتمام وما غشى جبينها من امارات الانقباض ، فقالت لها : « ماذا عسى ان يكون سبب

هذا الذهاب ؟ .. والى أين ؟ »

قالت ليلى : « لايخلو أن يكون ذهابه لأمر ذى بال ، فقد جاء معى وهو لايصدق انه يحظى برؤيتك .. ولا أظنه قد غادر هذا المكان الا بالرغم منه . ولعله يعود الليلة ، فلنترقب رجوعه .. ولكن من هو ذلك الرفيق ؟.. فان حسنا غريب فى هذا المعسكر، وقد جاء اليه متنكرا فكيف عرفوه ؟ »

ثم دخلتا الخباء ومكثت سمية وهى مطرقة ، واستغرقت فى الهواجس وقد أصاخت بسمعها ، فاذا هب النسيم ظنت حسنا قادما فيضطرب قلبها . وخرجت ليلى الى خباء هند ، وهى تكتم ما فى نفسها لعلها تستطلع شيئا جديدا

أما سمية فنادت امة الله ، وكانت هى أنيستها فى وحشتها ومواسيتها فى أحزانها ، وهى وحدها تعرف مكنونات قلبها . فلما نادتها لم تسمع جوابا ولا جاءتها ، فأعادت النداء فلم يجبها أحد .. فاستعاذت بالله من تلك الليلة ، وخرجت الى حيث تتوقع أن تراها فرأت من خلال الظلام شبحين : امة الله أحدهما ، والثانى بلباس الرجال .. فخفق قلبها لأنه خيل اليها ان الشبح الآخر هو حبيبها حسن ، فلم تصبر عن أن تنادى قائلة : « امة الله .. »

فقالت امة الله : « لبيك يامولاتى انى قادمة على عجل » . قالت ذلك ، وظلت واقفة مع الرجل ، فانشغل بال سمية ولم تعد تستطيع صبرا ، وهمت بالمسير نحوهما .. فرأتهما قادمين نحوها فتقهقرت حتى وقفت بباب الخباء ، ووسعت حتى يقع نور السراج

على القادمين فتميز الوجوه . فتقدمت أولا امة الله وحدها ، وظل الرجل واقفا على بعد خطوات من الخباء ، ولكنها تبينت قيافته فاذا هو بلباس حرس الحجاج .. فتشاءمت منه ودخلت الخباء مسرعة وامة الله فى أثرها . وكانت امة الله قد أدركت اضطراب سيـــدتها من منظر ذلك الرجل ، فابتـــدرتها قائلة : « لا تخافى يامولاتى ، ان الرجل رسول خير »

قالت سمية : « ممن ؟ »

قالت امة الله وقد خفضت صوتها : « من حسن »

فبدت البغتة فى وجهها ، وقالت : « ليدخل »

— ٦٧ —

على بعد خطوات

فخرجت امة الله وعادت والرجل معها ، وعليه لباس الحرس ، ولم يكن لباس الجند قد تميز يومئذ عن ملابس سائر الناس تمييزا ملحوظا . أما حرس الأمراء فقد كان له لباس خاص لأن معاوية اقتبس فكرة الحرس من الروم ، وميزهم بعلامات خاصة . فوقفت ســمية لاستقبــال الرجل وركبتاها تصطكان لعظم اضطرابها من منظره

أما هو فلما دخل حياها باحترام ، وقال لها بصوت منخفض : « لايزعجك أمرى يامولاتى ، ولا يخيفك هــذا اللباس ، فانى

خادم لك ولمولاى حسن ... »

فلما سمعت صوته وتفرست فى وجهه ، عرفت انه عبد الله خادم حسن ، فصاحت فيه : « عبد الله ? .. »

قال الخادم : « نعم يامولاتى .. انى خادمك عبد الله »

قالت سمية : « وما الذى جاء بك الى هذا المعسكر ?.. وأين حسن ?.. هل هو على قيد الحياة كما يقولون ? » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فقال الخادم : « نعم ياسيدتى انه على قيد الحياة ، ولم أكن أعرف ذلك الا فى هذه الساعة .. وكنت قد يئست من حياته مثلك ، ولكن الله أنعم علىَّ به .. فالحمد لله »

قالت سمية : « وأين هو ? .. »

قال الخادم : « هو مختبىء على مقربة من هذا المكان حيث لايراه أحد ، لأنه جاء متنكرا ولم ينتبه له الا أبوك فدس الى الأمير أن يقبض عليه .. وقد اطلعت أنا على هذا العزم فأسرعت اليه وأنبأته بالمكيدة ، وخرجت به الى مخبأ بقرب هذا المعسكر ، وجئت لأنبئك بذلك حتى نهيىء حيلة تخرجان بها الى حيث تشاءان ، وأنا فى خدمتكما »

فقالت سمية : « سامح الله والدى .. لا ، لا .. لا سامحه الله على ما يسومنا اياه من البلاء ، لقد أصبحت أكره اسم عرفجة ، وأكره أن أراه من أجل هذه المعاملة .. آه ياربى ، ما العمل ?.. ما الحيلة ?.. عبد الله .. قل لى هل حسن فى مأمن ? »

قال الخادم : « نعم يامولاتى انه فى مكان أمين ولابأس عليه »
فقالت سمية : « وكيف أدخلت نفسك فى زمرة الحرس ، وكيف انطلى أمرك على الحجاج وعلى والدى ؟ »
قال الخادم : « ان حكايتى طويلة ، وخلاصتها انى لما يئست من لقاء مولاى حسن فى المدينة ، وكنت قد عثرت على خُرجه وفيه كتاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير ، والكتاب سرى ولا بد من ايصاله الى صاحبه .. لم أر خيرا من المجىء الى مكة ، فاذا كان مولاى حسن قد سبقنى اليها لقيته وسلمت اليه الكتاب ليعطيه الى ابن الزبير . واذا لم أجده أوصلت الكتاب أنا .. فركبت من المدينة حتى اذا دنوت من مكة علمت ان رجال الحجاج يحيطون بها من كل جانب ، ولا يستطيع أحد الدخول اليها ، وبخاصة أنا ومعى ذلك الكتاب .. فلاح لى أن أحتال فى دخول معسكر الحجاج لعلّى أتنسم خبرا عن سيدى ، ودخولى المعسكر هين لأننى من ثقيف ، والحجاج من ثقيف ، وهو كثير الثقة فى قبيلته ويعرفنى من قبل .. ولكننى أعلم ان الحجاج رجل شديد داهية ، فربما اشتبه فى أمرى فيأمر بقتلى .. فعزمت على أن أتقرب بذلك الكتاب اليه ، وأنا لا أرى نفعا منه بعد ضياع مولاى .. وربما تمكنت بتقربى من الحجاج من استطلاع خبر ، أو لعلّى أوفق الى معرفة أمر مولاى .. فتظاهرت بأنى قادم على الحجاج فى أمر ذى بال يهمه ، وجئت معسكره وطلبت أن أخلو به سرا فأذن لى ، فلما عرّفته بنفسى عرفنى . ثم

أخرجت له ذلك الكتاب وأنا أعلم انه ليس فيه ذكر لمولاى حسن ، وانما هو خطاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير فى أمر خطبة أو نحوها ، فتظاهرت بأنى عثرت على هذا الكتاب مع رجل قادم من الشام .. ولما رأيت عليه اسم عبد الله بن الزبير اشتبهت فى أمره فقتلت حامله ، وجئت بالكتاب اليه

« فلما سمع الحجاج ذلك منى وهو يعلم انى من قبيلته أحسن بى الظن وقربنى منه ، وجعلنى من حرسه كما ترين . وفى مساء ذلك اليوم قدم والدك عرفجة على الحجاج ، فأطلعه على ذلك الكتاب وأنا واقف ببابه .. فلما اطلع أبوك عليه نادانى ، فدخلت الفسطاط فقال : « من أين أتيت بهذا الكتاب ؟ » فقصصت عليه الخبر كما ذكرته ، فقال : « ان صاحب هذا الكتاب عدو لنا عرفناه فى المدينة وحاولنا قتله ، والظاهر اننا لم ننجح لأن الذى ذهب لاغتياله لم يعد الينا ، فهل قتلته أنت ؟ » فلما سمعت قوله اطمأننت على حياة مولاى ، وعولت على اتمام الحيلة فقلت : « لا أعلم اذا كان هو الذى قتلته ، ولكننى قتلت شابا بلباس كذا » وذكرت له ما يقرب من صفات مولاى ، فقال : « لعلك حققت مرادى ، وعلى أى حال فقد فعلت حسنا » وأدنانى أبوك منه ، ومكثت فى جملة الحرس وأنا أتفقد الأحوال وأستطلع الأخبار ، حتى جاءنا مولاى فى هذا النهار مع ليلى الاخيلية ــ وقد تنكر ــ فعرفته ولم يتنبه هو لى ، ولا أنا أردت أن يعرفنى لئلا ينكشف أمرنا . فتجاهلت حتى دخلت ليلى على الحجاج

وخرجت . وكان والدك مع الحجاج فى الفسطاط ، فلما خرجت ليلى رأيت فى وجه والدك الغدر ، وسمعته يخاطب الحجاج فأصغيت ، فاذا هو يشير بأصبعه الى ليلى ويقول : « ان راويتها جاسوس متنكر» وأشار بالقبض عليه .. فأدركت ان والدك عرفه وتحققت انه اذا ظفر به قتله لا محالة . فاحتلت فى الخروج اليه حتى جئته وهو جالس بقرب هذا الخباء ، وعرَّفته بنفسى .. فأخبرنى انك هنا وانه جاء من أجلك فذهبت به الى مكان خرب وراء هذا المعسكر ، لا يهتدى أحد اليه ، ووعدته ان آتى اليك وأطلعك على أمره لندبِّر حيلة للفرار من السجن » ..

— ٦٨ —

ليلى وعرفجة

وكان عبد الله يتكلم وسمية تنصت فى اهتمام وشوق ، وعيناها شاخصتان فيه . فلما جاء على آخر الحديث ، واطمأن بالها على حبيبها ، ابتهجت نفسها وقالت : « بورك فيك يا عبد الله .. نِعْم الرجل أنت ؛ واذا أتيح لنا النجاة على يدك جعلنا لك حظا من سعادتنا ، والا فلا حول ولا . . . »

فقال عبد الله : « ان النجاة قريبة ان شاء الله ، ولكن لابد من الصبر .. فاسمحى لى بالانصراف الآن لأعود الى موقفى لئلا يشتبهوا فى أمرى ، فاذا حدث شيء أو احتجت الىَّ فى

شيء فانى رهن اشارتك ، واذا اطلعت على خبر يهمك جئتك به » قال ذلك وهمَّ بالخروج فاستوقفته ، وقالت له : « الى أين ؟.. وكيف تترك حسنا وحده فى ذلك المكان الخرب ؟ .. ومن أين يأكل ؟ .. وأين ينام ؟ .. »

فقال عبد الله : « هل تظنين اننى تركته ولم أعد اليه ؟.. كونى فى راحة وهدوء ، فانى أحرسه وأدبر له كل ما يحتاج اليه ..»

فأثنت سمية على شهامته ، ولما خرج عادت الى هواجسها ، وقد سرها أن تتأكد من بقاء حسن على قيد الحياة وأن تثق فى رغبته فيها وقربه منها ، وتوسمت فى مساعى عبد الله خيرا . ولكنها تذكرت ليلى ، فنادت امة الله وكانت قد تبعت عبد الله لتكرر التوصية فى أمر حسن ، فلما سمعت سيدتها تناديها عادت مسرعة ، فقالت لها سمية : « أين هى ليلى ؟.. ائتنى بها »

قالت امة الله : « هى فى خباء هند » وخرجت ثم عادت وهى تقول : « لم أجد فى الخباء أحدا .. »

فعجبت سمية لذلك ، وقالت : « ألم تسألى الخدم عنهما ؟ »

قالت امة الله : « سألت الخادمة ، فقالت لى ان هندا خرجت عند الغروب لتتمشى بين الأخبية ، ثم جاءت ليلى للسؤال عنها .. فلما لم تجدها اقتفت أثرها ، ولم تعودا بعد »

فقالت سمية : « وأين يذهبان فى هذا الليل ؟ .. أخشى أن يكون الحجاج قد بعث للقبض على ليلى لأنها ساعدت حسنا على التنكر » وخشيت سمية اذا بالغت فى البحث عنهما أن

تزداد الشبهة عليها ، فدخلت خباءها وجلست تفكر فيما مرَّ بها فى تلك الليلة من الغرائب .. وكلما تصورت انها نجت بحبيبها وخرجت من معسكر الحجاج اختلج قلبها فرحا

أما عرفجة فانه عرف حسنا حالما وقع بصره عليه وتجاهله حتى خرجت ليلى ، فدس الى الحجاج انه عدو كما تقدم . فعهد اليه الحجاج أن يفعل به ما شاء ، فلما ارفض المجلس خرج عرفجة الى رئيس الحرس وأوصاه أن يبعث بضعة عشر من رجاله بالسلاح يقتفون أثر رفيق الشاعرة ويقبضون عليه حيثما وجدوه . وكان عبد الله قد سبق اليه بأسرع من لمح البصر ، وخرج به الى ذلك المخبأ ..

أما الحراس فلما لم يعثروا على حسن عادوا الى عرفجة ، فقال : « الىَّ بليلى ، فانها فى أخبية النساء » فعادوا اليها فرأوها تتمشى مع هند بجوار الأخبية ، فأشاروا اليها أن تأتى الى فسطاط الحجاج . فلما سمعت ذلك خافت من انكشاف أمرها ، ولكنها لم تر بدا من الطاعة فسارت مع الحرس حتى أتوا الفسطاط وقد عقد الظلام قبابه ، فلم يدخلوه وواصلوا السير ، فظلت فى أثرهم حتى دخلوا فسطاطا آخر رأت فى صدره عرفجة جالسا ، فلما رأته استعاذت بالله من شر ذلك المساء ، ولكنها كانت بريئة لا تبالى بمن تلاقى ، وحيت فدعاها الى الجلوس وقال لها : « أين هو راويتك يا ليلى ؟ .. »

فلما سمعت سؤاله أدركت ان أمر حسن انكشف ، فلم تشأ

أن تشرك نفسها فى ذنبه فيقعان معا ولا تعود قادرة على مساعدته ، فعمدت الى الحيلة ، فقالت : « وأى راوية تعنى ؟ .. »

قال عرفجة : « راويتك الذى يحمل جرابك ، وقد جئت به اليوم .. »

قالت ليلى : « وهل دخلت على الأمير ومعى راوية ؟ .. »

قال عرفجة : « لم يدخل معك ، ولكنه بقى خارجا .. ولما مضيت اقتفى أثرك »

قالت ليلى : « وهل يدل ذلك على انه راويتى ، وكيف يكون راويتى ولا أدعوه للجلوس معى فى حضرة الأمير ؟ ! »

قال عرفجة : « أراك تتنصلين من تبعته ، ونحن لا نبغى به شرا .. »

قالت ليلى : « لايهمنى مهما بغيت به ، فقد كنت فى هذا المعسكر منذ الأمس ، ولم يكن معى راوية .. فمن أين أتى هذا الآن ؟ .. »

قال عرفجة : « جئت به من مكة »

قالت ليلى : « أظنك تعنى الرجل الذى يحمل الجراب .. لقد التقيت به عند دخولى المعسكر ورأيته يسير بجانبى فلم أنتبه لأمره .. ولا أعرفه .. ومع ذلك فاذا كنتم تسيئون الظن بمن يبذل نفسه فى خدمتكم فلا حيلة لنا فيكم .. »

فلما رآها غضبت جعل يخفف عنها ، ويقول : « ما أسأنا الظن بك يا ليلى وأنت شاعرة الأمير ، ولك عنده المنزلة السامية ،



« قالت ليلى : هل يخشى الامير الجواسيس ؟ ان من كان مثل أميرنا فى الحزم وشدة البطش لا يخشى بأسهم . وانا اذا علمت بجاسوس فى هذا المعسكر أخبر الامير به »

ولكن هذا الرجل قد خدعنا وهو جاسوس دخل معسكرنا تحت ظلك ونحن نحسبه راويتك .. »

قالت ليلى : « هل يخشى الأمير الجواسيس ؟ .. ان من كان مثل أميرنا فى الحزم وشدة البطش ، لايخشى بأسهم . وأنا اذا علمت بجاسوس فى هذا المعسكر يجدر بى أن أطلع الأمير عليه لأنى ضنينة به »

قال عرفجة : « بورك فيك ، وأرجو أن تكونى عينا على هذا الرجل .. فاذا رأيته فانبئينا بمكانه ، فقد بعثنا من يقبض عليه فلم يقفوا له على أثر . ولعله اذا طلعت الشمس يظهر ، فاكتمى هذا الآن .. » قال ذلك ونهض ، فنهضت ليلى وخرجت من عنده وهى قلقة على حسن ، ولكنها سرّت لنجاته من قبضتهم .. على انها لم تعلم أين هو ، فعادت توا الى سمية وقصت عليها الخبر، فأطلعتها سمية على حديث عبد الله فاطمأن بالها

– ٦٩ –

وسيلة الفرار

أما حسن فقد علمنا انه اختبأ فى مكان خرب بجانب المعسكر، يطل على الطريق المؤدى الى مكة .. فقضى ليلته هناك كأنه على جمر الغضا ، وأفكاره تائهة فيما حل به ، وعظم عليه أن يخرج من معسكر الحجاج هاربا ، ولكنه أدرك انه يستحيل عليه النجاة

بغير هذه الطريقة .. ولبث ليلته لم يغمض له جفن ، وهو يعمل فكره فى حيلة تنجو بها سمية من الحجاج ، فاذا نجا بها فقد غلب الحجاج وجنده وخليفته

***

وكان عبد الله قد وعده بأن يعود اليه بالحيلة التى دبَّرها للفرار ، فقضى ليلته فى أمثال هذه الهواجس .. وفى الصباح صعد على اكمة أشرف منها على معسكر الحجاج لعله يرى رسولا أو يستبشر ببشارة ، فرأى بينه وبين المعسكر أرضا خالية وتبين المكان جيدا . وفيما هو يتطلع رأى رجلا قادما على هجين من أطراف المعسكر كأنه آت من الصحراء ، ولم يمض قليل حتى ظهر الرجل بلباس أهل البادية ، ثم تبين له من ملامحه انه خادمه عبد الله ، فاستبشر بوصوله .. فلما وصل ترجَّل وأشار اليه أن ينتظر فى المكان الخرب ، ولا يظهر نفسه على تلك الصورة ، فقال له حسن : « ما وراءك الآن ؟ »

قال عبد الله : « أبشرك أولا ان الحجاج لم يتزوج سمية ، وان كانت قد سميت عليه .. »

قال حسن : « وكيف عرفت ذلك ؟ .. »

قال عبد الله : « عرفته من ثقة ، فقد أخبرتنى به ليلى الاخيلية وهى التى ساعدتنا فى تدبير الحيلة للخروج .. » وذكر له أمر القسم الذى أقسمه الحجاج ، فانشرح صدر حسن بهذه البشارة لأنه يكره أن يمسها أحد ، فقال : « وما الذى دبرتموه ، فانى

أرانى ذليلا بخروجى هاربا على هذه الصورة ، ويخيّل لى أن سمية لا ترضى بهذا الضعف .. »

قال عبد الله : « ان الأمر على عكس ما تظن ، فانها لما علمت بنجاتك سرّت سرورا عظيما لأن بقاءك بالمعسكر ربما كان سببا للفتك بك وبها . وما الفائدة من الاصرار على المستحيل ، هل كنا نستطيع مقاومة الحجاج وجنده ؟.. مالنا ولهذا ، فقد جئت اليك فى تدبير استقر رأينا عليه فى هذا الصباح ، وهو أن أترك هذا الجمل عندك وأعود ، وأنت تتأهب للركوب فى العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التى تراها أمامك ، فتلاقينا هناك أنا وسيدتى سمية وكل منا على هجين ومعنا المئونة اللازمة للسفر فى الصحراء أياما ، ومتى بعدنا عن مكة كنا فى مأمن ...»

***

فسرَّ حسن لهذا التدبير مع علمه بصعوبة تحقيقه .. لكنه وافقه وقال : « انى فى انتظاركما ، على ما وصفت ، ولكن احذر أن يطلع أحد على ما دبَّرتموه فتكون الثانية شرا من الأولى ، فانى فى هذه المرة لا أفر من أحد .. فاذا لقينى جند ومعى سمية لا أفر ولا أرجع ، بل أناضل عنها حتى أموت بين يديها »

قال عبد الله : « لايهمك أمر تدبير هذه الحيلة ، فقد أعددنا كل شىء .. ولا خوف على سمية لأن الحجاج لايأتى الى خباء أهله مطلقا فى هذه الأيام للسبب الذى ذكرته لك »

– ٧٠ –

الوقوع فى الفخ

فاطمأن بال حسن ، وجلس يتناول طعاما أحضره له عبد الله .. ولم تمض ساعة حتى سمع قعقعة اللجم ووقع حوافر الخيل ، فصعد الى الاكمة فاذا هو ببضعة وعشرين فارسا قد اكتسوا بالدروع لايظهر من وجوههم غير حدقات عيونهم ، يتقدمهم عبد عرف لأول وهلة انه قنبر عبد عرفجة . فلما وصلوا الى المكان ، أشار قنبر بيده الى حسن وقال : « هذا هو ، فأمسكوه » فأحاطوا به من كل ناحية ، فلم ير حسن بدا من التجلد ، فقال لهم : « ما بالكم ؟ .. ما الذى تطلبونه ؟ »

فأجابه قنبر وهو يضحك ضحك الاستهزاء : « ان الأمير يدعوك الى وليمة العرس .. »

فاستشاط حسن غضبا من استخفاف ذلك العبد ، وقال له : « اخسأ يا عبد السوء .. لست أسألك .. »

وما أتَم كلامه حتى رأى الفرسان قد أحدقوا به وسيوفهم مسلولة ، فوضع حسن يده على قبضة سيفه وقد ثارت الحمية فى رأسه ، وقال لهم : « لايغرنكم عددكم ، ولا تظنوا أنى أهاب سيوفكم وخيولكم ، ولا تحسبوا أنكم تأخذوننى بالارهاب أو بالعنف .. فان أمرا تدعوننى اليه بالحسنى تروننى مصغيا اليه ،

وأما بالعنف فلن تنالوا منى شعرة قبل أن يقطر حسامى من دمائكم » قال ذلك وقد أخذ الهياج منه مأخـذا عظيما ، ولم يَعُد يبالى بالحياة ..

فتقدم اليه فارس منهم لايظهر من وجهه غير حدقتى عينيه من خلال اللثام ، وقد شهر السيف بيده وقال : « نراك تظهر من الضعف قوة ، وما أنت الا جاسوس نذل .. لا أحسبك تحتمل ضربة من هذا السيف »

فلما سمع حسن قوله صـعد الدم الى رأسه وعمى بصره وصمّت أذناه عما يقول الفارس ، وصاح فيه : « ويلك .. أتخوفنى بسيفك ولست أرهب كل هذه السيوف .. ولا يخاف السيف الا من يرهب الردى ، ولست ذلك الرجل . فاذا أردت النزال فانزل تتضارب راجلين ، ولا يصح النزال وأنت راكب وأنا راجل. واذا خفت انفرادك، فانزلوا جميعا وأنا أستعين عليكم بالله»

فضحك الفارس بصوت عال سمعه الجميع ، ثم قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن : « لو ان الأمير أمرنا بقتلك لأريتك القتل كيف يكون ، ولكنه أمرنا أن نقودك اليه أسيرا.. فامش..»

قال حسن : « لا أسير ماشيا وأنتم راكبون ، فاما أن أركب معكم أو أن تمشوا معى » فلما رأوا هذه الجرأة منه هابوه ، وحسبوا له حسابا.. وجعلوا يتساورون فيما بينهم : ماذا يفعلون؟ فأشار بعضهم بقتله ، فقال آخرون : ان الأمير لم يأمرهم بذلك ، فاستقر رأيهم على مسايرته ريثما يبلغون المعسكر وللحجاج فيه

رأيه . ويندر أن يساق الى الحجاج متهم وينجو من القتل ، فانه كان سفاكا للدماء حتى أحصوا الذين قتلهم فى حياته فبلغوا مائة ألف وعشرين ألفا ، ووجدوا فى سجونه بعد موته ثلاثة وثلاثين ألفا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب ، (١) فرأى الفرسان أن يعاملوا حسنا بالحسنى ، ويتركوا أمر الايقاع به الى الحجاج .. فتقدم اليه فارس غير الذى كلمه أولا ، وقال له : « لو كنا مأمورين بقتالك لقاتلناك مشاة أو فرسانا ويحكم الله بيننا وبينك ، ولكننا جئنا لنحملك الى الأمير »

قال حسن : « قلت لكم انى لا أسير معكم ماشيا ، وأنتم راكبون » وكان قنبر واقفا يسمع كلامه وهو يعجب لصبرهم على جرأته ، فلما سمع قوله تقدم اليه وقال بلهجة العبيد ولغتهم : « امش ياهسن .. وهل انت أهسن منى ؟.. فها أنا ماش أيضا »

فلما سمع حسن كلامه لم يتمالك أن جرد سيفه وصاح فيه : « اذا تكلم الناس فاخرس أنت يا عبد النحس .. والا فانى أجذ رأسك بحد هذا السيف »

فما كان من قنبر الا انه ضحك حتى كشر عن أسنانه ، فبانت نواجذه ثم قال : « اقتلنى .. اقتلنى .. وبعد قليل نرى من يقتل منا..ولكنك لا تلام وانت حزين على سمية لأنها هرجت (خرجت) من يديك .. تعال يا مسكين وانظرها بين نساء الأمير وهى تدهك (تضحك) عليك ومولاى عرفجة يسلم عليك ... »

(١) العقد الفريد ـ الجزء الثالث

فلما سمع حسن ذكر سمية وعرفجة ، ورأى ذلك العبد يحتقره ويهزأ به ، هاج غضبه واستغرب سكوت سائر الفرسان عن وقاحته .. ولكنه أمسك نفسه ، وقال له : « لولا خوفى ان يقال انى لطخت حسامى بدم عبد لئيم لأطرت رأسك عن جذعك ، ولكنى أرجو أن يكون ذلك نصيب مولاك الخائن . فاخرس ولا تخاطبنى والا فلومك على نفسك .. »

— ٧١ —

على الباغى تدور الدوائر

فلم يزدد قنبر الا وقاحة واستخفافا ، فتقدم نحو حسن ويده على قبضة سيفه وقال : « ألمثلى تقول هذا الكلام ياحسن ، ثم تعرض بذكر مولاى .. والله انى ضاربك ضربة أعلمك بها الأدب والهشمة (الحشمة)..» قال ذلك وهمّ باستلال السيف ، فلم يعد حسن يصبر على وقاحته مع سكوت الفرسان .. فجرد هو حسامه وتلقاه بضربة على عنقه ، فذهب رأسه يتدحرج على تلك الأحجار

فلما رأى الفرسان ذلك صاحوا فيه : « لقد حل لنا دمك بعد هذه الجرأة .. كيف تتجرأ على قتل هذا الرجل بين أيدينا ؟.. »

فلم يبال حسن بغوغائهم ، وأجابهم : « أتعدون هذا رجلا ؟.. ان من يعده رجلا لجدير أن يناله ما ناله ، ثم انى رأيتكم سكتم عن وقاحته ، فلم أصبر عن قتله وقد قلت لكم انى لا أبالى بالموت

فلا تخوّفونى به» قال ذلك وقد كاد الشرر يتطاير من عينيه.. وظل واقفا وسيفه يقطر من دم قنبر ، وقد ارتاح قلبه بقتله ، ويئس من الحياة لأنه لم يكن يتوقع من هؤلاء الفرسان الا الفتك به.. فعزم فى نفسه على الدفاع الى آخر نسمة من حياته ، فاذا مات فلا أسف على الحياة فى الذل . ولكنه ما لبث أن رأى الفرسان يتسارون ، ثم تقدم أحدهم وترجّل عن فرسه وقدمه له قائلا : « هذا جوادى فاركبه حتى تأتى المعسكر وشأنك والأمير.. وأنا أركب جملك »

فلما سمع صوت الفارس عرف انه خادمه عبد الله ، فاستأنس به واطمأن باله ، وأدرك ان ما آنسه من حسن معاملتهم له وصبرهم على أقواله انما كان بسببه .. فركب الجواد ، وساروا جميعا نحو المعسكر

وكان السبب فى معرفة مكان حسن ، ان عرفجة لما خرجت ليلى من عنده ولم تطلعه على مقره ، بعث عبده للبحث عنه فى المعسكر. فقضى طول الليل فى البحث ، وفى الصباح رأى هجانا قادما الى المعسكر من ناحية ذلك المكان الخرب ، ولم يعرف الهجان ولكنه انتبه لذلك المخبأ.. فخرج خلسة ، فرأى حسنا وجمله على حين أن حسنا لم ينتبه له . فأسرع الى سيده فأنبأه بما رأى ، فأوعز عرفجة الى الحجاج بأنه ظفر بالجاسوس ، وانه يحتاج الى كوكبة من الفرسان ليقبض عليه فأذن له بذلك

وكان عبد الله قد عاد الى موقفه مع الحرس ، فلما سمع الأمر احتال فى مرافقة الفرسان لعله يستطيع مساعدة سيده فى شىء ..

وقد كان يخشى أن يصيبه سوء ، فبذل جهده حتى أبقى عليه برغم ما ارتكبه من قتل قنبر ، وكان قنبر ذا منزلة رفيعة عند الحجاج لما لمولاه من منزلة ، ولأنه ينفع فى مثل هذه المكايد .. ولكن الجند لم يكونوا يحبونه لفرط استبداده ووقاحته ، واستبداد العبيد ثقيل على الطباع . فلما قتله حسن فرحوا فى قرارة أنفسهم ، ولكنهم أظهروا الغضب

وبعد أن أرسل عرفجة الفرسان ، دخل على الحجاج فى خيمته .. وجلسا ينتظران ما يكون ، وعرفجة يمهد السبيل للفتك بحسن ، فأقنع الحجاج انه جاسوس وانه اذا بقى حيا لا تؤمن غائلته ، وأهون شيء أن يقتله ويريح البلاد منه ، والحجاج لا يحتاج فى القتل الى توصية أو تحريض لنهمه الى سفك الدماء

وآن وقت الغداء ، ولم يشأ الحجاج الخروج من الفسطاط قبل مجيء الفرسان ليرى ذلك الجاسوس المهول ، على ما بالغ عرفجة فى وصفه . فلما جاع لم يعد يصبر عن الطعام ، فأمر أن يؤتى به الى الفسطاط فجاءوه بالمائدة .. وكان الحجاج يعد من الأكلة المشهورين فى الاسلام مثل سليمان بن عبد الملك ، وميسرة البراش ، وغيرهما .. حتى قالوا انه أكل ٨٤ رغيفا مع كل رغيف سمكة فى أكلة واحدة ، (١) فجاءوه بالطعام ودعا من فى مجلسه للأكل معه فاعتذروا .. ليس عن شبع ، ولكنهم امتنعوا تهيبا ، الا عرفجة فانه أكل معه ، ولم يكن يحسن المضغ لفرط قلقه مما

---
(١) المستطرف ــ الجزء الاول

دبَّره لحسن من المكايد .. فلما فرغ الحجاج من الطعام ، رفعوا المائدة وجلسوا والحجاج يمسح لحيته بيده ولا يتكلم .. وكان شديد الهيبة حسن الفراسة ، فاذا سكت لبث الذين فى حضرته سكوتا كأن على رؤوسهم الطير

- ٧٢ -

المحاكمة

وبينما هم جلوس على تلك الحال ، اذ دخل حارس وهو يقول : « عاد الفرسان ، وعما قليل يصلون .. »

فقال الحجاج : « ألم تر الأسير معهم ؟ »

قال الحارس : « لم أر أحدا ماشيا .. »

قال الحجاج : « اخرج وتفرس ، لعله جاءنا على جواد .. »

فخرج الحارس ثم عاد وهو يقول : « أظنه جاء راكبا لأنى رأيت معهم رجلا بلباس غريب »

فلم يصبر عرفجة ، فوقف بباب الفسطاط وأطل على القادمين.. ولما وقع نظره على حسن عرفه ، وكانت أول مرة التقيا فيها بعد تلك المقابلة فى المدينة

أما حسن فلما رأى عرفجة ارتعدت فرائصه من الغيظ ، وودَّ لو أن سيفه أصاب عنقه بدلا من قنبر ، فيقطع الحية من رأسها . وتفرس عرفجة فى الناس فلم ير قنبرا ، فظن انه تأخر فى الطريق..

فدخل الفسطاط وجلس بجانب الحجاج ، ثم دخل الحارس (١) وأنبأ الحجاج بوصولهم ، فقال : « ادخلوا الرجل لنراه .. »

فأدخلوه عليه وقد نزع سيفه ، ووقف حارسان من كل جانب فى يد كل منهما حربة ، وفيهم عبد الله . ولا تسل عن هواجس عبد الله فى تلك الساعة لما يعلمه من رغبة الحجاج فى سفك الدماء . وأما حسن فانه وقف بقدم ثابتة كأنه بين يدى بعض الأصدقاء ، والتفت الى من حوله فى ذلك الفسطاط ، فرأى فى صدره الحجاج وعرفجة .. والى الجانبين رؤساء الجند ، وكلهم سكوت تهيبا من مجلس الحجاج ، لأنه قلما رؤى ضاحكا ، واذا ضحك فانه يكشر عن أسنانه ولا تبدو فى وجهه ملامح الضحك . وقد تسمع قهقهته ، فاذا نظرت الى وجهه لاتراه يضحك

***

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشدة وطأته ورغبته فى سفك الدماء ، فعمد الى الصبر والثبات حتى الموت .. فظل واقفا برهة ولم يخاطبه أحد فى شىء ، والحجاج ينظر اليه ويتفرس فيه ، ثم قال له : « ممن أنت ؟ .. »

قال حسن : « ما أنا من ثقيف ، ولا من أمية »

قال الحجاج : « وماذا تعنى بذلك ؟ .. »

قال حسن : « اعنى انى لست من قبيلة الأمير ، ولا من قبيلة أميرالمؤمنين ، ومهما كنت بعد ذلك فأنا غريب.. وللأمير رأيه فىّ»

---

(١) الاغانى ــ الجزء العاشر

فتصــدى عرفجة لخطــابه ، ولم يصبر على الحجاج ريثما يتكلم ، وقال : « أبمثل هذا الجواب يخاطب ولى أميرالمؤمنين .. انها وقاحة .. »

فلم يصبر حسن على سماع ذلك من عرفجة ، فالتفت اليه وقال : « بل الوقاحة أن يتصــدى مثلك للجواب عن مولانا الأمير ، ويقطع عليه الكلام .. »

فأراد عرفجة أن يتكلم ، فرأى الغضب فى وجه الحجاج وهو يهم بالكلام فسكت ، فقال الحجاج : « لسنا فى مقام جدال ، فأخبرنى ما الذى جاء بك الى هذا المعسكر متنكرا ؟ .. »

***

فتحير حسن فى الجواب ، وخشى أن يصرح بحقيقة غرضــه فيهيج غيرته عليه ولا سبيل بعد ذلك للنجاة .. فلبث ساكتا ، فاستبطأ الحجاج جوابه ، فأعاد السؤال فقال حسن : « جئت لأمر يهمنى ولا يهم سواى ، ولا علاقة له بالحرب أو بالسلم .. »

قال الحجاج : « نرى أجوبتك مبهمة ، فأفصح »

فلبث حسن ساكتا ، فاغتنم عرفجة سكوته وخاطب الحجاج قائلا : « ان أجوبته مبهمة لأنه يخاف أن يعترف بفعلته .. انه جاسوس من عبد الله بن الزبير على مولانا الأمير .. بل هو عدو أمير المؤمنين ، ويتمنى سقوطه ويسعى فى ذلك جهــده . واذا رأيته ينكر ذلك ، فاطلب اليه أن يلعن الكاذبين .. »

فالتفت الحجاج الى حسن كأنه يستطلع رأيه فيما قاله عرفجة ،

فقال حسن : « حاشا لله أن أكون كما يقول »

فقال الحجاج : « اذا كان الأمر كذلك ، فالعن الكاذبين على ابن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبير ، والمختار بن أبى عبيد » (١)

فارتبك حسن فى أمره لأنه لايعتقد كذب هؤلاء ، ولا يريد أن يلعنهم وخصوصا على بن أبى طالب . واذا لم يلعنهم فسيتخذ عرفجة ذلك حجة عليه . فقال : « لا أرى علاقة بين صدق نيتى فى خدمة أمير المؤمنين عبد الملك وبين لعن هؤلاء .. »

***

فصاح عرفجة للحال : « أرأيت يامولاى ، انه خائن غادر يكذب على الأمير كذبا صريحا !.. أما قلت لك انه جاسوس ، والجاسوس يستوجب القتل، فاقتله يامولاى وأرح نفسك منه..» قال ذلك وأعضاؤه كلها ترتعش ولحيته تنتفض فى وجهه مع صغرها وعيناه ترتعشان ، تدلان دلالة صريحة على خبثه وخيانته

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا فراسة .. ونظر فأدرك أن امتناع حسن عن اللعن لا يدل على جاسوسيته ، ولكنه أعاد السؤال عليه وقال : « لقد صبرنا عليك حتى حيرتنا جرأتك .. سألناك عن نسبك فلم تجبنا ، وهذا ذنب يكفى وحده لاتهامك . ثم سألناك عن غرضك من مجيئك الى هذا المعسكر متنكرا فأجبت جوابا مبهما ، وكلفناك لعن الكاذبين فأبيت ، فهل تتوقع بعد ذلك عفونا عنك ؟ .. »

(١) العقد الفريد ــ الجزء الثالث

- ٧٣ -

افتضاح الأمر

فلما سمع حسن كلام الحجاج تحقق من الخطر المحدق به ، وخشى أن تنفذ حيلة عرفجة فيه .. فلبث ساكتا وهو يفكر فيما يفعل ، فاغتنم عرفجة هذه الفرصة الثانية وخاطبه قائلا : « أجب الأمير .. قل ، ألست جاسوسا ؟.. جئت ياخائن لتدبر المكايد على أمير المؤمنين ، ثم تدعى انك من أهـل النزاهة وتتظاهر بالصدق » ثم التفت الى الحجاج وقال : « انى أعجب لصبر مولاى على وقاحة هذا الخائن ، وكيف لم يأمر بقطع رأسه .. »

فلما تحقق حسن بلوغ الأمر غايته ، وخشى أن تنفـذ حيلة عرفجة فيه فيأمر الحجاج بقتله ، فينفذ الأمر فى بضع دقائق .. عوَّل على الايقاع بعرفجة ، فالتفت اليه وخاطبه بقلب جسور قائلا : « هل تدعونى خائنا ، وما الخائن الا أنت ؟ .. »

فوثب عرفجة من مجلسه وأظهـر الغضب ، وقال : « كيف تتجاسر على هذه الوقاحة فى حضرة الأمير ، وهو أعلم النـاس بصدق طاعتى واخلاصى . والله لو أذن لى الأمير لقطعت رأسك بيدى .. لأنى أعلم الناس بخيانتك ، ويعلمها أيضا غلامى قنبر ، ثم صاح : « قنبر » فلم يجبه أحد ، فكرر النداء فأجابه حسن : « لن يجيبك قنبر لأنه نال جزاءه .. » فالتفت عرفجة الى الحرس

وامارات الاستفهام فى وجهه ، وقبل أن يسألهم أشار أحدهم بيده : « ان حسنا قتله » فأجفل عرفجة وحملق عينيه ، وصاح فيه : « قتلت غلامى وأنت واقف لا تخشى قصاص الأمير .. ! »
ثم التفت الى الحجاج ، وقال : « أتراه لم يستوجب القتل بعد وهو قاتل عمدا ؟ .. »

فابتدره حسن قائلا : « قتلته لخيانته وسوف يصيبك نصيبه بأمر مولانا متى ثبتت خيانتك .. »

فقال عرفجة : « أتتهمنى بالخيانة ، وخيانتك ظاهرة للعيان ، وقد أضفت اليها جريمة القتل ؟ ! .. »

***

فلما رآهما الحجاج يتجادلان ، ويحاول كل منهما اثبات الخيانة على الآخر .. رأى من الحزم والدهاء أن يصبر على الجدال وان كان ذلك مخالفا لما تعوده أهل مجلسه ..

أما حسن ، فلما رأى الحجاج مصغيا .. التفت الى من حوله من الأمراء وقال : « أشهدكم على ان دم الخائن مهدور أيا كان .. »

فقال عرفجة : « ما الخائن الا أنت ؟ ! »

فعند ذلك تجلد حسن حتى ملك نفسه ، ونظر الى عرفجة وقال له بصوت هادىء : « من الخائن منا يا عرفجة ؟ .. »

قال عرفجة : « انت .. »

قال حسن : « أنا الخائن ، وانت الأمين الصادق فى خدمة أمير المؤمنين ؟ ! »

قال عرفجة : « وهل من شك فى ذلك ؟ »
قال حسن : « وما قولك فى الكرسى ؟ »
فلما سمع عرفجة لفظ الكرسى ارتعدت فرائصه وبدت البغتة فى عينيه ؛ ولكنه تجاهل ولجأ الى المغالطة وقال وهو يضحك ويظهر الاستخفاف : « كرسى ؟.. اسمعوا ماذا يقول ؟.. لاشك انه يهذى .. »
قال حسن : « أنسيت الكرسى وهذا لهيب ناره لايزال يلفح وجهك .. أعرفت أى كرسى أعنى يا عرفجة ؟ .. »

***

فتحقق عرفجة من اطلاع حسن على حريق الكرسى ، ولكنه استغرب ذلك وأنكره وعاد الى المحاولة ؛ فقال : « ما بالك تهذى يا رجل ، وأى كرسى تعنى ؟ .. » قال ذلك والحجاج ينظر فى عينيه ، وقد تبين له وقوعه فى ورطة ، فظل صامتا
فقال حسن : « ألم تفهم أى كرسى ؟ .. كرسى المختار بن أبى عبيد الذى كلفتمونى لعنه الآن ... »
قال عرفجة : « وما شأنه ؛ وما علاقة المختار بما تقول ؟ .. »
قال حسن وقد رفع صوته : « ألا تعرف علاقته بك ؟.. اذا كنت لا تعرف تلك العلاقة فاسأل محمد بن الحنفية عنها والرجل قريب من هذا المكان ، اسأله أو اسأل من شئت .. واذا أنكرت استجوبنا رماد الكرسى .. هل يكفى ذلك ؟ »

– ٧٤ –

التخلص

فلم ير عرفجة بعد ذلك التصريح الا ان يطعن فى أقوال حسن كلها ، ويبالغ فى التجاهل ، فقال وهو يضحك : « أتظن ان مثل هــذه المفتريات تنطلى على مولانا الأمير ، وهل تظنه يصغى لكلام مختلق لا معنى له ولا أصل ؟.. ولكن الأمير صبر طويلا عليك فطمعت لأن الحلم مع اللئام رذيلة .. فما كان أجدره أن يخرسك بكلمة يقطع بها رأسك .. »

قال حسن : « للأمير أن يفعل بى ما يشاء ، ولكن ذلك لا يبطل انك خائن قد ارتكبت فى سبيل خيانتك القتل والنفاق . وقد أنكرت الكرسى وأمره ، وأهل المدينــة يعرفون تكتمك لبضعة أعوام ومحافظتك على محفة لا يعرف أحد ما فيها . ولم يكن فيها الا كرسى المختار الذى زعم انه لعلىٍّ بن أبى طالب وحارب بنى أمية من ورائه ، فلما مات حفظت انت هذا الكرسى لتجعل نفسك خليفته فى مناصبة بنى أمية الحرب لاستخراج الخلافة منهم الى محمد بن الحنفية الذى كان المختار يدعو له »

فقطع عرفجة كلامه قائلا : « ان هذا محض اختلاق » ..

فقال حسن : « ان ابن الحنفية شاهد على ذلك ، ومهما قلنا فى استحقاقه الخلافة أو عدم استحقاقه فلا يشك أحد فى صدقه..

واذا استبعدتم شعب على ، ففى المسجد بمكة من شهد حريق الكرسى معى ، وشهد الاهانة التى لحقت بهذا النزيه الصادق لمّا تقدم الى محمد بن الحنفية يطلب اليه أن يأذن له بالدعوة باسمه وخلع طاعة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .. »

ولم يتم حسن كلامه حتى ضج كل من بالفسطاط . ورجح لدى الحجاج صدق كلام حسن ، لأنه كان مع تقريب عرفجة منه لا يجهل خبثه ونفاقه ، لأن الحجاج كان من ذوى الفراسة الصادقة .. وانما كان يقربه منه لأنه يحتاج الى أمثاله لبعض الأغراض . فلما بدا له صدق هـذه التهمة الفظيعة صمم على قتله ، ولكنه أجّل ذلك ليرى ما يكون ..

أما عرفجة فلما غلبته الحجة عمد الى المواربة ، فقال وهو يظهر التعقل والهدوء : « يظهر لى ان مولاى الأمير سكت عما سمعه من هذا الرجل ، كأنه مال الى تصديقه .. »

فقال الحجاج : « وهل تحسبه اختلق ذلك كله اختلاقا ؟ »

قال عرفجة : « نعم يامولاى .. »

قال الحجاج : « لا يعقل أن يفعل ذلك ويستشهد بأناس معروفين .. وهب انه اختلق ذلك ، فما الذى يدعوه الى هذا الاختلاق ؟ » ..

فضحك عرفجة ثم أظهر الاهتمام ، وقال : « يدعوه الى ذلك أمر أفظع من هذه الخيانة ، لو ذكرته لك لم تصبر عن صلبه ..»

فقال الحجاج : « وما ذلك ؟ »

قال عرفجة : « اننى أضن بعِرض الأمير أن يذكر فى مثل هذا المقام ، فاذا أذن مولاى بخلوة ذكرت له السبب ، وأنا ضامن انه يقتنع ويرى براءتى .. »

فقطب الحجاج حاجبيه وأشار بيده ، فخرج كل من فى الفسطاط من الأمراء والحراس وفى جملتهم حسن ، وبقى الحجاج وعرفجة فقط . فلما خرج حسن رأى فى وجوه الأمراء استحسانا لما سمعوه منه ، وكلهم ناقمون على عرفجة لفظاظته وسوء سريرته .. واذا أظهروا له الود أمامه ، فانما يظهرونه خوفا من الحجاج لما يعلمونه من قرابته منه . وفاتهم ان الحجاج نفسه لم يكن يثق به ، وانه كان يداهنه لعله ينفعه فى أمر ..

فلما خلوا أخذ عرفجة يقص عليه حديث حسن مع سمية ، وانه — أى عرفجة — نظرا لما آنسه فى ابنته من الجمال والحكمة أرادها للحجاج منذ بضعة أعوام ، وكان يبذل ما فى وسعه لتهيئتها لخدمته . فجاء هذا الشاب وخدعها بحبه ، وهى فتاة لا تدرك أمور الدنيا .. فانخدعت بظاهره حتى انه أراد أن يختطفها ويفر بها ، وكادت تفر معه لو لم يطلع هو على هذه الدسيسة ، فسعى الى قتله بمساعدة طارق بن عمرو عامل المدينة .. الى أن قال : « وهذا طارق بين يدى مولاى ، اسأله وهو ينبئك بصدق قولى .. فالظاهر ان الرجل الذى أنفذناه لقتله لم يظفر به فبقى على قيد الحياة . ولما علم بأن سمية زفت الى الأمير جاء متنكرا ليخدعها مرة ثانية ويغريها ، فرأيته أنا ساعة مجيئه مع ليلى

بالأمس وبعثت من يتعقبه فلم يجدوه ، ولكننى علمت انه سار الى جهة اخبية النساء وقد شق على ان أصرح بذلك لمولاى الأمير لئلا أغضبه ، فقلت ان الرجل جاسوس وهو فى الحقيقة لا يخلو من الجاسوسية لأنه هو صاحب الكتاب الذى جاء به ذلك الثقفى، وكنت ظننته قد قتل صاحبه فاذا هو قد قتل رجلا آخر. وخلاصة الأمر ان الرجل علم اننا اطلعنا على أمره ففر الى الخرائب المجاورة حتى كشف لنا سره عبدى قنبر ــ رحمه الله ــ فأرسلنا معه الفرسان للقبض عليه . ويؤيد صدق قولى انك لما سألته عن غرضه من المجيء الى هنا لم يستطع جوابا ... »

فرأى الحجاج كلام عرفجة معقولا ، ولكنه رأى التهمة الموجهة اليه معقولة أيضا .. فلم ير خيرا من الصبر حتى ينجلى له الحق ، وعزم فى قرارة نفسه على ان يقتل الاثنين .. فأمر بسجن حسن ، ومتى احتاج اليه فى تحقيق التهمة على عرفجة استحضره . وتظاهر لعرفجة انه اقتنع بسوء قصد حسن ، وطيب خاطره وصرفه

— ٧٥ —

يأس ! ..

ذهب حسن الى محبسه فى خيمة أفردوها له فى طرف المعسكر، وببابها حارسان معهما الحراب .. ولما وصل اليها رآهم قد أعدوا له الأغلال ، فأغلوا رجليه وشدوا وثاقه ، فعظم ذلك عليه وأيقن

بقرب الخطر . ولما خلا بنفسه ، جعل يفكر فيما مرَّ به ، وراجع ماجرى بينه وبين عرفجة من الجدال ، فرأى انه صرح بالتهمة ، لكنه لم يثق بأن الحجاج قد اقتنع بجناية عرفجة وبخاصة بعد أن علم الحجاج ان حسن يسابقه على سمية ، فان الغيرة وحدها تكفى لتعمى الحجاج عن كل ذنوب عرفجة واضافتها الى ذنوب حسن

قضى حسن فى ذلك بقيــة ذلك اليوم ، وجاءوه بالطعام فلم يتناول منه شيئا . وقضى ليلته ساهرا وخيال سمية أمام عينيه وذكرها على فمه ، وأعمل فكره فى حيلة يحملها بها ويطير من ذلك المعسكر فلم يهتد الى حيلة

وفيما هو متوسد على حصير من سعف النخيل ، وقد أثقلته الأغلال ، سمع وقع أقدام خفيفة فى الخيمة فانتبه ، فسمع صوتا يناديه : « لا تخف يامولاى .. انى خادمك عبد الله »

فحاول حسن الجلوس ، فساعده عبــد الله . وعندما جلس قال له : « ما وراءك ؟ .. »

قال عبد الله : « ما ورائى الا الخير ان شاء الله »

قال حسن : « وما الذى جاء بك الى هنا ؟ .. »

قال عبد الله : « احتلت على الحارسين حتى استبدلت أحدهما بنفسى لما لى من النفوذ لأنى من حرس الحجاج ، ولبثت خارجا حتى أتت نوبتى فى السهر عليك ، ونام رفيقى فدخلت لأسألك عما تريد .. »

قال حسن : « لا أريد شيئا ... ان الفرار بنفسى لا أبغيه ،

ولو عرض عليّ ما قبلته .. واما الفرار مع سمية ، فأقنع نفسى بقبوله .. لأنى أكره الفرار وأرفض أن أقوم به مرة أخرى »

فقال عبد الله : « وما الحيلة يامولاى اذا وقع الحر بين أيدى الظالمين الطغاة وقد تفوقوا عليه بعـددهم وقواتهم ؟.. أيسلم نفسه لهم أم يستحل الخروج من بينهم بأية وسيلة كانت ؟ .. »

قال حسن : « أتريد أن أفر من هذا المعسكر وحدى ، وأترك سمية فى بيت الحجاج .. هل ترانى أهوى البقاء لأجل حياتى وحدى ؟ » ..

فابتدره عبد الله قائلا : « كلا يامولاى ، لا أعنى أن تخرج وحدك ، بل أعنى البحث عن وسيلة تخرجان بها أنت وسميـة معا .. ولا عار فى الفرار من بين يدى وحش كاسر لا يعرف الحق ولا يرعى العدل » ..

فظل حسن ساكتا وسكوته دليـل على القبول .. فلما رآه عبد الله ساكتا ، استأنف الكلام فقال : « سأذهب غدا الى خباء النساء أستطلع الخبر ، وأرى ما يتم عليه الاتفاق وأعود اليك .. أما الآن فاقلع عما أنت فيه من يأس ، وتناول طعامك حتى يأتى الله بالفرج القريب .. » ثم ودعه وخرج ، وقـد أحس حسن بارتياح ، وأعجب بغيرة عبد الله وصـدق مودته .. ومكث فى اليوم التالى ينتظر رجوعه بما تم عليه رأى سمية ..

وكانت سمية قد واعدت عبد الله على الخروج معه فى مساء الأمس ، ثم سمعت بالقبض على حسن والرجوع به الى المعسكر ،

ثم بلغها انه سجن . وما لبثت ان رأت الجند قد أحدقوا بخبائها ومعهم السلاح ، فأيقنت ان الحجاج اطلع على سر الأمر ، وعلم الغرض من مجيء حسن الى معسكره ، فتحققت انها وقعت فى خطر الموت . ولم تر فرجا الا فى مخاطبة أمة الله ، فاستدعتها اليها وكانت هى التى أخبرتها بسجنه .. وكانت أشد قلقا منها على حياة مولاتها ، ولكنها أظهرت التجلد وجاءتها وهى تتظاهر بعدم الاهتمام ، فقالت لها سمية : « ما رأيك فى هذا الجند المحدق بنا كما يحدقون بالقتلة ومرتكبى الجرائم الكبرى ؟ »

قالت أمة الله : « وما الذى يفعلونه ؟ .. »

قالت سمية : « تسألينني عما يفعلونه ... وقد سجنونى وسجنوه ، ولاشك ان ذلك العاتى قد اطلع على ما بينى وبين حسن ... فما الذى نرجوه منه غير الفتك بنا ؟ ! »

قالت امة الله : « لا أظنه يفتك بك ... »

فقطعت سمية كلامها ، وقالت : « تظنينه يستبقينى لمآربه الدنىء !.. وما أنا باقية على نفسى .. أين السم الذى احتفظت به لى ؟ .. لقد حان وقته .. » وكانت امة الله قد أخذته لتحفظه عندها لوقت الحاجة ..

قالت امة الله : « لا أظن وقته قد حان يامولاتى ، وحسن لايزال على قيد الحياة .. ومن يدرى ما يأتى به الغد ؟ .. »

قالت سمية : « تتوقعين لحسن بقاء ، وقد وقع فى قبضة هذا الظالم ، وهو منافسه على عروسه ؟ .. أعوذ بالله من ظلمه ..

آه يا ليتنى ظللت على يأسى الماضى ولم أعلم ببقاء حسن على قيد الحياة ؛ فقد كنت أحسبه مات ولا بد لهذا الظالم من قتله ، أما الآن فكيف أبتغى الحياة فى بيت رجل قتل حبيبى .. ؟ »

فقطعت امة الله كلامها ، وقالت : « لا تقولى قتله لأنه لم يقتله .. وعساه أن لا يقتله ، فان الله قادر على أن ينقذه ... »

قالت سمية : « نعم .. ان الله قادر على كل شىء .. وأما حسن فانه فى حكم المقتول الآن » قالت ذلك وخنقتها العبرات ، فسكتت ..

فاحتارت امة الله فيما تعزيها به وهى واثقة من قرب مقتل حسن ، ولن تلوم سيدتها اذا هى انتحرت ولم ترض بالبقاء فى بيت قاتل حبيبها ، فظلت ساكتة . واستأنفت سمية الكلام ، فقالت : « أين السم ؟ .. اعطينى اياه ... »

فتغير وجه امة الله وتناثرت الدموع من عينيها ، وقالت : « دعى السم ، فان وقته لم يأت بعد .. »

قالت سمية : « اعطينى اياه .. وأعاهدك على انى لن أتناوله الا بعد أن أقطع الأمل من بقاء حبيبى ومنتهى أملى حسن » . وشرقت بدموعها ، وأطلقت لنفسها عنان البكاء ، فبكت امة الله معها .. ثم رأت هذه أن لا تبيح لها الاسترسال فى الحزن على تلك الصورة فكظمت ما فى نفسها ، وقالت : « أتعدينني أنك لا تتناولين السم الا بعد أن يقع الخطر حقيقة ؟ » فعاهدتها على ذلك ، فخرجت ثم عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام .

فتناولته منها وقبلته وهى تقول : « انت منقــذى من أحزانى واتعابى .. انت وحدك معينى على قهر هذا العاتى ، وانت وحدك ستحول بينى وبينه .. »

وكان الحجاج قد أمر باخراج ســائر النساء من الخباء الا سمية وخادمتها وأمر الحرس ان يحدقوا به وهم فى غفلة عن سبب ذلك ، فكانت سمية تصيخ بسمعها من جدران الخباء لمــا يتحدث به أولئك . وسمعتهم يتحدثون بما أظهره حســن من الشهامة وعزة النفس ، وما ظهر فى كلام عرفجة من التــلاعب والغدر . وكانت سميــة اذا سمعت ذلك رقص قلبهــا فرحا ، ولكنها لا تلبث أن تعود الى هواجسها

أما عبد الله ، فلما جاء للمداولة مع سمية فى الفرار ، رأى الحرس محدقا بخبائها على تلك الصورة .: فعاد ولم يرها وأخبر حسنا بما كان ، فزاد الأمر فى ناظريه تعقدا . ولم ير خيرا من الصبر لما يأتى به القضاء ، وعبــد الله يعزيه ويسليه ويتجسس أحوال سمية ويتنسم أخبارها .. فيعلم انها لا تزال فى الخباء ..

— ٧٦ —

دعوة عاجلة

قضى حسن أياما فى ذلك ، وأصبح ذات يوم وقد رأى فى منامه بلالا خادمه ، وكان قد تركه فى مكة ، يقول له : « اذا

استبطأتنى فاطلبنى فى معسكر الحجاج » فلاح لحسن أن يكون قد جاء الى المعسكر ، ولم يعلم بمكانه . فلما دخل عبد الله عليه فى الليل ، ذكر له هذا الأمر ووصف له بلالا وقيافته ، فقال عبد الله : « رأيت فى هذا المعسكر عبدا أظنه هو الذى تعنيه ، ويظهر انه يفتش عن ضائع .. ولم ينتبه له أحد لأن الحجاج وحاشيته وسائر الأمراء يتأهبون للهجوم على ابن الزبير دفعة واحدة ، ولولا ذلك لكشف عرفجة أمره واتهمه بالجاسوسية ..»

فقال حسن : « يهمنى أمر هذا العبد ، استقدمه الىَّ على عجل » فخرج عبد الله فرأى بلالا ، فاغتنم فرصة انشغال الناس بالتأهب وجاء به الى السجن بحجة انه يحمل له طعاما ، وادعى انه لا يأمن دخوله على حسن وحده ، فدخل هو معه ، فقال بلال : « انى أبحث عنك منذ بضعة أيام حتى يئست من لقائك ، وكدت أرجع خائبا .. فالحمد لله انى رأيتك ولو فى السجن ... »

فقال حسن : « وما خبرك ؟ »

قال بلال : « جئت اليك فى مهمة عاجلة ، وأخشى أن يكون قد فات أوانها .. »

قال حسن : « وما هى ؟ .. »

قال بلال : « استدعانى ابن صفوان الى منزل عبد الله بن الزبير فى مكة ، وسألنى عنك فأخبرته انك لم تعد بعد . فقال ان أمير المؤمنين (ابن الزبير) يحب أن يراك لأمر ذى بال خاطبته أنت بشأنه منذ بضعة وعشرين يوما ؛ ويُسِرّ اليك بشىء لا

يقدر أن يعهد به الى سواكِ . فجئت على عجل ، وقد قضيت ثلاثة أيام فى البحث عنك حتى جاءنى عبد الله كما رأيت .. »

فقال حسن : « ابن الزبير يطلب أن يرانى فى مكة ؟ .. »

فقال بلال : « نعم يامولاى ، وقد ألح علىَّ كثيرا ، وقال انه يريد أن يُسِرَّ اليك أمرا يهمك كما يهمه ، وان الوقت ضيق »

فأطرق حسن وأعمل فكره ، فتبين له ان ابن الزبير يريده لكلام يتعلق بأخته رملة وخالد بن يزيد ، وتذكر انه انما جاء الحجاز من أجل هذا الأمر ، وقد عهد خالد بذلك اليه وأنفذه بشأنه ، فرأى من الواجب عليه ان يجيب الدعوة حالا . فالتفت الى عبد الله وقال : « عرضت علىَّ منذ أيام الخروج من هـذا المعسكر ، فهل فى امكانك اليوم أن تطلق سراحى ؟ » ..

قال عبد الله : « ذلك هيِّن علىَّ فى أى وقت تشاء ، وانى أفديك بروحى » ..

قال حسن : « لا أبتغى الفرار ، وانما أريد الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ، ثم أعود فى الصباح الى السجن »

فأعجب عبد الله بعزة نفسه ، وقال له : « افعل ما بدا لك ، فانى فاعل ما تريد »

وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل ، فقال عبد الله : « تمهَّل قليلا فأعطيك ثوبى فتلبسه وتتزيا بزيِّى ، وأنا ألبس ثوبك وأمكث فى هذا السجن مكانك ريثما تعود ، وتخرج انت كأنك من حرس الحجاج وتتظاهر بأنك ذاهب فى مهمة الى ابن الزبير.. فلا يعترضك

أحد ، واذا رأيت أن تبقى هناك وأنا أحتال لألحق بك فعلت ..»
فأدرك حسن ان عبد الله مستعد لبذل أية تضحية فى سبيل نجاته ، فقال له : « بورك فيك من صديق صادق .. ولكننى أخشى أن أصاب بسوء فلا أعود ، فتقع أنت تحت طائلة العقاب »
قال عبد الله : « اذا أصابك سوء فلا أطمع أنا فى البقاء ، وفضلا عن ذلك فان الناس سيبدأون فى الهجوم فى صباح الغد ، ولا أظنهم ينتبهون لما حل بسجينهم ، ولا يطالبنى أحد بك ، وربما أطلقت نفسى من السجن ولا بأس علىّ .. »
فقطع حسن كلامه قائلا : « أما الرجوع فلا بد لى منه .. لا بد لى من الاستماتة فى سبيل سمية .. » قال ذلك وصمت بغتة ، كأن فكرة جديدة خطرت فى ذهنه ، ولبث برهة لا يتكلم ثم قال : « لابد لى من السعى فى الانتقام من أبيها الخائن .. »
ثم التفت الى بلال ، وقال له : « هل تذكر ما رأيناه خلسة من خيمة صاحبك سعيد فى فسطاط محمد بن الحنفية ؟ »
قال بلال : « أظنك تقصد حكاية عرفجة والكرسى ؟ »
قال حسن : « اياها أعنى ، هل تستطيع الحصول على كتاب من محمد المذكور ــ بخط يده ــ الى الحجاج ، يشهد له فيه ان عرفجة جاء ومعه الكرسى ، وعرض نفسه ليطلب له البيعة من أهل العراق ليخلعوا بيعة عبد الملك بن مروان ؟ »
قال بلال : « ذلك علىّ هين بالنظر لما لى من الدالة على سعيد ، ولما أعلمه من دالة سعيد على محمد » .

قال حســـن : « اذهب اذن الى الشعب توا ، وأتنى بذلك الكتاب عاجلا . سر من أقرب الطرق واجعل رجوعك الى هذا المعسكر ، لأنى سأذهب الى مكة لمقابلة ابن الزبير ثم أعود الى أغلالى وأرى ما يأتى به القدر .. »

فخرج بلال وسار فى مهمته .. وأما عبد الله فانه خرج الى المعسكر وقد اشتغل الناس بالاستعداد ، وزميـــله واقف بباب الخيمة يود او انه يلحق بالمحاربين ليصيب بعض الغنيمة . فلما رأى عبد الله خارجا سأله اذا كان ينوى البقاء فى حراسته أو الذهاب للقتال ، فقال : « اذا شئت أنت اللحاق بالجند فاذهب ، وأنا أبقى هنا حارسا لهذا السجين » فسرّ الرجل وتحول . ولما غربت الشمس دخل عبد الله على حسن ، فألبسه ثيابه وسلمه الحربة وصرفه ، وجلس هو مكانه . فخرج حســـن والتمس طريق مكة ، فأسرع ليبلغ مكة باكرا فينبىء عبد الله بعزم الحجاج لعله يجد سبيلا للدفاع

— ٧٧ —

مفاوضة

دخل حسن مكة ولم يعترضه أحد ، ولا رأى فى أسواقها أحدا حتى أشرف على المسجد .. فوجد الناس قد تزاحموا فيه وفيما جاوره من المنازل ، فعلم انهم يتوقعون شرا ولم يفهم ما نواه

الحجاج . فسار توا الى منزل عبدالله بن الزبير ، فرأى النـاس يتزاحمون عند بابه ، فسأل عن ابن صفوان فقيل له انه فى خلوة مع أمير المؤمنين .. فوقف مع الواقفين حتى مضى معظم الليل ، فشق جموع الناس ودخل يلتمس الحجرة التى فيها عبـدالله ، فلقيه الخدم فسألوه عن شأنه ، فقال : انه يريد أمير المؤمنين لأمر ذى بال .. فخرج اليه ابن صفوان ، فلما عرفه رحب به ، ورأى حسن الانقباض على وجهه فقال له : « أين أمير المؤمنين ؟ »

قال ابن صفوان : « تركته يصلى الفجر »

قال حسن : « جئت اليه عملا باشارته »

قال ابن صفوان : « طلب أن يراك لأمر يريد أن يُسِرَّه اليك .. وسوف أدخلك عليـه » قال ذلك وعاد الى الحجرة ، ومكث حسن فى انتظار عودته فى فناء البيت وهو يتوقع أن يكون غيابه طويلا ، لعلمه بطول صلاة ابن الزبير منذ أن رآه يصلى فى المسجد من عهد قريب

وبعد هنيهة عاد ابن صفوان وأشار الى حسن فتبعه ، ودخل فرأى عبدالله واقفا فى الغرفة وقد تقلد الحسام ولبس الدرع تحت جبة خز وتحتها سراويل ومنطقة .. وقد فاحت منه رائحة المسك ، وآنس فى وجهـه امتقاعا لم يتبينه جيدا لضعف نور المصباح ، فأسرع حسن الى تقبيل يده فأمسكه عبدالله عن ذلك ورحب به ، وأشار الى ابن صفوان فخرج فأقفل عبدالله الباب ، ولم يبق فى الحجرة غيره وحسن . فاستغرب حسن اهتمـامه

وتكتمه ، ولبث واقفا ينتظر ما يبدو منه وقد تأدب فى وقفته .
فلما أغلق عبدالله الباب سار الى وسادة على طنفسة بجانب الحجرة وأشار الى حسن فتبعه ، فأجلسه الىجانبه ووضع عبدالله السيف على ركبتيه وأسند ذراعيه عليهما فوقه ، وحسن جالس القرفصاء وهو صامت يرقب ما يبدو من حركات جليسه . ظل عبدالله برهة مطرقا وهو يلاعب لحيته بين أنامله ولا يتكلم ، ثم التفت الى حسن وقال له : « لا أظنك حصلت على كتاب من خالد .. ؟ »

قال حسن : « كلا يامولاى ، ان الرسول لم يعد بعد »

قال عبدالله : « ولا أظننى أراه ولو عاد فى الغد »

قال حسن وهو لم يدرك قصده : « كيف لا وهو طوع أمير المؤمنين حين يجيء »

قال عبدالله : « لا بأس اذا لم أره فانى على يقين من رغبة خالد فى أختى ، وقد استخرت الله فى شأنه فاذا هو خير أولئك الأقوام . فأرغب اليك اذا لقيته أن توصيه بأختى خيرا وتقول له : ان مصاهرته لآل الزبير جاءت متأخرة ، ولو عجّل بها بضعة أعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بهذا الأمر بما لا ينطبق على كتاب الله ولا سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولما قال ذلك ، ظهر الهياج فى عينيه وخشن صوته ، فأتم كلامه قائلا : « كيف يسود العتاة الظلمة ، وكيف يتغلب قوادهم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة ، فيغلبون رجالا يعبدون الله

ويعملون بكتابه ؟ » ..

فأدرك حسن أنه يئس من الفوز ، فأراد أن يستطلع رأيه ، هل عزم على التسليم أم على الحرب ، فقال له : « لا يخفى على مولاى ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، ولا غرابة فى غلبة أهل الدنيا على أهل التقى .. فقد غلب معاوية على الامام علىّ صهر الرسول وابن عمه ، وقد فتك ابن زياد بالحسين وغيره . ذلك لأن الدنيا شىء ، والآخرة شىء آخر ، وقد انقضى العصر الذى ساد فيه الحق .. عصر الخلفاء الراشدين ، عصر الدين . ذلك هو عصر التقـوى وأهله من الصـحابة ، يعرفون الحق ويرضخون له . وما الحكم الآن الا حكم دنيا فلا يتولاه غير أهل الدهاء والسياسة و .. »

ولما بلغ الى هنا ، بلع ريقه وبدا فى وجهه انه أراد التصريح بشىء ثم توقف خوفا أو حياء . فنظر عبدالله اليه نظرة من يتوقع اتمام الكلام ، فأتم حسن كلامه قائلا : « ولا أخفى على مولاى ان آل مروان وآل أبى سفيان قبلهم لم يخلص لهم الملك دون بنى هاشم وغيرهم الا بما توخوه من الدهاء والسياسة ، وما بذلوه من المال لدعاتهم وأنصارهم » فلما ذكر المال بدا فى وجه عبدالله الانقباض ، وظهر عليه النفور رغم ارادته .. فسكت حسن . فقال عبدالله : « لا تذكرنى بالمال وأمره ، فقد كنت شحيحا به لأنه مال بيت الله . ولعلّى لو بذلته للأحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالأمر دونى . ولكنى لا ألتمس الدنيا بالباطل ولا ابتاع

الأنصار بالمال » فاغتنم حسن الفرصة وذكر له ما ارتكبه من الخطأ حتى خرجت الخلافة من يده ، فقال : « ومع ذلك لو أصغيت للحصين ابن نمير يوم وفاة يزيد لما صار الأمر الى بنى مروان ، بل كان انتقل من آل أبى سفيان الى آل العوام ... »

فقطع عبد الله كلامه قائلا : « سمعتك تذكر هذا الأمر غير مرة وسمعته من سواك ، والكل يحسبون ان ابن الزبير لو أطاع الحصين ورافقه الى دمشق لبايعه بنو أمية . وأنا أحسب ذلك بعيدا ، ولا آمن أن أسلم نفسى لأناس يشق علينا التغلب عليهم فى عقر دارنا .. فكيف فى بيتهم وبين أحزابهم ؟ .. ومع ذلك فقد قُضِى الأمر .. لقد بعثت اليك لأوصيك بأختى خيرا ، فأوص بها خالدا عنى وقل له عن لسانى : « دع أمر الخلافة من ذهنك ، فانها شاقة على أهل الدين فى هذا الزمان .. واشتغل بما أنت بسبيله من العلم والكيمياء ، فان الاشتغال بها لذيذ » . ولا أخفى عنك انى عولت على الاستسلام الى القضاء بعد أن نبذنى الأهل والأصدقاء خوفا من الموت ، ولو طلبت الدنيا لما امتنعت على .. ولكننى أطلب الآخرة ، وأعتقد انى دعوت الناس الى الحق فلم يصغوا فتركتهم وشأنهم . وقد أنبأنى الجواسيس ان الحجاج وقومه قد عزموا على مهاجمتنا فى الغد .. فسألقاهم فى هذا المسجد ، فاذا تجاسروا عليه فبالكعبة والله يفعل ما يشاء » قال ذلك وغص بريقه ووقف وهو يتشاغل باصلاح بند حسامه ، فوقف حسن معه وقال عبدالله : « تعال معى الى أمى لأخبرها

بما تم عليه الأمر بشأن رملة »

— ٧٨ —

قدوة الأمهات

فمشى حسن فى أثره وقد لاح الفجر ، فدخلا حجرة رأى حسن فى صدرها امرأة عجوزا عرف انها أسماء ذات النطاقين والدة عبد الله ، وهى بنت أبى بكر الصديق وأخت عائشة زوج النبى وقد كفّ بصرها وبدا الهرم فى وجهها ، فأقبل عبد الله اليها وحياها وهمّ بيدها فقبّلها فقبّلته وتنشقت ريحه ، وتنهدت ثم قالت : « ما وراءك يابنى ؟ انى أشم منك رائحة الحنوط »

قال عبدالله : « انى أتحنط كل يوم استعدادا للموت ، وأما الآن فقد جئتك بحسن وكنت ذكرت لك قدومه من عند خالد بن يزيد لطلب أختى رملة .. فاستقدمته وأخبرته بما رضيت به من هذا الأمر ، وأنا أعلم ان خالدا يستحقها فاذا جاءك ولم أكن على قيد الحياة فهو ينوب عنى فى ذلك »

فرفعت رأسها وهى تجيل عينيها المظلمتين كأنها تحاول أن تنظر الى ابنها أو تبحث عن موقفه بين يديها ، ولكنها لم تكن ترى غير الظلام . ونظر حسن الى وجهها وقد تغطى جانباه بالنقاب ، فرأى دمعتين تقطّرتا من جانبى أنفها بغير أن يبدو للبكاء أثر فى وجهها . فلم يستغرب صبرها وتجلدها لما سمعه من ثبات جأشها وقوة

قلبها . ثم سمعها تقول : « سأفعل كما تقول » وسكتت وكأن فى نفسها شيئا تكتمه ، ثم قالت : « فى أية ساعة من الليل نحن ؟ »

قال عبدالله : « نحن فى الصباح » وما أتم كلامه حتى سمعوا وقع حجارة المنجنيق على الكعبة أكثر مما يعهدونه من قبل . فتحقق حسن هجوم أهل الشام وأيقن بوقوع الخطر العظيم ، فنظر الى عبدالله فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان القنوط فى وجهه وقد التفت الى أمه ، وقال : « والآن يا أماه ، لقد ألح أعداؤنا بالمجانيق ، وقد علمت انهم سيهجمون علينا هجوما نهائيا ليس بعده هجوم ، فاما أن نظفر أو يظفروا ، وقد آليت أن أفعل أمرا أستشيرك فيه .. فبماذا تشيرين ؟ »

فنظر حسن الى أسماء وتفرس فى وجهها .. فاذا هى لا تزال تجيل بعينيها وقد أسرعت حركتهما كأنها تتلهف لرؤية ابنها ، وليس فى عينيها أثر للدمع ، وقد أمسكت النقاب وأزاحته عن فمها فبان تجعد شفتيها تجعدا طوليا على موازاة مواقف الأسنان ، وقالت وشفتاها ترتجفان من الشيخوخة لا من الخوف : « انت أعلم بنفسك يابنى .. فان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو ، فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية . وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وان قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين .. فلِمَ بقاؤك فى الدنيا ؟ .. القتل أحسن ! »

فقال عبدالله : « يا أماه .. أخاف ان قتلنى أهل الشـــام ان يمثلوا بى ويصلبونى »

قالت : « يابنى ان الشـــاة لا تتألم بالســـلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله »

فقبّل رأسها ، وقال : « هذا رأيى والذى خرجت به دائبا الى يومى هذا .. ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها . وما دعانى الى الخروج الا الغضب لله وان تستحل حرماته . ولكننى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة . فانظرى يا أماه فانى مقتول فى يومى هذا ، فلا يشتد حزنك وسلّمى الأمر الى الله . فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر ، ولا عمل بفاحشة ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى . اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ، ولكننى أقوله تعزية لأمى حتى تسلو عنى »

فقالت وقد بان الجد فى جبينها : « أرجو أن يكون عزائى فيك جميلا .. ان تقدمتنى احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك . اخرج حتى أنظر ما يصير اليه أمرك »

فقال عبدالله : « جزاك الله خيرا .. »

ثم تحول عبدالله ليودع أخته رملة فى الحجرة الثانية ، وظل حسن واقفا فى انتظار عودته .. فسمع أسماء تتأوه وقد رفعت بصرها نحو السماء ، وقالت : « اللهم ارحم طول ذلك القيام فى

الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة وبره بأبيه وبى .. اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبتى فيه ثواب الصابرين الشاكرين » فاستغرب حسن صبرها وعمق ايمانها .. ثم عاد عبدالله اليها ، وهمّ بتقبيل يدها وهو بعيد عنها ، فقالت له : « هذا وداع ، فلا تبعد » ..

فقال عبدالله : « جئت مودعا لأنى أرى هذا آخر أيامى من الدنيا » ..

فلما سمع حسن قوله اقشعر بدنه ، ونظر الى وجه أسماء .. فاذا هو لم يتغير . فرأى من ثباتها فوق ما كان يسمعه عنها ، وعكس ما كان يتوقعه من والدة فى مثل هذه الحال ، ثم ما لبث أن سمعها تقول له : « امض على بصيرتك وادن منى حتى أودعك » فدنا منها وعانقها فعانقته وأحاطت يديها بخصره وقبّلته ، فوقعت يدها على الدرع فنفرت وصاحت فيه : « ما هذا صنيع من يريد ما تريد ؟ » فقال عبد الله وقد بدا الخجل فى وجهه : « ما لبسته الا لأشد به متنك » فقالت : « انه لا يشد متنى .. البس ثيابك مشمّرة » فمد يده الى الدرع ونزعها ، ودرج كميه وشد أسفل قميصه وجبته تحت ثنيات السراويل ، وأدخل أسفلها تحت المنطقة وخرج .(١) فخرج حسن وقد أدرك ان عبدالله انما خرج يستقبل الموت ..

---

(١) ابن الاثير ــ الجزء الرابع

- ٧٩ -

مقتل ابن الزبير

خرج حسن فى أثره ، وقد ثارت الحمية فى رأسه وعزم على الحرب معه ، فشعر عبدالله بذلك فالتفت اليه وقال : « استحلفك بالله وبالرسول أن لا تعرض نفسك للقتال من أجلنا ، اذ ليس لك شيء فى هذا الأمر »

فشق ذلك على حسن لأنه لم يكن يصبر على رؤية القتال ثم لا يقاتل ، وهو مع ذلك على يقين من فوز جند بنى أمية لكثرتهم واتحادهم .. ولكنه ظل سائرا فى أثر عبـدالله حتى خرج من المنزل ، فرأى الناس ينتظرونه وفيهم بقية أهله وقـد تدرعوا وتسلحوا وتهيأوا للقتال وقد تغطت أبدانهم بالدروع ، فقال لهم: « اكشفوا وجوهكم حتى أنظر اليكم » فكشفوها فقال : « ياآل الزبير لو طبتم بى نفسا عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا فى الله . فلا يفزعكم وقع السيوف فان ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم ، غضـوا أبصـاركم من البارقة ، وليشـغل كل امرئ قرنه ، ولا تسألوا عنى فمن كان سائلا عنى فانى فى الرعيل الأول .. احملوا على بركة الله »

وأما حسن فاحتار فى أمره بعد أن استحلفه عبد الله أن لا يقاتل ، وخاف من ناحية أخرى أن يراه الحجاج أو بعض رجاله يقاتل ،

فيثبت عندهم انه عدو .. فلا تفلح معهم حيلة بعد ذلك فى الحصول على سمية وبخاصة اذا عادوا بعد تلك المعركة ظافرين . فاختار الدخول الى المسجد والوقوف فى بعض الأطراف ريثما تنقضى الوقعة .. فصبر حتى مرّ رجال عبدالله نحو الحجون ، ثم التفت فرأى أعلام بنى أمية قد ملأت مكة وهم كثيرون ، فأسرع الى المسجد الحرام .. فلم يستطع الدخول لأن الحجاج كان قد وضع أناسا على بابه يمنعون الناس من الدخول ، فأسرع الى المنزل بجوار المسجد ودخله ، وأطل من كوة فيه فرأى ابن الزبير يناضل مناضلة الأسود مرة فى هذه الناحية ، ومرة فى تلك كأنه أسد فى أجمة ، وابن صفوان بجانبه يدافع عنه ، ثم سمع عبدالله يقول : « ويلمه فتحا لو كان له رجال » فقال له ابن صفوان : « أى والله وألف » فتحمّس حسن حتى كاد يقذف بنفسه الى المعركة . ثم لاحت منه التفاتة فرأى الحجاج قد ترجّل وأقبل يسوق الناس لمقاتلة ابن الزبير لأنه رآهم لا يقوون على الوقوف بين يديه ، وأسرع بجماعة من رجاله الى حامل علم الزبير ، وكان واقفا بباب شيبة من أبواب المسجد ، فجاء ابن الزبير لحماية العلم فانكشفوا عنه وقد دخلوا المسجد وصار القتال فيه .. فمضى ابن الزبير ليصلى بجانب المقام ، فاغتنم الحجاج ورجاله فرصة صلاته وهاجموا صاحب العلم فقتلوه وأخذوا العلم ، فتفرق الرجال وعاد ابن الزبير للقتال بلا فائدة ، وقاتل حتى قُتل هو وابن صفوان وغيرهما ، ثم رأى حسن رجلا أسرع الى جثة عبدالله وحز رأسه

وحمله الى الحجاج ، فلمــا رأى الحجاج الرأس سجد وأكرم صاحب البشارة . ثم أمر أن يحمل رأسا ابن الزبير وابن صفوان الى المدينة ، وان تصلب جثة الأول فى الحجون فصلبوها أياما (١)

أما حسن ، فلما رأى ما حل بقوم ابن الزبير وثبت له انتصار بنى أمية وسمية عندهم ، رأى أن يعود الى معسكر الحجاج لعله يغتنم فرصة غياب الجند فينجو بها والا فانه يعود الى سجنه .. فاختلس الطرق حتى خرج من مكان لايراه فيه أحد ولم يلتفت يمنة ولا يسرة . وكان وهو سائر يفكر فيما حل بابن الزبير فقال فى نفسه : « لقد خلا الجو لعبد الملك بن مروان ، وأصبحت الخلافة لا ينازعه فيها منازع » وكان حسن كلما دنا من معسكر الحجاج ، تمثلت له النجاة بسمية هيِّنة ، فمشى وهو لا يزال بلباس الحرس والحربة فى يمينه فما يشك من يراه عن بعد انه من حرس الحجاج ، فلما دخل المعسكر لم ير فيه الا نفرا قليلا من الحامية . فالتمس خباء النساء وقلبه يخفق لما يتنازعه من عوامل الرجاء والخوف والحياء والشوق . وبينمــا هو يرجو السعادة بفرار سمية ، فانه كان يعد الفرار عارا .. ولكنه هوّنه على نفسه لأنه لا يرى غير الفرار سبيلا الى نجاته ، والا فانه سيكون سببا فى تعاسة سمية أو قتلها ، فمشى بين الخيام وكل من يراه يحسبه قادما فى مهمة عاجلة . ثم رأى انه من الخير أن يذهب الى السجن ليرى ما تم لعبدالله هناك ، فاذا وجده حل

(١) ابن الاثير وغيره

وثاقه واستعان به على الفرار . فلما دنا من الخيمة رآها خالية ، فوقف برهة يفكر فى أمره ثم استعجل الى الخباء لئـلا تفوت الفرصة وهو بين العجلة والتردد . وبينما هو يمشى سمع صوت الأبواق ، فالتفت فرأى جماعة من الفرسـان يعودون من مكة فأسرع فى مشيته ليبتعد عنهم ، وهم وراءه والخباء أمامه . وكانت الشمس قد مالت نحو الغروب ، فلما أطل على الخباء لم ير حوله أحدا فهرول وهو يخاف أن تحول المفاجأة بين سمية وبين ما يبتغيه من سرعة الخروج بها ، لأنها لم تره منذ خروجه من المدينة ولا هو رآها ، ولكنه تجلّد ومشى وهو يود أن يعدو عدوا لولا ما يخشى أن يسببه العدو له من الشبهات

— ٨٠ —

لقاء رهيب

ولما وصل حسن الى الخباء ، أبطأ خطاه ريثما يتنسّم الأخبار ويستطلع الأحوال ، وهو لايعرف مدخل الخباء ولا مخرجه .. ولايدرى اذا كان عند سمية أحد من النساء أو الخدم أو الغرباء . وفيما هو يدور حول الخباء سمع خفق نعال فيه ، فأصاخ بسمعه فرأى شبحا خارجا فتفرس فيه فاذا هو أمة الله ولم يكن يعرفها ، ولكنه كان يعرف انها عندها فاشتبه فيها . أما هى فكانت قد رأته فى دار عجرفة بالمدينة ، والنساء المحتجبات يرين الرجال وهم

لا يرونهن .. فلما رأته والحربة فى يمينه استعاذت بالله لئلا يكون قادما من عند الحجاج ، ثم ما لبثت أن تفرست فيه فعرفته ، فدنت منه وقالت : « حسن .. ؟ »

قال : « نعم .. حسن ، أين مولاَتك ؟ »

قالت امة الله : « هى فى هذا الخباء فى حالة يرثى لها .. »

قال حسن : « لماذا ؟ .. »

قالت امة الله : « حزنا عليك وخوفا من ذلك الظالم لأنه فرغ من الحرب فلم يعد مقيدا بعهده : أن لا يقرب النساء »

فلما سمع قولها وفهم معناه ، اقشعر بدنه وهمّ بالدخول الى الخباء ، ولكنه خشى أن تضر البغتة بسمية ، فقال : « ادخلى وانبئيها بمجيئى للفرار معا ، فلتتشدد ولنخرج فى ظلام هــذا الليل حالا .. »

فهرعت امة الله ، ولم يصبر حسن الا قليلا حتى دخل فى اثرها ، فوجد سمية جالسة وهى تفرك عينيها بأناملها وتنظر الى امة الله وتقول : « أصحيح ما تقولين ؟ .. حسن هنا ! .. حسن جاء ؟ .. أم أنت تمزحين ؟ .. أم أنا فى حلم ؟ .. »

فلما وقع بصره عليها ، رآها قد تغيرت من الضعف وقد امتقع لونها . ولما سمعها تسأل امة الله أجابها هو : « لا ، بل أنت فى يقظة ياحبيبتى ، أنت فى يقظة .. أنا حسن جئت لانقاذك ، هلم بنا واتركى العواطف وقاومى الخفقان واحفظى لواعج الأشواق حتى

نبتعد عن هذا المعسكر .. هلم بنا حالا .. ان الوقت قصير والخطر قريب ... »

فوقفت وركبتاها تصطكان وهى لا تزال تحسب نفسها فى حلم ، ولكنها عملت باشارته وتركت كل شىء فى الخيمة الا عباءة التفت بها وانتعلت نعالها ، وقالت وهى لا تدرى أتضحك أم تبكى ، أتفرح أم تحزن : « ما أحسن هذا اللقاء ! .. هلم بنا »

وكانت امة الله تشتغل بحمل بعض الطعام ، وهى أكثر انتباها وصحوا منهما لخلو قلبها مما يتوقد فى قلبيهما . فسمعت وقع حوافر الخيل عن بعد فأسرعت اليهما وهى تقول : « لقد جاء الفرسان ... وأظنهم الحرس الذين كانوا حول الخباء بالأمس »

فلما سمعت سمية ذلك التفتت الى حسن ، وقالت وصوتها يرتجف : « حسن .. حسن .. لا تخرج ، فانهم اذا رأوك خارجا اشتدت شبهتهم فيك .. لا تخرج ، واذا كانوا قد جاءوا لأذيتك فلنمت معا ، ونعم الموتة هى ... »

فثارت الحمية فى حسن ، وهان عليه لقاء الألوف والتفانى فى الدفاع عنها ، فقال لها : «لاعاش مَن يَمَسّك بسوء وأنا حى»

ثم سمعوا وقع الحوافر يقترب ، والليل قد أسدل نقابه وبدأ الظلام يتكاثف ، وسمية ممسكة بيد حسن .. ولسان حالها يقول: « اما أن نعيش معا أو نموت معا » ولا تسل عن خفقان القلوب لما أصاب الحبيبين من عوامل الغرام على أثر ذلك اللقاء الفجائى ، وما مازج ذلك الانفعال من بواعث الخوف والاضطراب ، فاختلط

خفقان الشوق بخفقان الخوف وخفقان البغتة وقد امتقع لونهما ، وتصبب العرق من وجهيهما وارتعدت فرائصهما .. وحسن يشعر مع ذلك الضعف بأنه أشد بطشا من الأسد ، وانه لايبالى بمن يلقاهم وهو بين يدى سمية ولو كانوا ألوفا . وسمية قد أنساها ذلك اللقاء كل خوف على نفسها ، وانما كان همها أن لا يصاب حسن بسوء .. فأمسكت به وهى لا تدرى ، أتحرضه على الفرار بنفسه ولا صبر لها على فراقه بعد هذا اللقاء ، أم تفر هى معه وفى فرارها خطر عليه ، أم تستبقيه فى الخباء معها وفى بقائه جريمة كبرى . وودت لو استطاعت أن تخبئه فى قلبها أو فى عينيها لتحرسه من كيد الكائدين ..

مرت هذه الهواجس بهما فى لحظة ، وتلبثا ليريا ما يبدو من الفرسان .. فجلسا وقد أسكتهما الهوى والخوف حتى وصل الفرسان وأحدقوا بالخباء ، ولم يتكلم واحد منهم ولا تعرَّض أحدهم بشىء فرجح لدى حسن ان مجيئهم لا لشبهة أو تهمة جديدة ، وانما عادوا ليحرسوا الخباء كما كانوا بالأمس ، فسكن روعه وروع سمية وأخذا فى الحديث والاستفهام والتشاكى والرجاء والأمل .. لقد قضيا برهة هى عندهما أعز من الحياة كلها ، فلا غرو اذا نسيا الحجاج وفرسانه ، وحسبا انهما فى مكان غير ذلك المكان ، أو خيِّل لهما ان أولئك الفرسان ملائكة من السماء جاءوا لحراستهما

- ٨١ -

رسول فى الهواء

ولكنهما ما لبثا ، وهما فى ذلك الهدوء ، أن سمعا طنين سهم مرسل فى الفضاء وكأنه أصاب عمود الخباء من الخارج . وكانت امة الله مشغولة ببعض الشئون فى طرف الخباء بالقرب من موقع السهم ، فلما سمعت وقع السهم خرجت وأطلت برأسها من الخباء ، فلم تر غير الفرسان فى مواقفهم كالعادة . فمدت يدها الى السهم وأخرجته من العمود ، ودخلت به الى حسن فتناوله .. فاذا فى موضع الريش رق ملفوف ، فدنا من المصباح وفتح الرق فاذا فيه كتابة بخط عبدالله خادمه فقرأها ، ونصها : « اطَّلع عرفجة على مقركما فوشى بكما ، وأرسل الفرسان للقبض عليكما فتجلَّدا .. والله مع الصابرين »

فلما قرأ حسن البطاقة أيقن بوقوع الأمر الخطير ، ولم ير بدا من تهيئة أسباب الاطمئنان لسمية ، وكانت هى قد قرأت البطاقة معه فخافت خوفا شديدا ، ولبثت تتوقع ما يبدو من حسن . أما هو فابتدرها قائلا : « لابد لى من الذهاب الى الحجاج بنفسى لأننى لا أظنه أرسل الناس فى أثرى الا لزعمه اننى فررت من سجنى بالأمس والحقيقة انى لم أفر ، ومهما يكن من الأمر فلا بد من مواجهة الحجاج والاطلاع على ما يكون ... »

فقطعت سمية كلامه قائلة : « أتذهب الى الحجاج وأنت لا تدرى ماذا يكون منه ؟ .. أعوذ بالله من شر هذا الرجل .. ماذا يكون منه غير القتل ، والعياذ بالله .. وبخاصة لك أنت وقد علم انك عندى .. ويلاه .. كل ذلك بسببى .. يا ليتنى مت منذ أعوام ، ولم أكن سببا لهذا الأذى .. دعنى أذهب عوضا عنك ليقتلنى ، فأذهب فداء عنك لأنى مقتولة على أى حال .. »

فوضع يده على كتفها وكلاهما يرتجفان ، وقال : « لا أرى الأمر يقتضى كل ذلك ، ولن تكونى أنت السبب فى قتلى اذا قتلت ... »

فقاطعت سمية كلامه قائلة : « لا تقل قتلت .. »

قال حسن : « عسى أن لا أقتل بل أبقى على قيد الحياة .. وقد كنت أستطيع الفرار بنفسى من بين أيدى هؤلاء الفرسان ، ولكننى لا أبغى الحياة من أجلى ، وأخاف اذا أنت خرجت معى أن تقعى بين أيدى أحدهم فتهانين .. والاهانة شر من القتل . أما ذهابى الى الحجاج بنفسى فانه أحفظ لشرفى وشرفك ، وما يأتى به القدر لا مناص منه . هذا ابن الزبير كان الى صباح هذا اليوم يسمونه أمير المؤمنين ، فقتلوه وحملوا رأسه الى المدينة ، وقد استقبل الموت باسما وأمه تشجعه على استقباله ، فلا تضعفى من عزيمتى ولا تضعضعى من قوتى فى لقاء الحجاج ولو كان شعلة من جهنم . ولكننى أطمع اذا قدر لى الموت أن تذكرى حسنا ، وانه كان يحبك ويهواك ، وانه ذهب شهيدا فى

سبيل ذلك الهوى .. » قال ذلك واختنق صوته

فقطعت سمية كلامه ودموعها تتساقط على خديها ، وكانت مطرقة فرفعت عينيها ومدت يدها الى جيبها وتناولت لفافة السم ، وقالت : « كن مطمئنا ، واعلم انى أعددت ما يلحقنى بك اذا ــ لا سمح الله ــ أصبت بسوء . هذا هو السم الشافى من العذاب . وهب انك لم تصب بشىء ، فان هذا السم قد أعددته للنجاة من هذا الرجل الظالم فى أول يوم يريد أن يكون لى زوجا حقيقيا » ..

فأعجب حسن بشدة تعلقها به ، وقال : « الحق ان مثل هذه الشهامة لا تكافأ بأقل من الروح ، ولكن عسى أن ينعكس الأمر ويصفو لنا الزمان »

ثم رفع يده عن كتفها ، وقال : « استودعك الله يا سمية ، وموعدنا الغد ان شاء الله » قال ذلك وخرج ولم ينتظر جوابها لئلا تحاول أن تثنيه عن عزمه بدموعها . فلما صار خارج الخباء ، صاح بأعلى صوته : « أين هو عريف هذه الكوكبة ؟ »

فتقدم اليه فارس منهم ، وقال : « وماذا تريد منه ؟ .. »

قال حسن : « أريد أن يهدينى الى فسطاط الأمير لأنى ذاهب اليه .. »

فقال الفارس : « لم يأذن لنا الأمير بالرجوع اليه ، وانما أمرنا ان نحرس هذا الخباء بمن فيه حتى يأتى هو ، ولعله آت الساعة »

فأدرك حسن ان ذلك تدبير عرفجة لأنه يريد أن يرى الحجاج

حسنا وسمية معا ليثير غيرته ويسرع فى قتله ، فعول حسن على ان يضيع عليه تلك الفرصة فقال : « ولكننى فى حاجة كبرى الى رؤية الأمير الساعة .. »

قال الفارس : « لايمكنك الخروج من هذا المكان »

قال حسن : « لابد من خروجى » قال ذلك وعزم على العدو، فاذا انفلت من بين الخيل فان الظلام يداريه ، فيذهب توا الى خيمة الحجاج ويحاول الطعن فى أعمال عرفجة

فأجابه الفارس : « الأفضل لك أن تمكث هنا .. »

قال حسن : « واذا لم أمكث ؟ .. »

قال الفارس : « لا أقول لك اننا نقتلك لأننا مأمورون بالمحافظة على حياتك ريثما يجىء الأمير .. »

فظن حسن ان الحجاج يريد استبقاءه ليبحث عن صحة التهمة التى وجهها الى عرفجة من قبل الكرسى ، فتشدد وقال : « أقول لكم لابد من ذهابى الساعة الى الأمير ، والا خذونى الى السجن أمكث فيه الى الصباح » قال ذلك ومشى ، فتجمهروا حوله ليمنعوه .. واذا بفارس مقبل من بعيد ووراءه بضعة فرسان ، فلما رآهم حراس الخباء تهامسوا فيما بينهم وترجلوا ، ففهم حسن من تهامسهم ان القادمين هم الحجاج وحاشيته ، فظل فى مكانه ينتظر ما يكون ، ولكنه لم يتمالك عن التأثر عند رؤية ذلك الرجل العاتى

وكان الحجاج لايزال بلباسه الذى حارب به ابن الزبير ،

وقد كسته الأدرع هو وجواده ، وعليها بقع الدماء . فلما أقبل قال للفرسان : « ماذا تفعلون هنا ؟ »

فتقدم عريفهم وقال : « نحرس هذا الخباء لنمنع من فيه من الخروج » ..

قال الحجاج : « ومن أمركم بذلك ؟ .. »

قال العريف : « أمرنا به عرفجة عن أمر مولانا الأمير »

فأطرق الحجاج وقد أدرك ان عرفجة لا يهتم الا بحسن لما بينهما من المنافسة ، وكلٌ يريد الايقاع بالآخر . ولم يكن الحجاج يعلم بمجيء حسن الى خباء سمية ولا بما أمر به عرفجة ، وانما جاء الى خباء نسائه تلك الليلة لأنه تحلل من يمينه بمقتل ابن الزبير فى ذلك النهار ، فرأى الفرسان هناك . فلما علم بما فعله عرفجة سأل العريف عما وجد ، فقال وهو يشير الى حسن : « وجدنا هذا الرجل خارجا من الخباء يريد الذهاب الى مولانا »

فنظر الحجاج الى حسن فعرفه ، فتحققت عنده تهمة عرفجة له بمجيئه الى سمية ، وعظم عليه أن يراه خارجا من خباء نسائه ، وهمَّ أن يأمر بقتله حالا .. ولكنه تذكر التهمة التى وجهها الى عرفجة فرأى أن يصبر عليه الى الغد ، وبعد أن يثبت التهمة على عرفجة يقتلهما جميعا شر قتلة

وكان عرفجة قد أمر الجند بحراسة الخباء وحبس حسن فيه لعلمه ان الحجاج سيأتى الى الأخبية فى تلك الليلة فيرى حسنا عند سمية ، فيتحقق من قول عرفجة ويأمر بقتله حالا لشدة

الغضب والغيرة ، فلا يبقى سبيل لاثبات التهمة عليه . ولكن الحجاج مع عتوه وظلمه كان ذا دهاء وحكمة ، فكظم غيظه ريثما يتحقق من الأمر ، فقال : « خذوه الى السجن .. وموعدنا الغد »

فسرَّ حسن لذلك التأجيل ، ولكنه مشى مع الحراس وهو يلتفت الى الوراء ليتحقق من ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية ، فلما توارت الخيمة عن بصره تلفت قلبه الى من فيها

— ٨٢ —

المحاكمة

قضى حسن تلك الليلة مخفورا ، وفى الصباح الباكر ساقوه الى فسطاط الأمير ، وقد أمر الحجاج أن لا يحضر المجلس أحد غير عرفجة وحسن . فدخل حسن ووقف فى وسط الفسطاط ، وظل عرفجة جالسا بجانب الحجاج كأنه من خاصته وكأن حسنا هو المجرم ، وكان الحجاج اذا نظر الى حسن كاد يتميز غيظا ، ولكنه صبَّر نفسه حتى يثبت التهمة على عرفجة ، فقال له : «عهدناك فى الأمس مسجونا ، فما الذى أخرجك من السجن ؟»

قال حسن : « خرجت منه لأمر ضرورى ثم عدت ، ولو كنت أقصد الفرار ما رجعت »

فقطع عرفجة كلامه وهو يضحك : « ذهبت لأمر ضرورى ..؟ أما ذهبت الى عدونا وكنت فى منزله طوال ليلة أمس ، وتقول

انك رجعت .. ولكن الى أين ؟ .. الى السجن أم الى الخباء ؟.. »

فالتفت الحجاج الى عرفجة لفتة ظهر فيها الغضب ، وأدرك عرفجة منها تغير الحجاج عليه ، فأراد أن يخفف من غضبه فقال : « لا أجهل انى تجاوزت الحد بكلامى فى حضرة الأمير ، ولكننى لم أستطع الصبر على نفاق هذا الغلام وخداعه .. فهو يوهمنا انه ليس من الأعداء ولا من الجواسيس ، ثم يفر من السجن ليلا ويحمل أخبارنا الى عدونا ، ثم يقول انه رجع .. والأمير أدرى بمكان رجوعه ... »

ففهم الحجاج ان عرفجة يشير الى ذلك المكان ليثير غضبه ولا يصبر على التحقيق فكظم غيظه ، والتفت الى حسن وقال : « لا يهمنا السبب الذى خرجت من أجله الى ابن الزبير ، فانك متهم عندنا على أى حال . وأما سبب دخولك خباء نسائنا فسنبحثه ، ولكنك اتهمت صديقنا عرفجة بالأمس .. فهل تستطيع اثبات تلك التهمة ؟ .. »

فلما سمع عرفجة عودة الحجاج الى تهمته ، خفق قلبه وخشى عاقبة تملق الحجاج له بذكر الصداقة ، ولكنه تظاهر بالاستخفاف وجلس كمن يصغى لما سيختلقه الخصم . أما حسن ، فقال : « اما كونه خائنا لدولة بنى أمية فأمر لا شك فيه ، وقد رأيته بعينى رأسى واقفا بين يدى محمد بن الحنفية فى الشعب ومعه الكرسى الذى كان المختار بن أبى عبيد يسميه كرسى على ويدعو الناس الى بيعة ابن الحنفية به ، وسمعته يحرض محمدا

المذكور على امداده بالمال للخروج على بنى أمية فى العراق ، ويدعو الناس الى بيعته ، لأنه فى زعمه أولى من بنى أمية بهذا الأمر ... ذلك كله رأيته بعينى وسمعته بأذنى ... »

وكان الحجاج مصغيا لما يسمعه وعيناه شاخصتان فى حسن يتفرس فى حركاته وسكناته ليستطلع مقدار ما فى كلامه من الاخلاص ، فرأى الاخلاص ظاهرا فى كل كلمة . فقال له : « ثم ماذا ؟ .. »

قال حسن : « أما ابن الحنفية فانه استخف بطلبه ، وردعه عن القيام بهذا الأمر لأن وقته قد فات ، ثم أمر بالكرسى فأحرق بين يديه ، وأخرج هذا الرجل من عنده مهانا »

فلما تبين عرفجة صراحة كلام حسن حتى كاد الحجاج أن يصدقه ، لم ير سبيلا الى دفع تلك التهمة الا بالخداع والمغالطة ، فوقف ووجه خطابه الى الحجاج قائلا : « اذا كان لكلام هذا الغلام أقل تأثير فى أذن مولاى فليأمر بقتلى حالا ، لأن ظل هذه الشبهة يستوجب القتل .. فكيف بما يقول هذا المنافق ؟ .. انه أمر مستحيل ، ولكنه هول من التهمة ليخفف بها ذنبه الذى لم يرتكبه أحد قبله .. »

فقال حسن : « أما ذنبى فلا أنكره ، وسأبسطه لمولاى .. وله بعد ذلك ما يشاء .. وأما أنت .. ؟ »

فأراد عرفجة أن يشغل الحجاج بذنب حسن عن ذنبه ، فقال : « ان ذنبك لايحتمل الانكار لأنه ظاهر للعيان . وأما اتهامك

ایای بالمروق من دعوة بنی مروان فاختلاق غریب لم نسمع بمثله . وأغرب ما فيه انك لم تستطع اقامة أى دليل عليه ، ويستحيل ذلك عليك لأن دعواك محض اختلاق » قال ذلك وجلس جلوس رجل فاز على خصمه بالحجة والبرهان . ولكن الحجاج لم يعبأ بتلك الشقشقة ، فالتفت الى حسن وقال : « لا تصح دعوى بلا بينة .. فما هى البينة على ما تقول ؟ .. »

قال حسن : « وأية بينة ترجو أن تقوم على ذلك ، وقد كان الحديث بينه وبين ابن الحنفية سرا ... ولم يكن معهما ثالث ؟ »

فصاح عرفجة : « اسمع يامولاى تقلب هذا المنافق وتناقض أقواله ، فاذا كان هذا الأمر قد حدث سرا فى خيمة مقفلة .. فما الذى أطلعه هو على ذلك السر ؟ .. أرأيت مقدار تنطعه وجهله وكيف انه لم يحسن سبك الأكذوبة .. »

فدخل الحجاج شك فى قول حسن ، فقال : « صدق عرفجة .. زعمت انك عرفت ما دار بينهما وسردته كأنك سمعته من شفاههما ، وقلت انك رأيت وسمعت .. فكيف ذلك ؟.. فاذا كنت انما تقول جزافا ، فاقتصر ولا تطل أجلك ساعة أخرى »

فلما رأى حسن انخداع الحجاج بكلام عرفجة تجلد وأظهر التعقل وقال : « نعم .. كان الكلام فى فسطاط مقفل .. ولكننى سمعت ورأيت خلسة ... »

فقال عرفجة : « انت تقول انك سمعت ورأيت ، وقد بدا من تلون أقوالك ونفاقك انك لم تسمع ولم تر .. ولعلنا اذا ألححنا

بطلب الشهود منك أتيتنا بخادمك وأقمته شاهدا ، وأنا لا أقبل غير شهادة محمد بن الحنفية نفسه ، لأنك أنت تقول انه لم يكن معنا ثالث ... »

فقال الحجاج : « انه طلب عادل لا مندوحة لك عنه »

ثم تذكر حسن انه أرسل بلالا فى تلك المهمة ، ولا يدرى اذا كان يتأتى له النجاح فيها ، فقال : « ان الأمير أدرى منى بما يحول دون الوصول الى مثل هذه الشهادة . فاما أن تستقدم ابن الحنفية الى هنا أو نذهب اليه أو نستكتبه ، وكل واحدة من هذه شاق » ..

فقطع عرفجة كلامه ، وقال : « لا أقبل الا شهادة ابن الحنفية نفسه » ..

فقال الحجاج : « ذلك هيّن ، فاننا نسأل ابن الحنفية ونعمل بشهادته ، وهو مصدق عندنا ولو لم يكن على دعوتنا »

قال ذلك وتحرك عن وسادته كأنه يريد استئناف الهمة فى البحث ، والتفت الى حسن وقال : « بقى علينا النظر فى تهمتك ، ولكنها ليست تهمة نطلب اثباتها ، وانما نحن نسألك عما دفعك الى هذه الوقاحة .. »

- ٨٣ -

وقوع ونجاة

وكان حسن قد همَّ باخبـار الحجاج انه أرسـل من يأتى بشهادة ابن الحنفية ، فلما سمع مباغتته بهذه العبارة ركز تفكيره فى البحث فى الموضوع ، وأراد أن يجيب فاعترضه عرفجة قائلا : « أنا أقص عليك الخبر من أوله الى آخره لأنه يخجل أن يقصه هو ... »

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة ، فقال بصوت مرتفع : « ممَّ أخجل ؟ أمن قصتى ؟ أأخجل لأنى أنقذتك من الموت انت وأهل بيتك ، أم أخجل لأنك خدعتنى بوعدك ثم نكثت غير مرة ؟.. انى لم أعمل عملا أخجل من ذكره » ثم وجه كلامه الى الحجاج ، وقص عليه القصة كلها باختصار ، منذ أنقذه فى العراق ووعده بابنته ، ثم لما جاء الى المدينة فوعده ثانية ثم أخلف وبعث من يقتله . فلما وصل الى هنا كان الحجاج مصغيا الى الحديث بفارغ الصبر . فقطع عرفجة كلام حسن قائلا : « قال انى سعيت فى قتله ، ولم يقل لماذا .. سعيت فى قتله لأنى رأيت معه كتابا الى عبد الله بن الزبير الذى فرَّ اليه بالأمس كما رأيت ، فخابرت طارقا بن عمرو عامل المدينة بشأنه ، فاعتبره جاسوسا فبعث من يقتله .. وهب انى كنت قد وعدته بابنتى ثم خطبها مولانا الأمير،

فكيف أستطيع غير الطاعة .. هل يتوقع أن أرفض طلب مولانا وأصغى الى قوله ؟.. والعجب كل العجب انه بعد ما علم انها زفّت الى الأمير ، لايزال يرجو الظفر بها .. وأغرب من ذلك انه طرق هذا المعسكر متنكرا ، وهمّ باغرائها بالذهاب معه . فأوقعه الله بين أيدينا وسجنّاه ففرّ الى عدونا ، ثم اغتنم فرصة انشغال الأمير وجنده فى الحرب وعاد الى اغراء تلك الفتاة ، وقد شاهده الأمير بنفسه خارجا من خباء سمية .. فاذا كان الأمير يرى الصبر عليه حلما فانى لا أصبر على هذه الخيانة .. خيانة العرض .. وما جزاء من أراد بأهلك سوءا ؟ .. »

فوقع كلام عرفجة على قلب الحجاج وقوع النار على الهشيم . وقد كان الى تلك الساعة يصبر نفسه ويتجلد فهبت فيه الغيرة ، فالتفت الى حسن وقال : « هل تنكر أنك تحب سمية ؟ .. »

قال حسن : « كلا .. »

قال الحجاج : « وتقول ذلك بين يدىّ ، وأنت تعلم انها من نسائى ؟ .. »

فظل حسن ساكتا ، فقال له الحجاج : « وهل هى تحبك ؟.. »

فأدرك حسن انه اذا صرح بحبها له جرّ عليها الموت كما جرّه على نفسه ، فأراد الرفق بها فقال : « لا أدرى ... »

فصاح عرفجة : « انها لا تحبه .. ولكنها ساذجة .. فربما استطاع أن يخدعها بكلام الجهال . كيف لا ، وهى تفاخر كل نساء المدينة بما نالته من الحظوة لدى أمير جند عبد الملك

وفاتح الحجاز وحامى ذمار بنى أمية .. »

فاستاء حسن من ذلك التدليس القبيح ، ولم يسعه الا توبيخ عرفجة ، فقال له بصوت ملؤه الرزانة والتعقل : « لا أنكر أن سمية ظفرت ببطل تطمع فيه نساء المسلمين اليوم بعد أمير المؤمنين ؛ ولكنك يا عرفجة لم تزف ابنتك الى الأمير الا رغبة فى المال ، ولو مهرك هذا المال زنجى لزففتها اليه .. »

فصاح عرفجة : « يا للوقاحة ، أتقول ذلك فى حضرة الأمير ، وتذكر عروسه بين يديه على هذه الصورة ؟ .. » ثم التفت الى الحجاج وقال : « لقد كفاك يامولاى صبرا على رجل لم يحترم عرضا ولا نسبا »

فالتفت حسن اليه وقال : « أيجوز لمثلك أن يحرض الأمير على القتل وأنت أحق بالقتل منى ؟ .. انك ملاق حتفك عاجلا جزاء خيانتك للدولة التى تدعى انك تدافع عنها . أما أنا فاذا قتلت ، فانى أذهب شهيد الأمانة والحب الصادق .. »

فالتفت عرفجة الى الحجاج ، وقال : « اسمع يامولاى ، انه لايزال يذكر الحب .. »

فقال حسن : « وهل الحب عار ؟ .. نعم انى أحب سمية حبا شديدا ، وأكره أباها كرها شديدا .. ولا أبالى أن أصرح بذلك ، وقد أبيح دمى فاقتلونى .. ولكن اعلم يا عرفجة انك مقتول عما قليل لأن شهادة ابن الحنفية آتية فى الطريق ، ان لم تكن قد وصلت الآن .. » قال ذلك وتحول نحو باب الفسطاط ،

ونظر من شق فيه لعله يرى بلالا فى جملة الواقفين ، فرآه لايزال قادما وقد علاه الغبار .. فخفق قلبه وعاد الى الحجاج ، وقال : « اذا أذن مولاى لرسولى أن يدخل ويسلم اليه ما جاء به من ابن الحنفية تبين له الصدق »

فقال الحجاج : « وأى رسول .. ؟ »

قال حسن : « رسول كنت أنفذته قبل الأمس الى الشعب ليسعى فى الحصول على هذه الشهادة لأنه كان معى يوم حريق الكرسى ، وأراه عائدا الآن .. فأمر بادخاله لنرى ما الذى جاء به .. »

فنادى الحجاج : « يا غلام » فدخل أحد غلمانه من الحرس ، فقال له : « ترى رجلا قادما برسالة أدخله علينا »

فعاد الغلام ومعه بلال .. فأقبل بلال وبيده عقدة من القصب الغليظ سلمها الى الحجاج مختومة ، فقرأ الختم من الخارج فاذا هو ختم ابن الحنفية ، ففضه وأخرج من العقدة لفافة من الرق فتحها وقرأها .. وعرفجة جالس وقد ظهرت البغتة على وجهه ، ورقصت لحيته فى صدره ، ولكنه عمد الى الاستخفاف والمغالطة.. فصار ينظر الى الحجاج ويبتسم ، كأنه يثق بأن الكتاب يتضمن براءته . أما الحجاج فلما فرغ من قراءة الكتاب التفت الى عرفجة وقال له : « لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والخديعة ، صدق هذا الشاب فيما قاله عنك .. وهذا خط محمد بن الحنفية

وختمه يثبتان ذلك حرفيا ... » (١)

فهمّ عرفجة أن يتكلم فانتهره الحجاج ونظر اليه نظرة الحنق والغضب وقال : « لا تتكلم ولا تدافع فقد كفانا ما سمعناه من خلطك .. » ثم صفق فجاءه الغلام فقال : « الىّ بالجلاد » فخرج وعاد برجل عليه قميص من جلد ، وعلى رأسه عمامة مستطيلة ، وبيده سيف حاد ، أعدوه لقطع الرقاب . وكم قطع به رقابا .. فأشـار الحجاج بسبابته الى عرفجة وحسن ، وقال : « ائتنى برأسـيهما » فأراد عرفجة أن يدافع عن نفسه فلم يستمع له ، فصاح : « كيف تأمر بقتلى ولم تتحقق من تهمتى ؟ .. ان هذه الرسالة مزورة » وأخذ فى الصياح حتى سمع صوته كل من فى المعسكر ، فغضب الحجاج وصـاح فى الجلاد : « هات رأس هذا أولا » وأشار الى عرفجة ..

فجذبه الجلاد من طوقه بعنف كأنه كان ناقمـا عليه .. وفى الحق ان المعسكر جميعه كان يشكو من تصرفه وسـوء نيته . ولم تكن قرابته من الأمير لتكسبه قلبـا من قلوبهم .. وربما اكتسب الملك رؤوس رجاله بالارهاب أو الاطماع ، واما قلوبهم فلا يكتسبها الا بصدق عطفه عليهم واخلاصه لهم .. لأن القلب لا يجذبه الا القلب

فجذبه الجلاد حتى أركعه فى ذلك الفناء ، ونزع عمامته عن

---

(١) كان ابن الحنفية على الحيـاد فى اثناء الحرب بين الحجاج وابن الزبير لانه يود هلاكهما جميعا ، وكان كل منهما قد دعاه الى المبالغة فأبى ، وقـد اصرا ان يبايع الغالب ... فلما ظفر الحجاج بايع لعبد الملك

رأسه .. فركع عرفجة وهو يتلفت الى الحجاج ، والحجاج معرض عنه . ولم يكن الا كلمح البصر حتى طار رأسه من بين كتفيه ، والناس ينظرون وفى جملتهم حسن .. وكان ذلك المنظر أشد تأثيرا عليه من الجميع لشعوره بقرب أجله ..

– ٨٤ –

البريد

فلما قتل عرفجة دخل الجلاد على الحجاج والسيف يقطر دما ، ووقف ينتظر أمره ، فأشار اليه الحجاج أن : « خذه »

فأمسك الجلاد فى طوق حسن وأراد جذبه الى الخارج . فقال حسن للحجاج : « أتقتلنى بعد أن رأيت صدقى واخلاصى ؟.. »

فصاح فيه الحجاج صيحة الغضب ، وقد احمرت عيناه وتجلى الغدر فيهما ، وقال : « أتسألنى عن قتلك وأنت مستحق الصلب منذ أيام ؟.. ولكننى صبرت حتى تحققت خيانة ذلك الغادر على يدك . أما أنت فذنبك لا يجوز النظر فيه ، وهذا يكفى » . قال ذلك وحوّل وجهه ناحية أخرى ..

فقال حسن : « فاذا لم يكن بد من قتلى فاقتلونى داخل هذه الخيمة ، وليس على مشهد من الناس .. »

فقال الحجاج : « أتشترط علينا كيفية اخراج هذه الروح النجسة ؟.. اقتله ياجلاد والا قتلتك .. »

فعاد الجلاد الى حسن فأمسكه وجذبه ، فقال حسن : « لا تجذبنى فان الموت أهون ما أتلقاه ، وأنا واثق من براءتى ... » قال ذلك ومشى نحو الباب

وفيما هما يهمان بالخروج سمعا قعقعة وصوتا يقول : « البريد ، البريد من أمير المؤمنين » فعلم الناس ان البريد قادم من عبد الملك بن مروان . وكان من عادتهم انه اذا جاء البريد لايمنعونه ولا يؤخرون حامله لحظة ، سواء كان قادما من الخليفة أو اليه .. فلما سمع الحجاج صوت البريد ، قال : « ادخلوه »

ولم يتم كلامه حتى دخل عليه رجل كهل قد أنهكه التعب وتعفّرت ثيابه ، وترامى عند قدمى الحجاج ، وسلم اليه كتابا مختوما ، ولم يعد يستطيع الوقوف لكثرة التعب . وكان حسن مشغولا بنفسه عن كل تلك المشاهد ، ولكنه استغرب وقوع الرجل فنظر اليه وتفرس فيه .. فاذا هو صديقه والد سليمان ، فتذكر انه كان قد أرسله الى خالد بن يزيد فى الشام بشأن رملة ، ولا بد أن يكون قد عاد بجواب خالد الى ابن الزبير .. فعزم حسن على الاستئذان من الحجاج بكلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله ، ليكلفه بأن يبلغ خالدا رضاء ابن الزبير ، وان رملة فى انتظاره لتزف اليه ، فيكون قد أتم مهمته قبل موته ..

أما الحجاج فتناول الكتاب ونظر الى الختم على ظاهره ، فاذا هو ختم الخليفة عبد الملك فقبّله ، ووقف له تعظيما للخلافة ، ثم نظر الى الرجل الذى حمله ، فاذا هو ليس صاحب البريد فقال

له : « من أين لك هذا الكتاب ؟.. هل انت من عمال البريد ؟ »
قال والد سليمان : « لست منهم ولكنهم حملونى على دواب البريد للاسراع فى ابلاغ هذه الرسالة الى مولاى » . قال ذلك وهو يلهث وصوته يتقطع ويتلجلج من التعب والخوف ..

ففضَّ الحجاج ختم الكتاب وفتحه ، وجعل يتلوه ويعيد قراءته ، ويتثاءب ويحك شفتيه بأصبعه ، ويلعب بشعر لحيته ، وقد ظهر التأثر فى عينيه . ثم جعل ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل فى ختمه ويقلبه بين يديه ، ووالد سليمان لايزال مستلقيا يلهث من شدة التعب وينظر الى وجه حسن كأنه لم يعرفه ، وحسن ينظر فى وجهه وكلهم سكوت ، ينتظرون ما يبدو من الحجاج بعد تلاوة ذلك الكتاب ..

***

أما الحجاج ، فبعد أن أعاد قراءة الكتاب مرارا ، أشار الى الجلاد فانصرف .. ولم يبق فى الخيمة الا هو وحسن ووالد سليمان فالتفت الى حسن وقال : « هذا كتاب من أمير المؤمنين جاءنى بما كنت تبغيه أنت . ووالله لولا حرمة الخليفة لم يكن فى الأرض من ينجيك من القتل »

فلما سمع حسن ذلك أبرقت أسرَّته ، ولكنه لم يطمئن تماما لأنه لم يفهم ما فى هذا الكتاب فهما صريحا ، فأطرق وظل ساكتا

فنادى الحجاج : « يا غلام » فدخل غلامه فقال : « ادع الكاتب » فخرج ثم عاد بالكاتب ، فدفع اليه الكتاب ، وقال :

« اتلُ هذا علينا » .. فتلاه وهذا نصّه :

« من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف أمير جندنا فى الحجاز . أما بعد ، فقد بلغنى انك خطبت ابنة عرفجة المنافق ، وهى مخطوبة لحسن ، فأخذتها وحرمته منها والرجل ينتمى الينا وتهمنا رعايته ، فاذا أتاك كتابى احمل الفتاة الى خطيبها وأمهره بما يقوم بالنفقة . ووالله لرجوعك عن الحجاز ولم تفتحه لأهون علىّ من ارتكابك هذا الأمر مع رجل من صنائعنا وخاصتنا .. وثقتى انك فاعل ما أقول والسلام »

فلما فرغ الكاتب من تلاوة الكتاب ، حتى رقص قلب حسن طربا ، وقد حسب نفسه فى حلم .. وربما خيّل له انه قتل وان هذه خيالات تمر فى ذهن المقتول بعد موته ، فجعل يتحقق من وجوده وينظر الى ما حوله . وبينما هو فى تلك الأحلام اذ سمع الحجاج يقول : « لم تتلُ الكتاب الا لتعلم اننا انما تجاوزنا عنك عملا بأمر أمير المؤمنين .. » والتفت الى غلامه وقال : « اعطه ألف دينار .. وسمية طالق منذ الآن .. وامض به الى خباء النساء وانبىء أهله اننا طلّقنا سمية وزوجناها حسنا ، فلتذهب معه آمنة . وليخرجا من هذا المعسكر قبل غروب هذا اليوم » قال ذلك ووقف ، فخرج حسن والغلام .. وكان والد سليمان قد استراح ووقف مع الواقفين ، فلما خرجوا خرج معهم وهو يهم أن يخاطب حسنا وحسن يهم أن يخاطبه

– ٨٥ –

مصيبة أخرى

وقبل أن يتم خروجهم ، رأوا فارسا يسوق جواده نحو فسطاط الحجاج والبغتة ظاهرة على وجهه ، حتى اذا وصل الى الفسطاط ترجّل ودخل بدون أن يستأذن ، وهو يقول : « ان مصيبة حلت فى خباء النساء »

فلما سمع حسن الصوت علم انه صوت عريف الحرس ، وخشى أن يكون نحسه لايزال غالبا ، فتكون المصيبة قد حلت فى سمية . فأصغى فسمع الرجل يقول : « ان مولاتنا سمية سقطت لا حراك بها كأنها تجرعت سما أو أصابها الموت بغتة »

فلما سمع حسن ذلك صعد الدم الى وجهه ، وأحس كأن صخرا سقط على أم رأسه فكاد يفقده رشده ، وشغله ذلك عن أن يسأل والد سليمان عن كيفية الحصول على ذلك الكتاب ، واندفع يعدو نحو خباء سمية ، ولم يكن والد سليمان أقل بغتة منه لأنه بعد أن بذل وسعه فى خدمة حسن ، وتوسّل بخالد لدى عبد الملك حتى استكتبه ذلك الكتاب الى الحجاج ، ثم أجهد نفسه فى سرعة السفر حتى تجاوز خطوات البريد وجاء بالكتاب فى آخر لحظة ، وسرّه نجاحه فى انقاذ حسن ونجاة سمية ... بعد أن وفق فى كل ذلك ، جاء ذلك الخبر صدمة قوية أطارت

صوابه فانطلق فى أثر حسن نحو الخباء ، وعلى أثرهما بلال وغلام الحجاج ..

أما سمية فكانت قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه تلك الليلة ، وما أمرهم به من حبس حسن الى الصباح ، وقد أيقنت أن الحجاج لايبقى عليه .. ولكنها تعللت بالممكن البعيد وصبّرت نفسها الى ما يكون فى الغد ، فقضت تلك الليلة وهى تفكر فى مصير حسن ، وأصبحت وقد أعدت السم الى وقت الحاجة ، وجلست وراء الخباء تتسمع ما يتناقله الحراس من حديث ذلك اليوم ..

وكان الحراس شديدى الرغبة فى الاستطلاع .. شأن جميع الناس فى مثل هذه الحال ، فكانوا يرسلون واحدا منهم بعد آخر لينقل اليهم أخبار تلك المحاكمة ، حتى جاء أحدهم بخبر مقتل عرفجة ، فدق قلبها أسفا على والدها وخوفا على حبيبها ، وكانت امة الله قد يئست من تخفيف المصيبة عنها ، ولم تعد تستطيع مخاطبتها فتركتها وشأنها

وبعد قليل جاءهم مخبر آخر يقول ان الحجاج قد قتل حسن داخل خيمته . فهمّت سمية الى السم وابتلعته حالا ، فرأتها امة الله وهى تفعل ذلك ، فأسرعت لمنعها فلم تدركها الا وقد ابتلعته .. فصاحت وولولت ، فجاء عريف الحراس ليسأل عما حدث ، فأخبرته أن مولاتها تجرعت السم ، فنظر اليها فاذا هى قد امتقع لونها وألقت رأسها على جدار الخباء ، ثم استلقت ولم

تبدِ حراكا .. فأسرع على جواده الى الحجاج كما تقدّم ، وهو لم يصدق انها تجرعت السم

أما حسن فقد كان يعدو نحو الخباء وهو لا يرى طريقه ولا يبالى بمن يراه من الناس ، ولا بما فى سبيله من الأحجار أو الجبال أو الأوتاد ، وربما عثر بها فنهض وعاد الى العدو لايلتفت يمنة ولا يسرة ، حتى أشرف على الخباء ، فصاح وهو لا يعى ما يقول : « سمية .. سمية .. أنا حى .. سمية يا حبيبتى .. »

ولما وصل الى الخباء أراد الفرسان اعتراضه ، فأخبرهم الغلام بأمر الحجاج فتركوه .. فأطل من الباب فرأى فيه نسوة حول سمية وهى مستلقية كأنها جثة بلا روح ، وقد أطبقت عيناها وامتقع لونها وانحل شعرها وابيضّت شفتاها ، فصرخ حسن حين رآها على تلك الحال ، ثم اندفع نحوها وفى يده خنجره فتفرقت النساء عنها ، فقال وهو يجس يدها : « حبيبتى .. روحى .. منيتى .. ماذا أصابك ! .. تجرعت السم يأسا من حياتى ؟ .. انى حى يا سمية .. سمية اما أن تحيى مثلى .. أو أموت مثلك .. »

وفيما هو يفعل ذلك ويهم أن يطعن نفسه بالخنجر ، أحس بيد أمسكته وسمع صوتا يناديه : « تمهل يا حسن ، ان سمية حيّة لا بأس عليها » فالتفت فرأى ليلى الاخيلية وبيدها كوب ماء جاءت به لترش سمية . فقال حسن : « ماذا تقولين ، كيف تحيا وهى قد تجرعت سما يكفى لقتل أشد الرجال ؟ »

قالت ليلى : « ان الذى تجرعته ليس سما ، لا تخف .. »

قال حسن : « تعللينى بالأوهام ، انها ميتة .. وقد ماتت لأجلى ، أفلا أموت لأجلها ؟ »

قال حسن ذلك ورفع يده وهو ممسك بالخنجر ، فصاحت فيه ليلى : « تمهل ياجاهل ، ان سمية حية ولم تتجرَّع السم .. ولكنها فى غيبوبة » ..

قالت ليلى ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به من بعيد ، فحركت سمية رأسها ثم حركت شفتيها ، وقالت : « حسن .. قتلوك قتلهم الله انى ذاهبة اليك »

فلما سمع حسن صوتها جثا عند رأسها ، وقال لها : « سمية.. سمية .. أنا حسن .. أنا حى يا حبيبتى وقد أنقذنى الله .. سمية ، افتحى عينيك وانظرى الىَّ .. »

ففتحت سمية عينيها وتلفتت وهى تقول : « ما هذه الأحلام .. أين حسن ؟ » ولما وقع بصرها على حسن ، شخصت فيه لحظة ثم قالت : « حسن .. حسن ؟ .. »

فأجابها حسن : « نعم .. نعم .. أنا حسن »

فجلست للحال وألقت بنفسها عليه وأخذت فى البكاء ، وهو يقول لها : « لا تبكى يا سمية .. اننى بخير »

فقالت له ليلى : « دعها تبكى فتنفس عن كبتها وتصحو من سكرتها .. » فسكت ، وأما سمية فكانت تبكى وتشهق ، ثم ترفع رأسها وتنظر الى وجه حسن وتصيح : « حسن حبيبى ..

هل أنا فى يقظة أو فى منام ؟ .. »

فأجلسها حسن الى جانبه ، وهو يقول لها : « انظرى الىَّ .. ها أنا حى ، وهذه صديقتنا ليلى .. وأطمئنك ان أسباب تعاستنا قد زالت .. » ..

فقطعت سمية كلامه قائلة : « والحجاج .. الحجاج .. كيف تزول أسباب التعاسة وهو باق ؟ .. » وبكت

قال حسن : « قد جاءه أمر الخليفة بذلك ، فطلّقك وأنعم علينا بالمال ، على أن نخرج اليوم من هذا المعسكر » فحدقت بنظرها فيه كأنها تريد أن تتحقق مما يقول ، فاذا هو يقول الجد.. وأقسم لها بحبها انه يقول الجد

- ٨٦ -

حسن الختام

فسكن روعها والتفتت الى من حولها ، فرأت ليلى وهندا وأمة الله ، فلم تصدق انها شفيت ، فقالت : « يظهر أن السم تأخر فعله » ..

فقالت ليلى : « انك لم تتجرعى الا دقيق الذرة . وأما السم الذى ظننت انك تجرعته ، فهو معى » قالت ذلك وأخرجت من جيبها ورقة فتحتها وفيها السم ، وقالت : « ألا تذكرين الليلة التى بت فيها عندك وأنت تتوعدين نفسك بالسم ؟ .. لقد أبدلت

السم ، فى غفلة منك ، بدقيق الذرة الناشفة لأنى خفت مثل هذه العجلة ، فأحمد الله على نجاتك »

فراحت سمية الى ليلى تقبّلها ، وقالت : « جزاك الله خيرا »

فقال حسن : « نعم .. جزاها الله بكل خير.. » ثم قصّ عليهن ما دار بينه وبين الحجاج بالاختصار ، حتى أتى على ذكر والد سليمان ، وكيف جاءهم فى ابان الضيق ، وانه كان السبب فى نجاته من الموت ، كما كانت ليلى سببا فى نجاة سمية منه . وكان والد سليمان لايزال خارج الخباء ، فناداه حسن فدخل ، وهو يقول : « هل يدخل عبد الله ؟ »

قال حسن : « أى عبدالله ؟ »

قال والد سليمان : « خادمك .. »

قال حسن : « فليدخل .. انى أعدّه صديقى »

ثم دخل عبدالله ، وهو يقول : « لا تظننى تخلّفت عن خدمة مولاى ، ولكننى أصبحت بعد اخراجك من السجن تحت غضب عرفجة ، فلم أعد أستطيع الظهور ، فظللت متخفيا أتنسم الأخبار . فلما تحققت من نجاتك على هذه الصورة ، جئت لأكون فى خدمتك .. »

وكانت سمية قد صحت وتيقنت انها قد فازت بحبيبها ، وانها نجت من والدها ، فثبّتت بصرها فى حسن وبصره فيها ، واكتفيا بلغة العينين ، ثم قال حسن : « والى أين تودين الذهاب ؟ .. وأين نقيم ؟ .. »



« وكانت سمية قد صحت وتيقنت انها فازت بحبيبها ، وأنها نجت من والدهـــا ، فثبتت بصرهـــا فى حســن وبصره فيهـــا ... »

فأجابه والد سليمان على الفور : « تقيمان عندنا فى المدينة .. »
فقال حسن : « لقد ذكّرتنى أمر رملة ، هل أتيت بالكتاب من خالد الى ابن الزبير فى طلب رملة . وكيف حصلت على هذا الأمر من عبد الملك ؟ »

فقصّ عليه خبر سعيه فى ذلك الأمر على يد خالد ، ثم قال : « واما ابن الزبير فقد جئته بالكتاب ، ولكنه وا أسفاه عليه قتل ولا ندرى ماذا تم لأهله »

فقال حسن : « أهله لا يزالون فى مأمن بمكة ، وقد صرح لى بقبوله بالزواج » وقص عليه الأمر موجزا ، ثم قال : « وبعد عودتنا الى المدينة ، سأبعث عبدالله الى خالد بالخبر ليبعث واحدا يحمل رملة اليه .. »

ثم التفت الى ليلى ، وقال لها : « ولست أنسى تعبك أيتها الصديقة فى سبيل هذا الأمر ، ويكفى انك كنت سببا فى بقاء سمية ، كما كان العم والد سليمان سببا فى بقائى »

فقالت ليلى : « لا فضل لى فى ذلك ، وقد فعلته وأنا مندفعة بدافع قهرى ، لأنى جربت هـذا العناء وعرفت شقاء المحبين وجهادهم .. ولا أظن أحدا من هؤلاء أدرك من حالكما ما أدركته أنا لأنى وقعت فى مثل هذا البلاء ، ولكننى لم أفز كما فزتما »
قالت ذلك وشرقت بريقها

فأدرك حسن انها تشير الى حالتها مع توبة ، فشـكر الله وسكت عن جوابها لئلا يثير عواطفها

ثم وقف والد سليمان ، وقال : « كل ذلك بتـدبير العزيز الحكيم ، وكل شيء يجرى بقضاء من الله سبحانه وتعالى .. هلمّ بنا الآن نستعد للرحيل ، وها هما عبدالله وبلال يعدان الأحمال ، ونحن نستعد معهما للرحيل »

فلما تيقنت سمية من قرب سفرها ، التفتت الى هند بنت النعمان زوج الحجاج ، وقالت : « أرجو أن يوفقك الله الى سبيل للنجاة كما نجوت أنا .. »

فتلألأت الدموع فى عينى هند .. ولم تجب

وفى أصيل ذلك اليوم ، شدوا الأحمال وساروا جميعا نحو المدينة الا ليلى ، فانها التمست وجهة أخرى . ولما وصلوا الى المدينة ، ساروا توا الى بيت عرفجة ، وقد أصبح بما فيه ميراثا شرعيا لسمية ، وكذلك كل ما كان يملكه عرفجة من العقار . وفى يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم ، وقد سُرّ بنجاح مهمتهم . واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفـالا حضرته سكينة بنت الحسين وغيرها من سـكان المدينة ، وأكثرهم كانوا يكرهون عرفجة ، وغنّى فى الاحتفال طويس وعزة الميلاء ، وأجاد أشعب الطماع فى المجون حتى كادت تتمزق خواصر الناس من الضحك . وبعد الفراغ من العرس ، سار عبدالله الى خالد فى دمشق ومعه كتاب حسن ، بتفصيل ما وقع له بخصوص رملة وبلّغه جواب ابن الزبير ، فجاء خالد وتزوج رملة بنت الزبير كما هو مدون فى التاريخ ..

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال











